الأعمال الكاملة

إبراهيم الفقيه

حقول الرماد

دار الشروق

حقول
الرماد

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

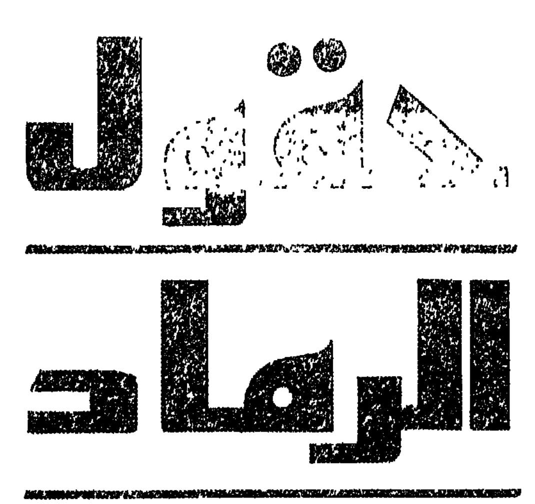
© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أحمد ابراهيم الفقيه



دار الشروق

المقدمة

« عذبني الرحيل عبر المسافات الطويلة الشاقة خضت الأودية المستنقعات .

واجتزت الجبال العالية الوعرة

وقطعت صحراء القيظ والعطش سيرًا على الأقدام أسابق حركة الليل والنهار

وأغافل العسس وحراس الحدود

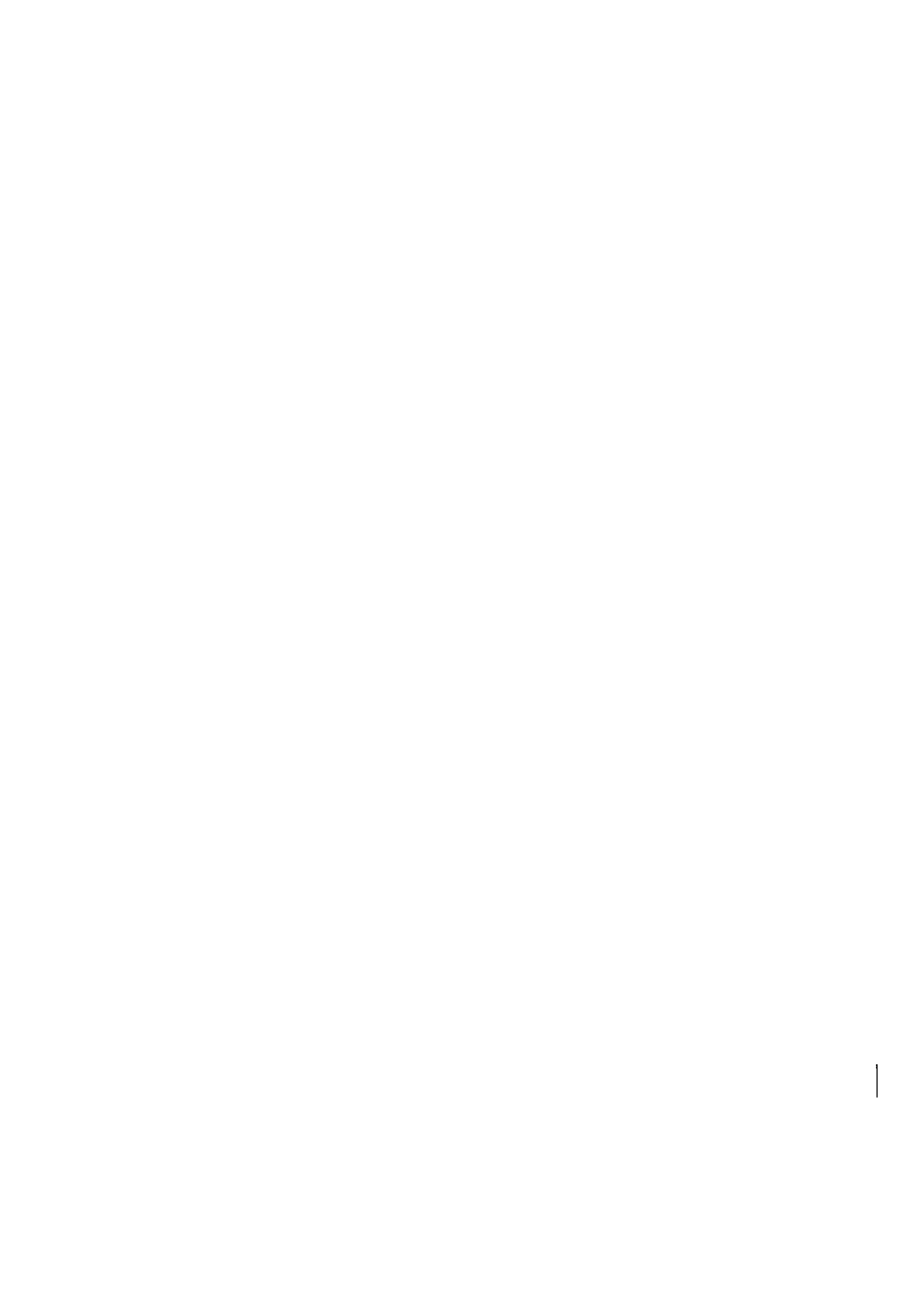
كي أنقل هذه الرسالة الخطيرة التي اؤتمنت على حملها إليكم

وعندما وصلت

وجدت أنها تمزقت بداخل الجيب الذي خبأتها فيه . . تفككت حروفها

وذاب حبرها

ولم تعد تصلح للقراءة » .



[١]

الذاهب من طرابلس إلى «قرن الغزال» على أطراف الصحراء، سيدهشه أن يرى طريقاً يواصل الصعود دون انحدار، وجبلاً يفضي إلى جبل فوقه كأنها سلالم تقود إلى السماء، هذا ما أحس به أعضاء البعثة العلمية عندما وصلوا بسيارتهم إلى منطقة الجبال، رأوا طريقاً يصعد الجبل فسلكوه، وانتظروا أن يعقب الجبل سفح في الجانب المقابل ولكن الجبل لا سفح له، بدلاً من ذلك أسلمهم إلى مرتفعات أخرى، ثم في خط صاعد وجدوا أنفسهم يجتازون القرى الجبلية ببساتينها وحقولها ويصلون إلى ذروة الجبل التي انبسطت وامتدت وأصبحت أرضاً فسيحة واسعة برحابة الأفق، كالحة جرداء، تتناثر فيها بعض النبتات الصحراوية التي أصفرّ لونها وأذابت شمس الصيف أوراقها مثل الشيح والزعتر والرتم والعجرم، وتنبثق بين الحين والآخر شجرة سدر أو أثل أو بطم، اختفى البشر والعمران، واختفت البساتين والحقول وران الصمت والوجوم فوق فضاء يمتد ويملأ القلب وحشة، كأنه ليس بعده شيء، وليس قبله شيء، إذ به بدأ الكون، وبه سوف ينتهي، وطريق أسفلتي، ضيق، متعرج، مليء بالمطبات، شاهد وحيد على أن حضارة العصر قد مرت من هذا المكان، لا يتسع

الطريق لغير سيارة واحدة، فإذا حدث وجاءت سيارة من الاتجاه المقابل، تقاسم السائق معها الطريق وحاد بنصف سيارته إلى التراب مثيراً زوبعة من الغبار تملأ الأفواه والعيون، فيغلقون زجاج النوافذ ثم يعيدون فتحه مرة أخرى بحثاً عن نسمة هواء تبدد القيظ والاختناق، وعلي امتداد الطريق رأوا أنفسهم يجتازون أودية في شكل مسارب صغيرة صنعتها السيول، تلوح بين الحين والآخر خيمة سوداء نصبت على ضفافها، أو قطعان من شياه الماعز تدس رؤوسها بين أحجارها بحثاً عن الأعشاب التي أيبستها الأشهر التي مضت من هذا الصيف.
والبون الصحراوي يمتد ويتسع، وسيارتهم ترتفع بها الأرض وتنخفض ثم ترتفع مرة أخرى وهي تجتاز تلاً صغيراً، لينشق الأفق عن مشهد البطاح التي تلوح بعيداً بلونها الضارب إلى السمرة، عارية، صخرية، تغطيها غلالةٌ رقيقةٌ من أبخرة الشمس، تجمعت تحت أقدامها كثبان من الرمال النى صنعت خطاً بلون الذهب يمتد بامتداد الأفق ويذوب في أطراف السماء التي أطبقت على الأرض، ووسط السمرة والذهب ولون السماء انبثقت دائرة خضراء من أشجار النخيل، تعلوها ثلاثة أبراج طويلة سوداء تغرس رؤوسها في السماء وتتخلل ذلك كله نقاط بيضاء هي قباب المسجد والضريح وقصر الحكومة، لوحة متعددة الألوان، منقوعة في ضوء الشمس، معلقة بين السماء والأرض، وتستند على حافة الأفق، تلك هي بلدة «قرن الغزال».

[٢]

ما ان وصل أعضاء البعثة العلمية التي يرأسها خبير أمريكي إلى القرية، حتى أدركوا أن مظاهر الأشياء لا تنبئ بجوهرها، وأن تلك اللوحة التي بدت فيها القرية صبية في ثياب العرس تهجع غافية في أحضان الجبال، ليست إلا واجهة خادعة لمجموعة من البيوت القميئة الملتصقة بالأرض والدكاكين الفارغة وحظائر الدجاج وسحب الذباب والأتربة ورائحة الفقر التي تنبعث من كل مكان. عرف أهل القرية بوصول أعضاء البعثة فصاروا يعقدون زحاماً حولهم أينما وقفوا، ويجري الأطفال بأقدامهم الحافية وقمصانهم الممزقة وراء سيارتهم أينما ذهبوا، وأقام لهم الشيخ مسعود وليمة في بيته دعا إلى ها المتصرف وبعض رجال القرية حيث دار الحديث حول مصنع الزجاج الذي اعتزمت الحكومة إقامته في «قرن الغزال» والذي ما جاءت هذه البعثة إلا لوضع المخطط النهائي لإنشائه ومعاينة المكان الذي سيقام فوقه البناء. أنبأهم الخبير أن التجارب العلمية أثبتت أن رمال قريتهم تصلح بطبيعتها المتميزة لصناعة أفخر أنواع الزجاج، واتخذ المتصرف هيئة الرجل الذي يقف وراء هذا الإنجاز قائلاً إنه سيكون مصنعاً عملاقاً يغطي حاجة البلاد وينتج فائضاً للتصدير ويستوعب في

تشغيله أهل القرية وأبناء المديريات الصحراوية التابعة للمتصرفية ممن يحتاجون للعمل، تواترت كلمات الحمد والشكر والتهليل والثناء من كل الجالسين من أهل القرية، لقد صلوا أكثر من مرة صلاة الاستسقاء طلباً للّه أن يرزقهم بالغيث، ولكن للّه حكمته التي لا يدركها البشر، فها هي السماء تمطر بدل الماء زجاجاً، وقال الخبير الأمريكي عن طريق المترجم أن أناساً كثيرين في العالم سوف يعرفون هذه القرية عندما يشربون في أكواب ويتناولون طعامهم في صحاف كتب فوقها باللغة الإنجليزية «صنعت في قرن الغزال»، ونطق الاسم محرفاً فتساءل الشيخ مسعود منزعجاً لماذا لا تكتب «قرن الغزال» بالإنجليرية بمثل ما ينطقها أهلها دون تحريف أو تبديل، فأخبره الرجل بأنهم لا يملكون في الإنجليزية حروفاً مثل القاف والغين، وأضاف المترجم قائلاً إنهم لا يملكون أيضاً الخاء والعين والحاء والصاد والضاد والظاء والطاء، فأدهشه أن تكون لغة مشهورة مثل الإنجليزية فقيرة إلى هذا الحد، وأدرك أن اللغة العربية أكثر شرفاً وغنى ولهذا اختارها اللّه لتكون لغة الوحي ولسان أهل الجنة، ونظر الحاضرون من أهل القرية بعضهم إلى بعض بحسرة وأسى لأن العالم سوف يقرأ اسم قريتهم ممسوخاً وقد يظنها قرية أخرى، وشرحوا للخبير معنى الاسم فقال ضاحكاً:

- ولكنني لا أرى غزلاناً في القرية.

نقل المترجم كلامه ضاحكاً مثل ضحكته، فأخبروهما أن ذلك كان في أزمنة غابرة عندما كانت هذه الأرض مرتعاً للظباء والغزلان، تجري أوديتها أيام الشتاء بالماء كالأنهار، لقد بنيت لتكون محطة للقوافل الغنية القادمة من البلاد الإفريقية محملة بالعاج والذهب وخشب الأبنوس وريش النعام، ثم انتهى ذلك العهد لتبقى مركزاً تجارياً لبدو الصحراء، مصدراً للمؤن والغلال، وحلقة وصل بينهم

وبين العمران، وها قد جاءت أعوام الجفاف فأمحلت الآبار والعيون وهجرت أرضها الغزلان والطيور، وسكتوا متحرجين من ذكر الأسباب الأخرى لمشاكلهم، فأكمل «ضوء الهلال» وهو رجل لم يدعه أحد لهذه الوليمة، ولكنه يفرض نفسه فرضاً على كل اجتماع، معتبراً نفسه من أعيان القرية ورجالها الكبار:

- ثم جاءت نكبة اكتشاف النفط.

نظر الشيخ مسعود نظرة غاضبة إلى ضوء الهلال، وقال يمنعه من مواصلة الكلام، ومعتذراً للضيوف عما قال:

- ما النفط إلا نعمة من اللّه على أبناء هذا الوطن.

ولكن ضوء الهلال خشي أن يميع الموقف وتضيع فرصة أن يعرف هؤلاء الضيوف الكبار المحنة الحقيقية التي تمر بها القرية فانتقل ليجلس مقرفصاً أمام الخبير الأمريكي ومضى يشرح بأسلوبه العصبي وإشارات يديه التي صار الخبير يتفاداها خوفاً من أن تصل إلى وجهه، المفارقة العجيبة التي تعيشها «قرن الغزال»، فما أن جاء النفط وازدهرت أحوال المدن والقري الأخرى حتى نكبت «قرن الغزال»، نضبت الصحراء التي حولها من البدو الذين باعوا أغنامهم وطووا خيامهم وهرولوا للعمل أجراء بشركات النفط، وتركوا هذه البلدة التي لم تبنَ إلاَّ من أجل خدمتهم تعاني الفقر والبطالة وتمتلئ بالدكاكين الفارغة التي تغرد فيها الرياح. خلع الخبير نظارته يمسح آثار الأبخرة التي صنعتها أنفاس ضوء الهلال فوق زجاجها وجلس صامتاً يستمع إلى الترجمة.

وجاء صوت الحكمة على لسان المتصرف يقول:

- إنه بأموال النفط سوف تبني الحكومة مصنعاً للزجاج تباهي به القرية المدن الكبيرة.

وشارك عامر اليتيم في الحديث قائلاً :

- وسوف تصبح «قرن الغزال» نفسها مدينة كبيرة بإذن اللّه .

عاد ضوء الهلال إلى مكانه ولم يقل شيئاً ، فهو يعرف أنه لم يبقَ من الوقت ما يكفي لبناء المصنع ، لأن حرباً كونية سوف تقوم وسوف يجد العالم نفسه في صراع ضروس لن يبقى فيه إلا من ملك الشجاعة والقدرة على احتمال الأهوال . رآه الشيخ مسعود صامتاً فحمد اللّه أنه لم يبدأ حديث الحرب التي ينذر أهل القرية كل يوم بقرب قيامها . انتهى الغداء ، فخرج الشيخ مسعود ورفاقه يقودون أعضاء البعثة العلمية في جولة عبر شوارع القرية ومعالمها ، فاجأهم الخبير الأجنبي عندما أخرج خريطة كبيرة زاهية الألوان رسمت بها تضاريس القرية ومعالمها ، نشر الخريطة أمام وجهه ليحدد المكان الذي ينطلقون منه ، مدوا أعناقهم يتأملونها باندهاش ، وقد أفرحهم أن تكون قريتهم من الأهمية بحيث يتعب الخبراء أنفسهم في رسم خرائطها وتلوينها .

كانت آثار الجفاف وزحف الصحراء بادية في كل مكان يمرون به ، آبار كثيرة مهجورة بعد أن جف ماؤها وتحولت المزارع من حولها إلى خلاء ، وجوه الأطفال الذين يتحلقون حولهم مريضة متيبسة هربت منها الدماء ، البيوت واطئة وخالية من أي جمال ، مسقوفة بجذوع أشجار النخيل ومطلية بالجير الذي تحول بياضه إلى سواد ، لا تملك نوافذ وإنما كوىً صغيرة بأعلي الجدران ، سأل الخبير عن السبب ، فأبلغوه أن النوافذ تفتح غالباً علي صحن البيت الداخلي المكشوف صوناً للحرمات من أعين المتطفلين ، أما مكانتها كمركز تجاري انتهى زمانه ، فقد بدا له واضحاً من رؤيته لهذه الحوانيت التي لا تُحصى ، صفان طويلان من الحوانيت وبينهما ساحة كبيرة مليئة بالأوساخ

والأتربة أخبروه بأنها مكان انعقاد السوق يوم الجمعة، تتوسطه شجرة اثل لها عروق ظهرت فوق الأرض وامتدت تغطي مساحة كبيرة من ساحة السوق، وحوانيت تفضي إلى حوانيت بعدها خاوية كلها، لا بيع ولا شراء، أرففها خالية إلاَّ من بعض المقتنيات البسيطة التي يصنعها أهل القرية من سعف النخيل، وصناديق البلح والرطب التي لا يشتريها أحد حتى فسدت وصارت تلوث برائحتها المكان، وقميص هنا وحذاء هناك كأنها معلقة من أجل الزينة، أما أصحاب الدكاكين فقد أخرج كل واحد منهم حصيراً افترشه في ظل الحائط أمام الدكان أو ظل الحائط المقابل واتكأ عليه يطارد الذباب ويفرغ غلّه في حبات المسبحة التي في يده، كان الخبير يتأملهم بنظرة تمتلئ فضولاً واندهاشاً وكأنه يشاهد مشهداً في مسرحية تتحدث عن عبث الحياة. سأل باستغراب وهو يري هذا كله:

- إذن كيف تعيشون؟

هذه هي المعضلة التي لا يمكن لأحد منهم أن يجد لها جواباً، إنهم يعيشون، أما كيف يعيشون فهم أنفسهم لا يعلمون، وأسرع عامر اليتيم الذي كان يرافقهم في هذه الجولة قائلاً جملته الشهيرة:

- لا حول لا قوة إلا باللّه.

وابتسم لنفسه فقد ذكره سؤال الخبير بالأحاجي الشعبية، وتمنى لو استطاع أن يقول على أساليب تلك الأحاجي سأمنحك مدينة لو قلت لي أنت الجواب، ولكنه تذكر ما أصابه من خير أنجاه من البؤس الذي يعيشه كثيرون من أهل القرية فصمت عن الكلام. سمع الشيخ مسعود يقول:

- إننا لا نعيش.

قالها الشيخ وهو مايزال يقلب السؤال في رأسه، ثم سرعان ما أدرك أنه لم يقلها إلا مكراً وابتزازاً لعواطف الرجل. إنه يعلم أن اللّه لم يقفل الدنيا في وجوههم إلى هذا الحد، لاشك أن هذا الأمريكي لا يعرف أنه لايزال هناك في الدنيا من يستطيع أن يعيش على حفنة من التمر أو رغيف من الخبز مع طاسة الشاي، وهي أشياء لا يعجز عن تدبيرها أحد، إذ ليس في القرية إلا عدد قليل ممن لا يحتفظون ببضع شياه يعهدون بها لأحد الرعاة بأطراف القرية، تفيدهم في مواسم الأفراح وضحايا العيد وتعينهم على مواجهة ظرف طارئ مثل الذي واجهه اليوم عندما رأى من واجبه أن يستضيف أعضاء هذه البعثة، وقد يطارد الواحد منهم في مواسم الحرث سحابة أمطرت فيزرع حفنة من الشعير وقد يكون له صبي بعث به للعمل بالمدينة أو ولد كبير أصبح جندياً في الجيش يرسل له مالاً كل شهر، وقد تواتيه إحدي ضربات الحظ الحكومية ويصبح ضمن قوائم المستفيدين من أجور الحكومة ومرتباتها. أما مصدر الأمان والبركة فسيبقى دائماً كما كان في كل أوقات الشدة والمحن وأيام الحروب والمعارك التي تمتد لأعوام طويلة عندما تقفل الطرق وتنضب موارد الرزق الأخرى، هو شجرة النخيل المباركة التي جاء على ذكرها القرآن وكانت ثمارها طعاماً للأنبياء، والتي تمنحهم خيراً يكفيهم طوال العام، ولا تطلب منهم شيئاً، ولا تقتضي عملاً أو جهداً، تحمل الريح إليها اللقاح في موسمه ويجنون ثمارها دون أن تكلفهم عناء ريها أو تسميدها أو تلقيحها أو تقليب أرضها. تذكر الشيخ مسعود كل هذا فشكر اللّه على نعمته وكتم الأمر عن الرجل الغريب مستغفراً اللّه في سره لأنه خالف الآية التي تقول: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، ملتمساً العذر في أن دين

الرجل يختلف عن دينه، وقد يعدل عن بناء المصنع إذا عرف سر بقاء القرية وصمودها. قال يحرضه على الإسراع في إنجاز المصنع:

- البركة فيكم وفي الحكومة، فلا حياة لقريتنا بغير هذا المصنع.

أخذوا الخبير إلى ركن قديم بالقرية لكي يشاهد مآثر أجدادهم حيث تنتصب تلك الأبراج الثلاثة التي كانت ذات يوم حصوناً لسد الغارات على القرية، طويلة سوداء، مليئة بالثقوب التي يكفي الواحد منها لإخراج ماسورة البندقية، تهدمت من حولها الأبنية الأخرى، وانتهي عصر الغارات وقراصنة الصحراء وظلت هي واقفة تتحدى العواصف وتحمل فوق حجارتها صدأ السنين.

أثار منظرها فضول الرجل الأمريكي فسأل عمّن بناها وكيف بُنيت، لكن الشيخ مسعود رأي من الأدب إلاَّ يخبره بما يعلم، لأن الذي بناها كان خبيراً أجنبياً مثله جاء من وراء البحر، إكتراه أهل القرية لبنائها، وبعد أن أكمل إنجازها دفعوا به من فوق برج النعام، وهو أعلي هذه الأبراج، ليلقي مصرعه خوفاً من أن يذهب إلى خصومهم فيبني لهم حصوناً مثلها. تناسي سؤاله وحدثه عن شهرة القرية قديماً في صناعة البارود وأهميتها العسكرية منذ عهد الرومان الذين بنوا بها قلاعاً لا تزال أطلالها قائمةً بأطراف القرية، فأخبره الرجل الأجنبي بأن ذلك أيضاً مرسوم بالخريطة التي يحملها، أبدى إعجابه بما رأى وخلع عن عنقه آلة التصوير والتقط الصور للأبراج والأطفال ولمن كان معه من أهل القرية، أكد لهم بأنه سوف لا تمضي سوى أيام قليلة حتى تصلهم الأخبار التي تفرحهم، ثم ركب سيارته مع أعضاء البعثة يرافقهم المتصرف لإكمال جولتهم ومعاينة الأماكن التي تصلح لبناء المصنع، وفي الليل أقاموا لهم حفلاً كبيراً بساحة

السوق، شارك فيه أهل القرية بالغناء الجماعي وجاء المتصرف بالزنوج الثلاثة الذين يحيون أعراس القرية وحفلات ختانها بالرقص وضرب الطبول والعزف على الناي والمقرونة، فقدموا عرضاً استمر إلى ساعة متأخرة من الليل، ولا يدري أحد كيف وصلت إلى الخبير جرّة من خمر النخيل (اللاقبي) فكان يسكب منها في كأس أمامه ويطلق الصيحات الجذلى معبراً عن امتنانه بما سمع وما رأى، وفي الصباح سافر مع رفاقه تاركاً أهل القرية يحلمون باليوم الذي يشاهدون فيه الصحون والأكواب والتحف والتماثيل الزجاجية التي كتب فوقها «صنع في قرن الغزال».

[٣]

- من كان يظن يا أهل الخير أن هذه الرمال التي تذروها الرياح في عيوننا تصبح مصدرا لخير بلدتنا وموردأ للثروة التي سوف تهبط علينا؟ .

- وتصير قرن الغزال التي لم يسمع بها أحد، حديث الناس في العالم، ويأتي على ذكرها المطربون الذين يتغنون بمنجزات الحكومة.

- سوف تمتلئ بالسائحات الأجنبيات الراغبات في التعرف إلى نا واقتناء تماثيل الغزلان المصنوعة من زجاج مصنعنا.

- لقد انتشى ذلك الرومي من خمر نخلنا وسوف لا يطول غيابه عنا، سوف يأتي محملاً بآلاته وأفرانه ومداخنه لينصبها بيننا ويقيم معنا ليلتقط لنا الصور ونحن نرتدي ثياب العمل الجديد.

- لا أظن أن الذي دبر له جرّة الخمر إلاّ عامر اليتيم، فقد أبدى نهماً شديداً لعقد صداقة معه.

- لو أنه عزمه في بيته وأراه جمال ابنته لما غادر القرية أبداً.

لقد أنستهم أخبار المصنع أحاديثهم عن عامر اليتيم الذي لم يعد

يأتي ذكره أو ذكر ابنته على ألسنتهم إلا لماماً، فها هو حدثٌ كبيرٌ يأتي ليُحدث تحولاً هائلاً في حياتهم وحياة قريتهم وها هي الحكومة التي أهملتهم وأخذت أموال النفط لتنفقها بعيداً عنهم تذكر الآن المحنة التي جاءتهم بسبب النفط وتختار قريتهم لتكون موقعاً لهذه القلعة الصناعية الجديدة. انتظروا لأيام طويلة أن تأتي الشاحنات تحمل عصراً جديداً إلي القرية وتقضي على ثقل ورتابة الحياة فيها، كان الخبير قد جاء مع أواخر الصيف، انقضي الصيف وانقضت بعده أشهر الشتاء، والعصر الجديد لا يأتي والحياة لا تفقد رتابتها ولا فقرها فيطوون قلوبهم على الحلم الجميل الذي قد يتحقق ذات يوم ويعودون لمراقبة التحولات التي طرأت على عامر اليتيم.

فمنذ وقت مضى صاروا يلاحظون أن عامر اليتيم يضيف جُملاً أخرى يشارك بها في الحديث غير جملته المعهودة التي لم يكن يفتح اللّه عليه بغيرها وهي «لا حول ولا قوة إلا باللّه» والأدهى من ذلك أنه صار الآن جليساً للمتصرف والشيخ مسعود وإمام المسجد، وعندما جاءت البعثة العلمية كان يسير كتفاً لكتف مع الخبير الأجنبي ويشارك في الحديث والنقاش.

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

كان هذا هو تعليقه الوحيد على كل ما يسمعه، خيراً كان أو شراً، يلونها بحسب المناسبة، يقولها ضاحكاً سعيداً معبراً عن رضاه أو عابساً حزيناً معبراً عن غضبه بل إن انفعالات مثل الغضب والحزن والفرح لا تزوره إلا لماماً، فهو يمشي كأنه غائب عن الدنيا، ولكنه يقولها إذا طلب منه رأي، وعادة لا أحد يطلبه إلاَّ إذا كان مازحاً، لا يضيف إليها شيئاً ولا ينقص منها شيئاً. يأتي إلى المجالس التي تعقد

بساحة القرية ليلاً أو يمر بالمقهى يستمع بفضول إلى الحديث الذي يدور ودون أن يقول شيئاً يمضي إلى مستودع سيارات الحكومة الذي يشتغل به حارساً ليلياً، فلا يحس أحد بمجيئه أو ذهابه، لا يهتم أحد بدعوته إلى حفل أو مأدبة أو اجتماع اللهم إلاّ إذا جاء ذلك عرضاً، ولكن لا أحد ينتبه إلى حضوره أو عدمه، يمر بالناس ويمرون به وأقصى ما يمكن أن يدور بينهم من كلام هو إلقاء التحية أو تعليق ساخر يرد عليه بجملته المعهودة، ويمضي، نادراً ما كان يناديه الناس باسمه كأنه ليس لعامر اليتيم اسم، يمر في الطرقات يدلدل ذراعيه ويجر قدميه جراً ويسدل في انطفاء ملامح وجهه التي تبدو مائلة نحو الشمال كأن تشويهاً قد لحق بها، لا يؤذي أحداً ولا يتعرض له أحد بالأذي، مثله مثل آخرين في القرية ممن ارتضوا الحياة على هامش الدنيا قانعين باللقمة التي يحصلون عليها. ولكن شيئاً في بيت عامر اليتيم كان ينمو ويكبر ويتهيأ لأن يُحدث انقلاباً في حياته، كان هذا الشيء هو ابنته «جميلة». فقد أكملت ابنته المدرسة الابتدائية وجلست ثلاث سنوات في البيت لأنه ليس هناك بعد الابتدائية مدرسة للبنات تواصل بها تعليمها، إلى أن جاء المتصرف الجديد بابنته التي حصلت هي أيضاً على الشهادة الابتدائية، فأنشأ لها فصلاً جديداً ألحقه بمبني ابتدائية البنات وجعله نواة لمعهد المعلمات ونقل للتدريس به مدرساً مصرياً وزوجته، وبحث عن البنات اللاتي في مستواها الدراسي، فكان أن التحقت ابنة اليتيم مع خمس فتيات أخريات لإكمال دراستها، وعندما عرف رجال القرية بأنه أرسل ابنته إلى المدرسة الجديدة سافرة الوجه مثل ابنة المتصرف وضابط الشرطة وبنات الممرض الذي جاء حديثاً إلى القرية، لا تختلف عنهن في شيء إلاّ أنها ترتدي جلباباً طويلاً وتضع فوق رأسها منديلاً، لم

يثوروا في وجهه أو يغضبوا لأنه اخترق تقاليد القرية وقلّد هؤلاء الوافدين، ولم يدخل معارك مع أحد كما فعل ضوء الهلال عندما سمح لابنته بأن تذهب في ثياب الممرضات لتشتغل بالمستوصف ممرضة للنساء والأطفال، لأنهم يعرفون أن اليتيم لا يعي ما يفعله ولا يملك مدارك يميز بها بين الخطأ والصواب وإنه جاء إلى الدنيا يتيماً لا أهل له يضيرهم عمله، فتركوه إلى حاله وأسقطوه من حسابهم ولم يهتم بأمره أو أمر ابنته أحد.

ولم تمض سوى أشهر قليلة على ذهابها إلى المدرسة حتى انتبه الناس إلى جَمالها، وصاروا يلهجون باسمها مصحوباً بكلمات مثل «ما شاء اللّه» و «ما أبدع ما خلق اللّه»، في الحق هم لا يلهجون باسمها، ففي القرية مازال الحديث عن أسماء النساء يثير التحفظ والخجل، ولكنهم يقولون «ابنة اليتيم»، فقد صار معروفاً أن لابنة اليتيم جمالاً لم تعهد البلدة مثله من قبل، وتدريجياً بدأ الناس ينتبهون إلى وجود والدها بالمجالس، وصار شيئاً فشيئاً يدخل دائرة اهتمامهم ويحظى منهم بمعاملة تختلف عن المعاملة السابقة، بدأ الأمر بالمدرسين الشبان الذين لم يتزوجوا بعد، فهم أول من اهتدى إلى الثروة التي يضمها بيت اليتيم، وهم أول من بدأ التودد إليه وعقد الصداقات معه ويستعيرون تعبيره تقرباً إليه، فيبادرونه قائلين بمرح وابتهاج: لا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

فيرد عليهم بمثلها ضاحكاً وينادونه بعمي اليتيم فيفرح بندائهم، ويرسلون أمهاتهم إلى معسكر الطليان القديم، الذي تحولت بيوته إلى خرائب تسكنها العائلات الفقيرة بالقرية حيث يسكن أيضاً عامر اليتيم، محملات بالشاي والسكر واللوز والبسكويت عقداً للصلة

التي قد تأتي بنتائجها عند التفكير في الزواج، ولأن حلم الزواج بامرأة أخرى يصلح به الرجل خطأ الزواج من المرأة الأولى هو حلم كل المتزوجين. فقد بدأ الرجال عزاباً ومتزوجين، حتى كبار السن منهم، يهتمون بعامر اليتيم ويتوددون إليه ويدعونه إلى المناسبات التي تشهدها القرية، بدأ أطفاله في المدرسة الابتدائية فجأة ينقلبون إلى تلاميذ أذكياء يعودون كل يوم بالجوائز التي يمنحها لهم المدرسون تزلفاً وتملقاً لوالدهم، ويأتون الواحد بعد الآخر يستأذنون في تقديم دروس خصوصية لهم، فكانت زوجته تشير عليه بأن يقبل عرضهم وأن يبعث بالأطفال إلى بيوتهم ويعتذر عن استقبالهم في البيت لأنه لا يليق بالمقام، وكان أصحاب الحوانيت، رغم كساد تجارتهم، أو بسبب كساد تجارتهم، هم أكثر الناس منافسة للمدرسين في محاباتهم لليتيم، تختفي البضاعة من أسواق القرية لمجيء عيد أو مناسبة دينية ولكن حق عامر اليتيم يبقى دائماً محفوظاً، وينتهي لحم الماعز أو الجمل من دكان الجزار في أيام المواسم، ولكن الجزار يأتي هامساً لليتيم بأن نصيبه موجود، وكلما جاءت من المدينة سيارة شحن محملة بالفاكهة أو الخضار جاء أحد الناس يطرق بابه حاملاً بعض الغلال قائلا بأن واجب الجوار اقتضاه أن يأتي بهذه الهدية للأطفال، وكان لابد أن يصل الأمر إلى أسماع الحكومة، وأن تدخل بكل ثقلها للفوز برضا اليتيم، فهو لم يكن يحلم يوماً بأنه سيكون على قائمة المرشحين لاستلام أحد البيوت العشرة الجديدة التي بنتها الحكومة، فمازال نصف سكان القرية ممن هم أكثر منه نفوذاً وعلماً وخبرة بالأمور يسكنون بيوتاً قديمة توشك على السقوط، ويبذلون مساعيهم للحصول على بيت حكومي، ولكنه وجد نفسه فجأة يتصدر قائمة الناس الذين وقع عليهم الاختيار للفوز بأحد هذه البيوت، دون أن

يقدم بذلك التماساً أو يأتي من شيخ القرية بشهادة تثبت أحقيته لمثل هذا البيت كما فعل مئات غيره من أهل القرية، وعرف أن المتصرف بنفسه هو الذي وضع اسمه على رأس القائمة، وأكثر من ذلك فقد جاء من يسعي إليه مستعطفاً أن يتوسط لدى المتصرف من أجل الحصول على بيت مثله، ولم يدر عامر اليتيم ماذا يقول أكثر من «لا حول ولا قولة إلا باللّه»، دون أن يعرف صاحب الطلب إذا كانت هذه العبارة تعني قبوله بالتوسط أو رفضه له، وهو في الحقيفة لم يقبل ولم يرفض كل ما في الأمر إنه يعبر عن اندهاشه من هذه الدورة الكبيرة التي تدورها الأفلاك فترفع أقداراً وتهبط بأخرى. واكتشفوا في مستودع السيارات أنه موهبة أسيء فهمها وأن الأمد قد طال به في الخدمة دون أن ينال ترقية فإذا بهم ينقلونه من الحراسة الليلية ويمنحونه لقباً مهيباً هو «مشرف تشغيل»، كان سعيداً بالترقية والعلاوة التي تأتي معها، ورغم أنه لم يكن يشرف على شيء، ولم يكن يهمه أن يشرف على شيء، فقد صار الآن بإمكانه أن ينام في بيته وأن يأتي للعمل متأخراً دون أن يحاسبه أحد ويخرج دون أن يستأذن من أحد، وجد مكانته في القرية تتأكد يوماً بعد يوم، ثم تدريجياً بدأ يكتشف أن اللّه قد حل عقدة لسانه وبعث الحياة في هذا العضو العضلي الذي يرقد في قاع الفم فصار يتحرك بالكلام كألسنة الناس، غمرته نشوة الاكتشاف وأقبل وسط اندهاش الناس جميعاً يشارك في الحديث بشهية عظيمة، شهية رجل حُرم من الكلام طوال عمره، دون أن يعبأ بما يصيبه من تعثر في نطق بعض الكلمات مما يجعل الناس يضحكون أحياناً من كلامه، وصار يجد نفسه يقتحم مجالس الرجال الكبار الذين لم يجرؤ يوماً على أن يرفع إليهم عينيه، فيعاملونه كأنه واحد منهم، وهو الرجل البسيط الذي لا يعرف قراءة ولا كتابة ولا يعرف أهلاً ولا

قبيلة، تربى يتيماً علي الإحسان إلى أن التصق اليتم به وصار اسمه، فيحمد اللّه على نعمته ويتمنى لو كانت أمه على قيد الحياة لترى المكانة التي وصل إليها، ويستقبل حياته الجديدة بفرح وحب غامرين.

وصار إذا ما قام حفل في القرية ولم يحضره عامر اليتيم فإن أكثر من رجل يتفقده ويسأل عن سبب غيابه ويجد في ذلك مبرراً لأن يذهب إلى بيته حالماً بأن تفتح له جميلة الباب، ليسألها عن غيبته راجياً أن يكون المانع خيراً، بل إن الجملة الوحيدة التي كان يقولها صاروا الآن ينظرون إليها في ضوء جديد، لقد بدت وكأنها تعليق ناجز مختصر على كل المواقف في الحياة وتحمل فلسفة عميقة لم ينتبهوا إليها إلاّ الآن، ويجدون سعادة في ترديدها سواء كان ذلك في حضوره أو غيابه. ولا شك أن دافع الزواج لم يكن وحده سبب كل هذا الاحتفاء بدليل أنه مرت أكثر من ثلاث سنوات وهي تخطر أمامهم في طريقها إلى المعهد دون أن يتقدم أحد لخطبتها قائلين بأن والدها لن يسمح بزواجها قبل أن تنتهي من تعليمها، ويلتمسون بهذا القول عذراً عن عدم الذهاب إلى ه وطلب يدها، كان واضحاً أنهم بقدر ما يتعلقون بجمالها النادر الغريب فهم أيضاً يرهبونه ويرهبون كونها امرأة متعلمة ستفوز قريباً بشهادة التدريس، فمن يجرؤ على ترويض امرأة تحمل شهادة مثلها، خصوصاً وأنها تعودت على الخروج سافرة الوجه مثل نساء المدينة. ليس حلم الزواج وحده إذن وإنما شيء آخر غامض لا يجدون له تفسيراً يجعلهم جميعاً يحتفلون به، كأن مجيء ابنة من صلبه لها كل هذا الجمال يجعله متميزاً عن الآخرين، ويجعلهم جميعاً يوقنون بأنه يحتوي على معدن نادر أهملوه طويلاً وحان الآن أن يردوا له اعتباره.

ولم يكن عامر اليتيم على يقين من السبب الذي يجعله على مدى هذه السنوات الأخيرة يصبح صاحب حظوة لدى الناس، كان في جزء من عقله يدرك أن لجمال ابنته علاقة بالموضوع ولكنه يأبى أن يصدق ذلك، كان يريد أن يثبت لنفسه أن الأمر يعود إلى قيمة يحملها في ذاته، قيمة تميز بها وحده وغفل هو عنها كما غفل عنها بقية الناس، وكان يقلقه أحياناً جمال ابنته واهتمام الناس بها وحديثهم عنها، ويجد في ذلك شيئاً يثير في قلبه الخوف، ويفكر أحياناً أن يعيدها إلى حجابها مرة أخرى، ولكن الوقت تأخر الآن، ثم إنه ليس أفضل من حكام القرية ورجالها الكبار الذين يرسلون بناتهم للدراسة سافرات مثلها، بل هن أكثر سفوراً منها لا يرتدين مثلها الملابس التي تجر في الأرض أو يضعن مثلها مناديل تغطي الشعر، فلماذا الخوف وابنته ستكون بعد أشهر قليلة معلمة مثلها مثل بنات هذه العائلات الكبيرة.

كان اليتيم قد رمى إلى غير رجعة ذلك المعطف المهترئ القديم الذي كان يرتديه حتى في أكثر أيام الصيف قيظاً ويرتدي بدلاً منه ألبسه نظيفة وعباءة جديدة، وصار يبسط وجهه المتجهم المليء بظلال وتجاعيد لم تكن الشيخوخة سبباً لها، بل إن الظلال ذاتها صارت تختفي من وجهه وتجري فيه نضارة جديدة حتى إن ذلك التشويه الخفيف في ملامحه اختفى ولا يراه إلا من يدقق النظر إليه. لم تسقط من حديثه عبارة «لا حول ولا قوة إلا باللّه» لقد احتفظ بها وصار يضيف إلى ها كلاماً له معنى، ويطلق الدعابات ويقول رأيه في أمور القرية ويأتي على سيرة الرجال الذين يديرون أمورها باعتبارهم أصحابه، وسط عيون مفتوحة على آخرها، اندهاشاً واستغراباً لهذا الانقلاب الذي طرأ عليه، وما أن يغادر مجلساً من مجالس أهل

القرية، حتى يبادر أحدهم معبراً عن دهشته من عامر اليتيم الذي لا يعرف كيف يقول السلام عليكم فأصبح صاحب فصاحة وفتاوى ونداً للشيوخ والمدراء والمتصرفين، ويضرب كفاً بكف قائلاً وهو يقلد لهجة اليتيم:

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

فيضحك الجالسون.

وعندما رأوه ذلك اليوم الذي جاءت فيه البعثة العلمية يسير بصحبة الخبير الأمريكي يمازحه ويضحك معه كما يفعل المتصرف والشيخ تأكد لهم أن اليتيم سيكون له شأن كبير في مستقبل الأيام وأن له من الدهاء ما يجعله يقنع ذلك الخبير بأن يعينه مسؤولاً محلياً للمصنع ورئيساً لكل العمال.

[٤]

جاء الانتقال إلى البيت الجديد مناسبة يختبر بها عامر اليتيم مدى ما وصل إليه من جاه ونفوذ، أشاد خيمة كبيرة أمام البيت وزيّن مدخله بسعف النخيل وعلق حذوة حصان فوق الباب جلباً للفأل الطيب، ومدّ الخيوط التي تدلت منها المصابيح المصبوغة بمختلف الألوان، وحضر من يساعده في نحر الخراف وشياه الماعز التي جاءته هدية من أهل القرية وأقام للرجال وليمة كبيرة حضرها المتصرف والشيخ مسعود والشيخ نصر الدين وضابط الشرطة ومدير التعليم وجاء من المدينة الحاج عبد الجليل ممثل المنطقة في مجلس النواب كما جاء بعض مدراء النواحي حيث أجلسهم على بساط نضت فوقه الوسائد بوسط الخيمة في حين جلس بقية أهل القرية في أطرافها الأخرى وفوق الحصائر النى مدت خارجها وارتدي هو الجريدي والزبون لأول مرة في حياته، كما ارتدي طاقية حمراء لها زر طويل كتلك التي يظهر بها الملك في الصور الرسمية، قام على خدمة ضيوفه حتى انتهى الطعام، وجاء موعد السهر فجلس بينهم يرحب بهم، سعيداً لأنه جمع في مجلس واحد كل هؤلاء المسؤولين الذين لا يلتقون مثل هذا اللقاء إلا نادراً، دار الحديث عن هموم القرية ومشاكلها ومصنع الزجاج الذي تأخر إنجازه، أخبرهم الحاج

عبدالجليل أن مسائل مثل هذه لا تتم في شهر أو شهرين وأن إعدادها يحتاج إلى عام أو عامين وطمأنهم بأن ميزانية كبيرة سوف يرصدها مجلس النواب للمشروع وأنه لن يترك الأمر حتى يرى المصنع قد خرج إلى حيز التنفيذ، خشي المتصرف أن يذهب الثناء كله إلى الحاج عبد الجليل فتدخل بالحديث قائلاً بأن المياه التى يحتاجها المصنع لن تكون مشكلة كما صورها البعض، كل ما في الأمر أنهم يحتاجون لاستخراجها من أعماق بعيدة كما حدث مع البئر الذي تشرب منه القرية. رأى عامر اليتيم ضوء الهلال ينتقل إلى مجلسهم ويهم بالتدخل في الحديث فخشي أن يفسد جمال هذه الجلسة ويغضب هؤلاء الضيوف بحماقته وعصبيته فقام من فوره يأخذه إلى مجلس خارج الخيمة بحجة أن بين الرجال هناك من يود الحديث إليه، ثم عاد يلهج بالثناء على جهود النائب المحترم والسيد المتصرف وقد صار يقيناً في ذهنه أنهم جميعاً قد اعترفوا به وجيهاً من وجهاء البلدة وواحداً من أعيانها.

وأقامت زوجته في الليلة التالية حفلاً لنساء القرية لم تتخلف عنه حتى العجائز الطاعنات في السن، جئن جميعهن مدفوعات بفضول عظيم للتعرف على هذه الفتاة التي صارت مصدر غواية للرجال وحديث أهل القرية صغاراً وكباراً، تأملنها وهي تقوم صامتة على خدمتهن، خضبت بالحناء أصابع يديها وقدميها وعلقت في أذنيها أقراطاً وفي عنقها قلادة من العقيق وارتدت احتفالاً بهذه المناسبة رداءً تزين حواشيه خيوط الفضة ومن تحته فستان له ألوان زاهية مما ترتديه نساء القرية في الأعراس، بدا جمالها باهراً كجمال الأميرات في الأساطير الشعبية، فكن يعلقن أنظارهن بها مندهشات كيف لامرأة عمشاء مثل أمها، منخورة الأسنان وداكنة السمرة كالزنجيات، أن تلد ابنة لها وجه كفلقة القمر وعيون كعيون الظباء، وتبحث الواحدة منهن

عن نقص أو عيب في جمال الصبية يمكن أن ننتقده فلا تجد شيئاً، ولكنها تأبى التسليم وتدس رأسها في رأس المرأة التي بجوارها وقد أدركت أنها عثرت على موطن الضعف في شخصيتها قائلة بلهجة متآمرة هامسة بأن جمال الفتاة كجمال التصاوير، حياة بلا روح، وأن المسكينة قد ورثت عن والدها عدم القدرة على النطق السوي، فهي صامتة لا تقول شيئاً وإن قالت فهما مجرد كلمتين، تفضلي وشكراً، لا تستطيع أن تقول غيرهما، وترتاح لاكتشافها وتتمنى على الله أن يكون كلامها صحيحاً فلا يخيب ظنها وإلا خرجت من هذا البيت بداء «الفدة»، ثم بدأ الحفل وضج المكان بالعزف والرقص والغناء، أخذتهن الزنجية العجوز أمي سعيدة بغنائها في رحلة حنين إلى الأيام البهيجة القديمة عندما كانت تحيي أعراس القرية بأغانيها وعزفها على الطبلة، لقد اعتزلت الغناء منذ أعوام طويلة، ولكنها إكراماً للعلاقة التي تربطها ببيت اليتيم جاءت وغنت هذه الليلة، وبرغم صوتها الذي زحفت عليه الشيخوخة وفقد طلاوته، فقد طربن لغنائها، وأعادت إلى أذهان المتزوجات منهن اللاتي غنت أمي سعيدة في أعراسهن سحر تلك الأيام الخوالي التي لن تعود، وتوالت النداءات التي تدعو جميلة للمشاركة في إحياء هذه الليلة وسحبها من يدها لكي تنضم للرقص مع بقية البنات، رأينها تمتنع وتعتذر قائلة بأنها مشغولة بخدمة الضيوف، فازددن يقيناً بأنها مجرد مظهر ساحر الجمال لامرأة خاملة الروح وخالية من المرح والدعابة، ولكن جميلة قبل ختام الحفل بقليل جاءت تخيب ظنهن وتمنحهن سبباً آخر للحسد والغيرة، رأت الحفل قد دب فيه الفتور فلبت أول دعوة جاءت تدعوها لأن تغني، فكرت فيما يمكن أن تغنيه، لأنها لا تحفظ شيئاً من أغاني الأعراس ولا تعرف إلا الأغاني التي تسمعها عن طريق المذياع فأعجبت بها وكانت ترددها بينها وبين نفسها، قررت أن تغنيها لنساء

الحفل، كانت أغان جديدة على أسماعهن، فلم يستطعن مشاركتها الغناء، وإنما بقين يستمعن إليها وهي تغني بمفردها مبهورات بصوتها وعذوبة غنائها وجمال الألحان التي تحفظها، وما أن تنتهي من أغنية حتى يطالبنها بأغنية أخرى فيتدفق صوتها يبعث في القلوب البهجة والحسرة والفرحة والشجن في وقت واحد، وسرت في الحفل روح جديدة ودب الحماس والنشاط بين الفتيات فعدن مرة أخرى للرقص، وقلعت جميلة الرداء الثقيل الذي يعوقها عن الحركة وفكت المنديل الذي يربط شعرها ورقصت مع بقية البنات فتطاير الشعر الأسود الطويل في الهواء وتمايل الجسم الذي يشبه جداول الماء تثنى مع الإيقاع والتوى، ثم أسرع الإيقاع فانتفض الجسم الجميل كلهب النار يشعل قلوب النساء حرقة وحسدا وغيظاً من تصاريف الأقدار التي تمنح هذا الجمال النادر لابنة رجل معتوه وامرأة عمشاء وتمنعه عن بنات آباء وأمهات أكثر وسامة وعراقة، وبدا لهن أن ذلك شيء لا يتفق مع طبيعة الأشياء ونواميس الكون وأن جمالها الذي يشبه جمال الجنيات سوف يوقظ الفتنة ويشعل الحرائق في «قرن الغزال»، وتوالت برغم ذلك التعليقات التي تشيد ببراعتها في الرقص والغناء، فوقفت إحدى النساء وقد فاض بها الكيل ولم تستطع أن تداري غيظها، وردت على هذه التعليقات بصوت عال كأنها أرادت أن تسمعه جميلة وأمها وبقية النساء:

- وماذا يعلموهن في المدارس غير التهتك والخلاعة، حفظنا اللّه وأسبل علينا ستره.

سمعت أمي سعيدة ترد بغضب على كلماتها وتسألها أن تقفل فمها فارتدت بسرعة لحافها، وصرخت في غيظ تنادي ابنتها، فخرجت من وسط الزحام صبية تلتصق بالأرض، خالية من أي جمال أو أنوثة، شدت على يدها تسحبها بقوة وعنف وراءها، وخرجت تغمغم باللعنة على هذا البيت الذي يمتلئ تهتكاً وفجوراً.

[٥]

بالغت أم جميلة في الاعتناء بابنتها حتى صار هذا الاعتناء حصاراً، أدركت الأم أن هذا الخير الذي أصابهم والبيت الجديد الذي منح لهم ليس إلا بسبب جمال ابنتها، فذهب في يقينها أن أعين الحساد لن تتركها ولن تترك النعمة التي جاءتهم بسببها دون أن تفعل فعلها وتحاول أن تلحق الأذي بجميلة وأهلها، وخائفة صارت تلهج بالدعاء وتكثر من إحراق البخور داخل البيت، وتذهب كل يوم جمعة إلى ضريح سيدي أبو قنديل توقد له الشموع وتسأله أن يحفظ ابنتها من العين وتعود بصرة من تراب الضريح تنشرها على عتبة البيت، ولم تعد تترك جميلة تذهب إلا بصحبة أحد الأطفال من إخوتها، يتولى حراستها، وأحياناً تقوم هي بمرافقتها، ترتدي لحافها وتصحبها إلى المدرسة وتنتظرها أثناء العودة منها، وهي خائفة من أن يلحق الناس شراً بابنتها، وبرغم أن أحداً من رجال القرية أو شبابها لم يجرؤ يوماً علي الاقتراب منها أو محاولة التحدث إليها، إلا أن جواً غريباً كانت جميلة تحس به يغمر الدنيا من حولها، وتعرف أن عيون الناس وإن لم تحدق مباشرة بها إلا أنها تتناولها من بعيد كأنها عدسات سرية مبثوتة في كل مكان تراقبها، وتدرك أن لديها شيئاً تتميز به عن بقية البنات مما يجعلها تواجه غيرتهن منها بشيء من

الاعتزاز والكبرياء فينعتنها بالغرور ويفتعلن الخصومة معها، وكانت علامات الصحة والعافية والتورد في وجهها مثاراً لاستغراب نساء القرية اللاتي يجدن بناتهن ضعيفات نحيفات لا تورد في وجوههن ولا اكتناز في أجسامهن مع أنهن نشأن في بيوت أفضل من تلك الخرابة التي كان يسكنها اليتيم ويتناولن طعاماً أفضل من الطعام الذي يوفره لابنته وهو الذي لا يملك نخلاً ولا غنما، فيدعين بأن السر في ذلك هو أن أمها كانت تسقيها منذ طفولتها لبن الحمير والعياذ بالله، وبينهن من تقسم بأنها شاهدت أم جميلة تقوم بحلب الحمارة التي كان يجلب عليها اليتيم الحطب إلى بيته قبل أن يشتري موقد الغاز، حتى صار حلب الحمير سراً وسقي حليبها للبنات هواية كثير من الأمهات، ويذهب بعض أهل القرية إلى التأكيد بأن تلك الأمطار الغزيرة التي هطلت منذ ثمانية عشرة عاماً وصنعت سيولاً أهلكت الأغنام إنما حدثت يوم مولدها ثم أعقب ذلك الجفاف وزحف الصحراء فعقمت السماء وأمحلت العيون التي تدر الماء واختفت الأشجار والظباء والطيور، وأن جميلة إنما هي فتاة تحتوي على عنصر عجيب وأنها نطفة غريبة تنتمي إلى تلك القوى الخفية المجهولة التي تعيش معنا ولا نراها، وتسمع جميلة أطرافاً من هذا الكلام الذي يقال عنها، تديره في عقلها ولا تجد له معني أكثر من كونه علامة على شيء خصها الله به وحدها، فتذهب إلى مرآتها تتأمل ملامح وجهها وتقاطيع جسمها، سعيدة بأنه قد أصبح لها الآن في البيت الجديد غرفة خاصة بها، تستمتع بخصوصيتها وتحاول أمام المرآة أن تبحث عن سر هذا التميز الذي يتحدث به الناس، تقفل غرفتها على نفسها وتنضو جميع ملابسها وتقف أمام المرآة عارية تتأمل شعرها وجبينها وعينيها وتبتسم لترى جمال ابتسامتها وتهبط بنظراتها محاولة أن تكتشف هذا الشيء في استدارة نهديها أو ضمور خصرها أو نعومة وتورد بشرتها أو

تناسق وانسياب جسمها وتدعي لنفسها أنها لا ترى شيئاً يميزها عن غيرها من النساء، وتخرج لسانها للمرأة العارية أمامها في المرآة وترى أن المرأة الأخرى أخرجت لها لسانها ساخرة من رأيها فيها لأنها تعرف أنها أحلى امرأة في الدنيا، فتضحك في سعادة وترتمي على سريرها وقد استيقظ في روحها وجسمها إحساس المرأة بأنوثتها التي نضجت وتفتحت، فتستلقي صامتة فوق سريرها، تنصت إلى نداء الحياة قوياً هادراً يسري مع الدم في عروقها.

ولكنها عندما تذهب في طريقها كل صباح إلى المدرسة، كانت تدس عنقها الطويل بين كتفيها وتخفي تحت جلبابها الواسع استدارة نهديها وتحكم غطاء الرأس حول شعرها، خجولة من جمالها موقنة بأن فيه ما ينافي الأدب وأصول الحشمة.

ولقد أراد أحد الشعراء الشعبيين أن يكتب قصيدة احتفالاً بهذا الجمال الذي أشرق في دروب القرية، رأى أنه ليس من اللائق أن يترك هذه «الجميلة» دون أن يربطها بعلاقة حب مع أحد شباب القرية، وفتش طويلاً قبل أن يهتدي إلى ولد له مواصفات تليق بحب فتاة في مثل رقتها وعذوبتها، لم يجد بين الشباب المقيمين في القرية من يصلح لها، فذهب يبحث عن الشباب الذين رحلوا عن القرية بغرض الدراسة ثم حصلوا على شهادة ضمنت لهم وظيفة مريحة في دوائر الحكومة بالمدينة، ومن بين هؤلاء الشباب اختار ولداً يكثر من زياراته للقرية، في عينيه أسى يليق بعاشق يعذبه الشوق لرؤية حبيبته، اسمه «العيد»، فصنع للعيد علاقة بجميلة، وصاغ لهما قصة حب وهمية في قصيدة قصيرة يسهل على الناس حفظها وتناقلها، وأطلق قصيدته بين الناس دون أن يكشف هويته، وصار الناس يتناقلون قصة هذا الحب الذي لا تعلم جميلة بأمره ولا يعرف عنه العيد شيئاً.



[٦]

العيد ليس اسمه الحقيقي، ولكنه لقب منحه له أطفال القرية ثم وجده الكبار اسماً يليق بصاحبه فصاروا ينادونه به ويهجرون اسمه الأصلي «مصطفى»، ترك له والده ذكراً طيباً بين الناس، فقد عاش عمراً كاملاً يحمل الماء على كتفيه إلى المسجد، وعندما دخلت الحنفيات إلى بيوت القرية ولم يعد للمسجد حاجة به، مات، وبعكس غيره من الشباب الذين يذهبون للدراسة خارج القرية ويحصلون بعد ذلك على وظائف في المدينة تنسيهم قريتهم فلا يعودون إليها إلا مرة كل عام أو عامين، حافظ العيد على علاقة حميمة بقريته وأبقي أمه مقيمة بها بعد أن رآها تفضل الإقامة بجوار أهلها، وما أن تأتي مناسبة أو عطلة رسمية أو عيد من الأعياد الدينية حتى يكون العيد قد وصل في مساء اليوم السابق محملاً بهدايا يأتي بها معه ليفرح أطفال أقاربه، فاكهة وألعاب وحلوي، فارتبط مجيئه في أذهان هؤلاء الصغار بمجيء الأعياد وصاروا كلما رأوه يصل إلى القرية ينطلقون صائحين بأن العيد قد جاء اعتقاداً منهم بأنه هو الذي يأتي بالأعياد إلى قريتهم.

- متى سنفرح بك أنت وجميلة؟

قالها له جمعة الدرويش بمجرد أن رآه يصل إلى القرية، ذهب إليه مهرولاً وألقى عليه سؤاله قبل أن يبادره بالتحية أو يسأله عن علبة الشموع الملونة التي أوصاه بإحضارها له من المدينة، أعطاه العيد علبة الشموع وقال مداعباً:

- لن أتزوج قبل أن أراك عريساً.

ضحك الدرويش ومسح بطرف ثوبه الزبد الذي انتشر حول فمه ودس رأسه في الأرض خجلاً، ثم فتح علبة الشموع يتأمل ألوانها مبتهجاً، نظر إليه العيد مبتسماً وهو يراه سعيداً سعادة طفل بلعبته، متسائلاً بينه وبين نفسه عمن وضع في رأس هذا الدرويش فكرة زواجه من جميلة، كان العيد يعرف أن لليتيم ابنة يتحدث بجمالها الناس اسمها جميلة، ولكنه لأول مرة يسمع أحداً يربط بينه وبينها.

- من أين جئت بهذه الفكرة؟

سأله العيد باهتمام فلم يزد الدرويش على أن قال:

- كل الناس ينتظرون هذا اليوم.

وفرحاً بشموعه ذهب يعدو باتجاه ضريح سيدي أبو قنديل حيث يقيم وحيث سيوقد هذه الشموع ويستمتع بلهبها المتعدد الألوان.

عرف العيد بعد ذلك أن أهل القرية يتناقلون أبيات قصيدة زجلية تتحدث عن علاقته الوهمية بابنة اليتيم، وبرغم أن القصيدة أثارت فضوله لرؤية الفتاة، إلا أنه أخذ الأمر كله مأخذ الدعابة قائلاً لمن يذكر الموضوع أمامه بأنه الآن وقد التحق بالدراسة الجامعية طالباً من منازلهم، فإنه لا وقت عنده للحب ولا رغبة في الزواج قبل أن ينتهي من دراسته التي تستمر لأعوام طويلة تكون خلالها ابنة اليتيم قد تزوجت وصارت أماً.

كان قد نسي الموضوع عندما فوجئ خلال إحدى زياراته إلى القرية بعامر اليتيم يأتي مع أول الليل إلى باب بيتهم يسأل عنه، خرج إليه مرحباً وسأله أن يتفضل لتناول العشاء معه، أخبره اليتيم بأنه على عجل وأنه رأى وهو في طريقه عائداً من المستودع أن يمر به من أجل كلمة صغيرة على انفراد، تمشي معه قليلاً أمام البيت، ظل اليتيم صامتاً والعيد ينظر إليه قلقاً، متسائلاً عن سر هذه الزيارة، محاولاً أن يتكهن بفحوى هذه الكلمة الصغيرة التي يريد أن يقولها له رجل لا تربطه به إلا علاقة المعرفة البعيدة، وجد اليتيم يقف، ويلتفت شمالاً ويميناً ليتأكد من أن أحداً لا يراهما، ثم استمع إليه يقول بلهجة حانقة أنه لم يتوقع من رجل مثل العيد كان دائماً يحترمه ويحترم السمعة الطيبة التي خلفها له المرحوم والده، أن ينشر شائعات كاذبة عن ابنته مدعياً أنه على علاقة بها، ويسأله غاضباً أن يبتعد عن طريقها وأن يمتنع عن رميها بالشائعات التي تضر بسمعتها وسمعة عائلتها.

كان عامر اليتيم قد وصلته أخبار هذه الشائعات التي تربط بين العيد وابنته وأحس بأن في الأمر مساساً بكرامته وأراد أن ينتقم أول ما ينتقم من ابنته ولكن أمها منعته عنها مقسمة بسيدي أبي قنديل الذي لا تقسم به حانثة أن جميلة لا تعرف العيد ولم تره في حياتها أبداً وأن الأمر مجرد شائعة يروجها الحاقدون على ابنتها، وذهب في ظن اليتيم أن العيد هو الذي اخترع هذه الحكايات مدعياً لنفسه علاقة بابنته فجاء من بنى على أقواله هذين البيتين من الشعر، وأن أسلم طريقة هي أن يذهب إليه يوقفه عند حده لكي لا تهدد هذه الشائعات مركزه الجديد في القرية، وتجعل الناس الذين يولونه كل هذا الاحترام يعودون لإهماله والسخرية منه مرة أخرى، وازداد خوفاً من خطر هذه الشائعات عندما رأى بعض المدرسين يعيدون إليه أطفاله الذين

يرسلهم لأخذ الدروس الخصوصية معتذرين بانشغالهم بعد أن عرفوا أن جهودهم قد ضاعت هباءً وأن العيد قد فاز بجميلة دونهم .

ولهذا فقد كان حنقه حقيقياً وهو يسأل العيد أن ينصرف إلى شؤونه ويترك ابنته إلى حالها .

نفي العيد بقوة أن تكون له علاقة بترويج هذا الكلام الذي فوجئ به كما فوجئ هو ، وأنه مشغول بأعمال أكثر جدوى من مجرد تلفيق الحكايات الكاذبة ، وهو يعتبر الموضوع مجرد حديث عابث لا يمنحه الإنسان العاقل شأناً ، بدليل أن الإشاعة ماتت وانتهت ولا أحد الآن يذكرها .

ولكن اليتيم أفهمه بأنه لا يقبل مثل هذا العبث بسمعته وأنه على استعداد لأن يصدق كلامه إذا عمل على درء هذه الشبهات بالامتناع عن المجيء إلى القرية لفترة طويلة ، يكون الناس خلالها قد أدركوا أن الأمر مجرد كذب وافتراء .

لم يكن العيد غاضباً ، حتى إذا كان غاضباً فإن اندهاشه كان أكبر من غضبه ، لم يكن قد رأي اليتيم منذ مدة طويلة ولذلك فإنه لأول مرة يرى الرجل ينطق كلاماً غير «لا حول ولا قوة إلا باللّه» قادراً على تكوين جمل وكلمات لها معني وقادراً علي أن يغضب وينفعل ويطلب منه طلباً كهذا ، كان يراه في القرية خلال الأعوام الماضية يجوس عبر دروبها كأنه غصن شجرة ذابل يمشي في الطريق ، فإذا به اليوم يأتي إلى بيته بوجه تبدلت ملامحه ويتحدث بمنطق من عاشر الوجهاء والعلماء طوال عمره ، خائفاً على شرفه من همسة يحملها الريح ، قال العيد ضاحكاً وهو يرى عامر اليتيم يحكم بنفيه عن القرية بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذه العقوبة وأنه يشعر بالأسف لأنه لا

يستطيع أن يلبي له هذه الرغبة ، وأنه من الخير أن ينسى هذه الشائعة التي ماتت فلا يوقظها مرة أخرى . ثم سأله بإلحاح أن يبقى لتناول العشاء ، لكن الرجل مضي في طريقه دون كلام وقد بدا واضحاً وبرغم رفض العيد لطلبه أنه أقل غضباً وأكثر اقتناعاً بما قاله العيد . في اليوم التالي رجع العيد إلى عمله بالمدينة ورغبته لرؤية جميلة صارت هاجساً يملأ عليه عقله وقلبه ، مصمماً علي أن يتدبر في المرة القادمة وسيلة يرضي بها فضوله لرؤية هذه المرأة التي يتحدث بجمالها الريح .



[٧]

برغم أن عامر اليتيم وزوجته يدركان أن ما أصابهما من خير لم يأتي هكذا دونما سبب، وأن وراءه سبباً يعرفانه جيداً، إلا أنهما استقبلاه بفرح ورضا دون أن يدور بينهما حديث في يوم من الأيام عن مصدر هذا الخير.

التفت إليها وهما في خلوتهما بعد صلاة العشاء، قائلاً دون أن يخفي القلق الذي بدا في لهجته:

- الناس يتحدثون عنها كثيراً.

- أليس الحديث عن جمالها خيراً من الحديث عن قبحها لا سمح اللّه؟

- إذا كبرت البنت وجب حجبها.

- هل تأتي لتقول هذا الكلام بعد أن أضحت ابنتك قريبة من نيل الشهادة التي لم تأخذها فتاة في القرية من قبل؟

لم يقل لها إن ابنته عندما خرجت إلى الشارع منذ أكثر من ثلاث سنوات كان هو ضعيف الإدراك لا يملك رأياً معها، وإنها هي التي سمحت بخروجها مستجيبة لإلحاح الزنجية أمي سعيدة التي لا يضيرها

أن تمشي جميلة حاسرة الوجه مثلها ومثل غيرها من النساء الزنجيات، قال:

- لا يعجبني أمر ذهابها في الطريق وهي حاسرة الوجه.

- وهل تريدها الآن وبعـــد كل هذه السنوات أن تذهب إلى زميلاتها وهي ترتدي لحافاً كما تفعل الجاهلات؟، إنها تقول إن ما ترتديه هو اللباس الإسلامي الصحيح، وتدعو بنات القرية ونساءها إلى ارتدائه.

- ها قد أصبحتما متفقهتين في الدين، يكفي ما تعلمته ولتبقَ في البيت تنتظر نصيبها مثل بقية البنات فلا أحد بحاجة إلى شهادتها.

كان واضحاً أن عامر اليتيم يحس بخوف غامض من هذه الشهادة ومن كلام الناس ومن المجهول الذي تحمله الأيام القادمة.

- لابد أن أحد الناس قال كلاماً أغضبك. إن كل ما يقولونه إن هو إلا حسد وغيرة، ولن أنام هانئة حتى أراها معلمة تحرق بعلمها وشهادتها قلوب الحاقدين والحاقدات. إنها أكثر البنات اجتهاداً ونجاحاً في المدرسة فدع عنك هذه الأفكار وأطفئ النور ودعنا ننام باللّه عليك.

ولكن عامر اليتيم لم يواته النوم، لقد أقلقته هذه الشائعات التى يطلقونها حول ابنته، وكأنهم لا يجدون موضوعاً غيرها، ارتدى عباءته قائلاً لزوجته بأنه سيذهب لتفقد حراسة المستودع، ممنياً نفسه بكوب من الشاي يتسلى به مع الحارس الليلي، وجد وهو في طريقه إلى المستودع أن أضواء المسجد لم تطفأ بعد، حاد عن طريقه مستطلعاً عله يجد الشيخ نصر الدين ليستفسر منه عن أمر هذه الغولة التي يقول

الناس بأنها ظهرت له ليلة البارحة، رآه مازال قائماً على صلاته فانتظره حتى أكمل الصلاة وخرج ليجلس معه على المحراب أمام المسجد، كانت أنسام ليل الربيع تهب ناعمة خفيفة تنعش القلب وتفتح الشهية للحديث والسمر، بادره الشيخ قائلاً :

- ما الذي أخرجك في هذا الليل يا تائب عامر؟

- العمل يا سيدنا، خرجت لتفقد المستودع، ولكن ما هي أخبار الغولة التي لاقتك ليلة البارحة ياشيخ نصر الدين؟ سمعت الناس يتحدثون بأمرها فلم أعرف إن كان ما يقولونه صدقاً أو كذباً .

صار عامر اليتيم يدرك أن ليس كل ما يقوله الناس صحيحاً بعد أن رأي نفسه ضحية لأقاويلهم وحكاياتهم، وكان سعيداً بأن يلتقي بالشيخ نصر الدين إمام القرية وعالمها المبجل، سيستأنس برأيه وسيجد عنده إجابة لهذه الأسئلة التي تشغل باله والتي تخص دراسة ابنته وخروجها حاسرة الوجه، ورأي الدين في اللباس الذي يجب أن ترتديه المرأة، ولكنه رأى أن ينتظر حتى يعرف حقيقة هذه الشائعة حول الشبح الذي رآه الشيخ .

رد الشيخ قائلاً :

- لا غولة في الدنيا إلا الإنسان .

قال في نفسه هذا حديث رجل اختبر الناس وعرف جوهرهم وعليه أن ينصت جيداً إلى كلماته، ظنه قد اكتفى بهذا الشرح الموجز القصير الذي لا يرضي فضوله فقال يدفعه لمواصلة الحديث :

- إذن فالأمر مجرد إشاعات .

استجاب الشيخ لإلحاحه وانطلق يسرد القصة بكاملها :

- إنها ليست إشاعات، كنت في طريقي لأداء صلاة الفجر عندما رأيت مارداً أسود طوله بطول أحد الأبراج يخرج من بين الخرائب قريباً من برج النعام يعترض طريقي، أمعنت فيه النظر فإذا به شيء لا شكل له ولا وجه ولا ملامح، ليس بإنسان ولا حيوان، ويخرج أصواتاً كأنها طنين مدينة من النحل، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقرأت آية الكرسي مرات ثلاث عله يختفي أو يتبخر في الهواء، ولكن العملاق الأسود ظل منتصباً في طريقي يصدر أصواته المنكرة ويتقدم ببطء نحوي، لا أخفيك الحقيقة بأنني أحسست برعدة تسري في جسمي، كنت أعرف أنه لن يؤذيني بعد أن تلوت آية الكرسي، ولكنني طلباً للسلامة أقفلت عائداً إلى بيتي، غير قادر على تفسير شيء من أمر هذا الشبح العجيب.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لو كنت مكانك لسقطت ميتاً في مكاني.

- عليك أن تحمد الله أنك لم تكن في مكاني، فهي لحظات تسلب الإنسان عقله، كنت أنكر على الناس خوفهم من الظلام، وأنكر على الرجل المؤمن خوفه من الأشباح، فمن عمّر قلبه كتاب الله لا تعترض الأشباح طريقه، ولكن جمعا من أهل القرية ومن بينهم الشيخ مسعود، كانوا يعارضونني في ذلك ويقولون إن هناك أرواحاً شريرة تجد متعة في التنكيل بالمؤمنين ومضايقتهم، ولقد عادني هذا الصباح الشيخ مسعود وبعض رفاقه يحملون الذبائح والمؤن يعتذرون بها عن فعلتهم لأن الأمر كله لم يكن إلا مزاحاً منهم، أرادوا اختبار شجاعتي وإبطال رأيي فأرسلوا اثنين من رجال القرية الأقوياء يحملان فوق أكتافهم سلماً طويلاً

يغطيانه بالأردية السوداء ويعترضانني عند ذهابي لأداء صلاة الفجر بالمسجد.

قال عامر اليتيم وهو يحاول أن يتمالك نفسه من الضحك:

- إذن فإن تلك الغولة لم تكن إلا هزاراً.

- ألم أقل لك إنه لا غولة إلا الإنسان. لقد قررت مقاطعة الشيخ مسعود ومن كان معه، رددت عليهم هداياهم وسألتهم عدم المجيء إلى بيتي مرة أخرى.

رأى عامر اليتيم أن الشيخ لم يتحرر تماماً من حالة الذعر التي أصابته ليلة البارحة، فعدل عن إشراكه في همومه وأرجأ الاستنارة برأيه ورأي الدين في لباس ابنته إلى مناسبة أخرى، أراد أن يستأذن ويقوم ولكن الشيخ بادره قائلاً:

- وكيف حال ابنتك جميلة؟

استغرب عامر اليتيم أن يسأله الشيخ هذا السؤال كأنه يقرأ ما في صدره، بل هو يقرأ ما في صدره، فالشيخ نصر الدين رجل مشهود له بالكرامات.

- إنها تقبِّل يديك ياسيدنا.

- إن لها جمالاً يجعلها تنتمي إلى الملائكة.

صمت الشيخ قليلاً ثم قال بلهجة منذرة:

- ملاك في عالم مليء بالشياطين من بني الإنسان، إنها أمانة في عنقك يا عامر اليتيم، فحافظ على هذه الأمانة ما وسعك ذلك.

ألقت كلمات الشيخ شيئاً من الفزع في قلب اليتيم، إن هذا الرجل

الصالح يحذره من وقوع شيء ويريده أن يحترس منه منذ الآن، ولكن من أين لي أيها الشيخ ببصيرة كبصيرة الأولياء والصالحين من أمثالك أدرأ بها الخطر قبل وقوعه؟ رأى الشيخ يذهب فيطفىء أنوار المسجد ثم يعود وقد عم الظلام الدنيا، خاطبه من خلال الظلام قائلاً:

- لتدع لها في صلاتك بالفوز والنجاة.

[٨]

يكتسب المقهى الوحيد في القرية قيمة أثرية لما يحتويه من لوحات مرسومة على الجدران لفرسان يركبون الخيل ويمتشقون السيوف ونساء يحمل بعضهن أصص الزهور وعناقيد العنب وبعضهن الآخر العقارب والأفاعي والجعارين الذهبية ورجال لهم أجنحة يقفون فوق جبال يغطيها الثلج ويتحاربون بالنيازك والشهب وطفل مجنح يضع في جعبته سهاماً ويستعد لإطلاق إحداها من القوس والوتر، رسومات كبيرة تغطي الجدران الأربعة، بهتت ألوانها وأصاب التشقق بعض أجزائها ولكنها ظلت تمنح المقهى جواً أسطورياً وتحتفظ بشخصيته المتميزة التي تعبق بعبير الذكريات القديمة عندما كان المكان نادياً يؤمه ضباط الحامية الإيطالية ونساؤهم، تقام فيه حفلات الرقص وتصدح فيه الموسيقى، واستمر حانة يملكها أحد الإيطاليين حتى انتهاء عهد الإدارة البريطانية وخروج الإنجليز وعساكرهم من القرية، وبرغم أن الحانة القديمة أصبحت الآن مقهى لا يبيع المشروبات الكحولية علناً إلا أن ما يصنعه بعض أهل القرية من خمور النخيل ظلت تجد طريقاً لتصريفها عن طريق المقهى، وبرغم أن ملكيته قد آلت إلى سلطان الذي كان يعمل نادلاً مع صاحبه الإيطالي فإنه

استمر يحمل شيئاً من سمعته القديمة كما استمرت صورة الفتاة ذات الشعر الذهبي التي تعلن عن وجود النبيذ الإيطالي معلقة بمدخل المقهى تقدم صحبة نسائية لرواده، وظل الكبار في السن من أهل القرية يتجنبون الذهاب إليه ويلومون أبناءهم الشباب إذا قضوا أمسياتهم به وينعتونه دائماً بأنه «وكر الأشرار»، إلا أن هذا الاتهام لم يمنع الشباب من الذهاب إليه وإن ظل أغلب أهل القرية يفضلون عقد جلساتهم في ساحة السوق وأمام الدكاكين والذهاب في أمسيات الصيف إلى غابة النخيل بأطراف القرية، وكان يؤمه مع بعض شباب القرية العمال الغرباء الذين يأتون مع شركات البناء أو مع الشركات الأخرى التي تجوب الصحراء، يلعبون الورق ويسهرون به إلى ساعة متأخرة من الليل.

كان مطرب المذياع يترنم بأغنية خفيفة مرحة ومن خلفه جوقة النساء تردد مقاطع الغناء، قال شعبان وهو يتمايل مع الأغنية ويتخيل عالماً بهيجاً يمتلئ بنساء حاسرات الصدور:

– يا ليتني كنت معكن!

واغمض عينيه متنهداً كأنه يستدعي قوة خرافية كي تنقله الآن فوراً من عالم خلا من البهجة والنساء، إلى عالم الأغنية المليء بالنهود والسيقان والرقص والموسيقى والغناء، ضحك عاشور، زميله في لعب الورق وزميله أيضاً في التسكع بلا عمل بعد أن كسدت مهنة العتالين ووجدا نفسيهما لا يعملان لأكثر من ساعات قليلة كل أسبوع وقال لصاحبه:

– ولكن لعنة الشيخ نصر الدين ستظل تطاردك حتى لو خبأت نفسك تحت فساتين المغنيات.

كـان شعـبان نادمـا لأنه شـارك عـاشـور في تمثيل دور الغـولة التي أرعبت شيخاً صالحاً مباركاً يحمل له التبجيل والتقدير، ولكن زميله كان يرى في الأمر مدعاة للضحك والتسلية فمضى متباهياً يكشف لرواد المقهى أسرار تلك اللحظات العصيبة.

- لقد كاد ذراعي ينفصل عن كتفي.. أوجاعه لاتزال تؤلمني حتى الآن، لقد مال هذا الخنزير بالحمل كله نحوي، كان تملاً يكاد يسقط فوق الأرض لا يفعل شيئاً سوى معاونتي في إصدار ذلك الطنين الذي أرعب الشيخ.

بدأ عاشور يحكي القصة، سعيداً بما يثيره حوله من اهتمام، في حين ظل زميله يسأله أن يبحث عن موضوع آخر لأنه لا يرى مفخرة في أن يعترض الإنسان شيخاً صالحاً ذاهباً لأداء صلاة الفجر، كان يؤلمه أن الشيخ سيعرف بالموضوع بعد أن كشف زميله السر، وسوف يغضب منهما غضباً شديداً، فبأي وجه سيلاقيه بعد اليوم وهو الرجل الذي كان دائماً يشمله بعطفه ويلح عليه بالعودة للصلاة التي هجرها، يريد له الخير والرحمة، لم يكن ليفعل ما فعله لو لم يسكره عاشور من خمر النخيل حتى مطلع الفجر، ثم سحبه من يده دون أن يمنحه فرصة ليتدبر الأمر.

- برغم الظلام وبرغم الستارة السوداء التي التحفنا بها فقد كنت أستطيع أن أتبين من خلال الشقوق رعب الشيخ وهو يقف مرتعشاً كعرف شجرة تعصف به الرياح، كانت أسنانه تصطك خوفاً وذعراً وهو يحاول تلاوة بعض الأدعية التى لا يطاوعه الارتعاش على قولها، كنت أريده أن يختفي سريعاً فقد أعياني ذلك السلم اللعين.

جاء رواد المقهى يسحبون كراسيهم ويتحلقون حوله ينصتون بانبهار إلى حكايته، إلا أن شعبان سرعان ما وجد حيلة يصرف بها الأنظار عن رفيقه الأرعن.

- لقد رأيت اليوم جميلة.

صار الناس لا يتحرجون من ذكر اسمها مجرداً بدل الإشارة إليها بابنة اليتيم كما كانوا يفعلون سابقاً، لقد دخلت حياتهم وصارت معلماً من معالم قريتهم ولم تعد هناك حاجة لنسبتها إلى أب أو عائلة، لم يكن شعبان قد رأى جميلة هذا اليوم، ولكنه يدرك ما للحديث عنها من سحر وسلطان على قلوب الناس، وجد أن الطريقة الوحيدة لإسكات غريمه هي أن يلقي باسم جميلة في هذا الجمع وينتظر ما يحدثه من أثر، أداروا رؤوسهم إليه ينتظرون شرحاً، لم يكن قد أعد شيئاً يقوله، فظل صامتاً يبحث عن تكملة للقصة، استعجلوه قائلين:

- أين رأيتها؟

- رأيتها عند زيارتها لأمي سعيدة.

لم يكن غريباً أن تذهب جميلة إلى زيارة جارتهم القديمة فهم يعلمون أن الزنجية العجوز تعاملها مثل ابنتها ويعلمون أن جميلة لا تعرف بيتاً آخر تذهب إليه عندما تخرج من بيتها غير بيت أمي سعيدة، فما غرابة أن يراها شعبان تذهب إليها، بدا الفتور واضحاً في وجوههم، رآهم يلتفتون عنه ويعودون مرةً أخرى يعلقون أبصارهم بعاشور، فتش عن شيء سريع ينقذ به الموقف:

- كانت أمي سعيدة تعلمها السحر.

أحس بالسعادة لهذه القصة المثيرة التى اهتدي إليها، أدرك أنها فعلت فعلها عندما رأى العيون والأفواه تتحول إلى دوائر باتساع فناجين القهوة اندهاشاً واستحساناً، لم تكن أمي سعيدة تتعامل بالسحر ولكن أهل القرية عندما رأوا امرأة عجوزاً تعيش بمفردها صحبة كلبها ودجاجها وتملأ خرابتها بالأحواض التي تزرع بها زهوراً وأعشاباً تستعملها في صناعة الشاي والعطور والأبخرة أو تعصر منها شراباً أو دواءً، وتعرف كغيرها من عجائز القرية فرش المنديل وخط الرمل على سبيل التسلية ومحاولة التكهن بالمستقبل، ذهب في ظنهم أنها منذ أن هجرت الغناء في الأعراس صارت تعيش على السحر، وتستعمل هذه الأعشاب الغريبة في أغراض الشعوذة، وبرغم أنها كانت تنفي عن نفسها هذه التهمة وتطرد غاضبة كل من يأتي راغباً في أن يستعين بسحرها على قضاء أمر من الأمور، وهجرت بسبب ذلك فرش المنديل وخط الرمل، إلا أن الشائعة ظلت لاصقة بها لفترة طويلة، ثم فقد الناس مع الزمن اهتمامهم بها فجاء شعبان هذه الليلة يوقظ الشائعة القديمة ويمنح القرية ساحرة جديدة هي جميلة.

قال أحد الجالسين وكأنه قد وجد تفسيراً لمعضلة عظيمة حيرته طوال عمره:

- كنت دائماً أستغرب لهذه العلاقة الغريبة التي تربط الفتاة بالزنجية العجوز.

واصل شعبان سرد حكايته:

- كنت قد ذهبت إلى بيت أمي سعيدة لآخذ منها البيض كما أفعل بين الحين والآخر إلى الدكان الذي يبيعه لها، وما أن وصلت إلى الباب حتى سمعت حديثاً يدور بينها وبين امرأة أخرى عن

شـرتوخ وشـمـبروخ وشـمـهـروش وغـيرهـم من ملوك الجـان، فـعدلت عن الدخول ونظرت من شقـوق البـاب فرأيت مـعهـا جـميلة وبين أيديهـمـا ديك أسـود مذبوح يقرآن عليـه الأوراد، رجعت دون أن أفصح عن نفسي لكيلا يكتشفا أمري ويحيلاني بقوة السحر إلى كلب مثل عاشور.

قال عاشور وقد أغضبه أن يرى زميله يسرق منه اهتمام الناس:

- ولماذا يحيلانك إلى أي شيء آخر وقد سخطك اللّه منذ البداية قرداً.

[٩]

أخذ العيد سلة مليئة بالفاكهة وأكياس الحلوى والمشروبات المعلبة ولعب الأطفال وذهب مع بداية المساء يحمل الهدية إلى بيت اليتيم، كان قد أرسل صبياً يراقبه له وعرف أن اليتيم لم يعد إلى بيته وأن زوجته خرجت لتشرب الشاي مع جارة لهم، وقف لحظة يستلقط أنفاسه قبل أن يدق الباب ويري جميلة تخرج بنفسها لتفتحه له، أحس بالارتباك والحرج وفكر أول ما فكر في الهروب كأن جمالها أوقع في قلبه الرعب، سأل بسرعة عن والديها ودون أن ينتظر إجابتها قال إنه جاء يبارك لهما الانتقال إلى البيت الجديد، تهنئة متأخر ولكن عذره أنه مقيم بالمدينة، انطلق مسرع الخطى عائداً إلى بيته، اكتشف وهو يبتعد عن بيت اليتيم بأن سلة الهدايا لاتزال في يده، سأل أحد الأطفال أن يعود بها إليها، ولم يجد رغبة في العودة إلى البيت فذهب مملوءاً بالانبهار إلى غابة النخيل التي تعود كلما جاء إلى القرية أن يأخذ كتاباً ويذهب إليها.

ركضت إليه أنسام الربيع المحملة بعبير أعشاب الصحراء تحرك في قلبه الحنين لمعانقة المرأة الحلم، أرادها أن تأتي الآن فتجلس بجواره وتتأمل النخيل وتراقب غروب الشمس وتمنح الأشياء التي حوله

دلالة ومعنى، أرسل فكره يبحث عن امرأة من بين نساء المدينة ممن يعرفهن ويلتقي أحياناً بهن في داره على البحر يسميها رفاقه «مغارة الحلم» لكي تأتي وتقاسمه الآن وحدته، ولكن انبهاره بالفتاة التي رآها منذ لحظات مسح من ذهنه صور النساء الأخريات، رأى صورتها تغطيها أبخرة الحلم فيعجز عن تبين ملامحها، قال يسألها:

– لماذا تسرقين أمواج البحر وتخبئينها في شعرك؟

– لم أر بحراً في حياتي.

– لا تنكري، لقد بنيت هذه القرية على البحر، لتكون ميناءً لسفن تأتي من بلاد الأساطير، لكنك أنت من جاء وسرق أمواجه فتحول البحر إلى رمال.

تذكر ضاحكاً أنه لم ير شعرها، كانت تغطيه بمنديل أزرق، لعل المنديل هو الذي جاء بصورة البحر إلى ذهنه، إن مثله ترتديه كثير من النساء فلماذا يتحول عندما ترتديه جميلة إلى شيء يرسخ في الذهن ويوحي بالسفن وموج البحر والمدن الأسطورية. ولماذا تغيب ملامحها وتغطيها أبخرة الحلم فلا يبقى إلا هذا المنديل الأزرق الذي غطت به شعرها، كيف إذا أحس وهو يراها بأنه أمام تجربة جمال جديدة، مبهرة، تمسح صور كل النساء من ذاكرته، رأى أن أفضل سبيل هو أن يسترجع تلك اللحظات القصيرة عندما قابلها ويديرها ببطء في عقله كمن يدير شريطاً سينمائياً بالحركة البطيئة، لعله يهتدي لهذا الجديد المبهر في جمالها، كان أول ما استرعى انتباهه عندما وصل إلى باب بيتها حذوة الحصان المعلقة فوقه، إنه يذكر الآن أن هذا الشيء الضئيل الذي لا قيمة له إلا عندما يكون مضروباً في حافر الحصان، والذي يعتقد البسطاء والسذج في قدرته على جلب الحظ ودفع الشر، كان له

دور مهم فيما حدث، فقد بقي للحظات يتأمل هذه الحذوة أو لعله لا يتأملها وإنما يفكر وهو ينظر إليها قبل أن يطرق الباب إذا كان حقاً يريد أن يرى ابنة اليتيم، لقد جاء مدفوعاً برغبة أكيدة لرؤيتها ولكنه ما أن وصل إلى باب بيتها حتى تلاشت تلك الرغبة وحل مكانها خجل ساحق من نفسه ومن تطفله على حرمات البيوت بهذا الشكل، ماذا لو كان والدها قد عاد من عمله وجاء يفتح الباب، لعله سيحمل هذه المرة خنجراً يطارده به، ثم ما جدوى أن يراها أو لا يراها بحيث يتحمل في سبيل ذلك عداوة والدها، ثم حتى لو كان حقاً يريد أن يراها، ألم يكن أيسر له أن ينتظرها عند ذهابها إلى المدرسة ويعبر الطريق بجوارها فيرضي فضوله لرؤيتها ثم يعود بدلاً من اختلاق هذا العذر المضحك وإرسال العسس لمراقبة بيتها والتخطيط للأمر كأنه سارق يريد القيام بعملية سطو، كانت هذه الأفكار تملأ ذهنه وكان قد قرر أن يعود من فوره، ولكن حذوة الحصان المعلقة بحائط الباب هي التي أبقته، أشاعت في نفسه التفاؤل وأيقظت في ذهنه الرغبة في اللعب أو العبث، ها هم الناس يتقون أهوال الدهر ومصائبه بحذوة حصان، فلماذا لا يستخير بها في قضاء مهمة صغيرة كهذه، وعابثاً دق الباب وهو ينظر إلى حذوة الحصان يسألها ألا تتخلى عنه، ورأى أول ما رأى زرقة البحر وأحس أول ما أحس بأن رؤيتها ليست عبثاً أو لعباً وإنما شيء يحدثه ظهورها في نفسه كتلك النار التي يشعلها الفجر في الأفق، لم يكن قد هيأ نفسه لمعايشة تجربة جمال كهذا الجمال، فدسّ رأسه في صدره غير قادر للوهلة الأولى أن ينظر في وجهها، لاشك أنه كان سيضع عينيه في عينيها ويملأ بصره من ملامحها وقد يغازلها أو يسألها موعداً لو أنه قابلها في ظروف غير هذه الظروف وفي مكان غير هذا المكان، ولكنه جاء مهيأ لأن يرى فتاة من فتيات

هذه القرية، وجمالاً ينبت في تربتها وينتسب إليها وتحكمه شروط الجمال في بيئة فقيرة جفت مياهها وزحفت الرمال على حقولها، تمتلئ بالغبار والذباب وأمراض التراخوما وفقر الدم، ولكنه رأى جمالاً مقطوع الصلة بما حوله، كأن سحابة جاءت وهبطت بها من مكان وزمان أسطوريين، أدهشه ما رآه وقال بسرعة وارتباك الكلمات التي وجب قولها وأقفل مسرع الخطى عائداً وقد سها عن تقديم سلة الهدايا إليها ونسي أن ينظر إلى حذوة الحصان شاكراً عونها ومساعدتها.

قرر وهو يرى نفسه يطوف بين أشجار النخيل وحيداً، أن يضم طيفها بين ذراعيه وأن يعتذر لها عن هروبه المخجل من جمالها وعجزه عن النظر في عينيها مؤكداً لها بأنه سيعوض هذا التقصير في مناسبة أخرى، سرت في جسمه نشوة الالتصاق بها وارتفع خلفه صوت رجل يقول:

- أبقى اللّه علينا عقولنا.

كان عمران عامل المخبز يحمل فأساً في طريقه للبحث مع غروب الشمس عن الكنز المخبأ في مكان قريب من أطلال القصر الروماني، اختفت جميلة، وحل مكانها إحساس بالخجل عندما أدرك أن الرجل قد رآه يكلم نفسه ويضم إلى صدره امرأة مصنوعة من الهواء.

- لقد أصابتك النخلة المجنونة بالعدوى.

كان يقف بجوار أطول نخلة في الغابة، سُميت المجنونة لأنها أول شجرة نخل تطرح ثمارها عندما يحين موسم البلح، وتبقى عراجين أخرى لا تنضج إلا بعد أن ينتهي البلح من أشجار النخيل الأخرى، بها يبدأ الموسم وبها ينتهي.

رأى العيد في التسمية التي أطلقوها عليها إجحافاً في حق هذه النخلة المباركة ورأى أن منطق القرية يحكمه مزاج غريب يعتبر هذا العطاء السمح الكريم الذي تقدمه نخلة تفوقت بخيرها على بقية أشجار النخيل، جنوناً.

تذكر جميلة وما يقولونه عنها، أحسّ بالحنين إليها وصمم على أن يتدبر لقاءً معها مرة أخرى وأن يملأ بصره من عينيها اللتين لم يقوَ على النظر إليهما في المرة الأولى.

ها هو عمران يسميه مجنوناً، ولكن ماذا يقول لرجل أفنى شبابه في حفر الأرض الخلاء بحثاً عن كنز لا وجود له، قال لكي يغيظه:

- ما جئت إلى هنا إلا بحثاً عن الكنز، لقد اهتديت إلى مكانه، وسأنتظر مجيء الليل لأذهب وأعود به إلى بيتي.

ضحك عمران ساخراً، لأنه يعرف أن لا أحد في الدنيا بإمكانه أن يعثر على الكنز، فهو موعود به منذ أن دفنوا هذا الكنز تحت التراب، تركه ومضى غير عابيء بكلامه، في حين ظل العيد واقفاً يفكر فيما إذا كان حقاً قد اهتدى إلى كنز هذا المساء.

[١٠]

السحر إذن . .

وهل هناك تفسير آخر للظواهر العجيبة التي تحدث في الكون غير قوة السحر وقدرته الخارقة على تحويل التراب إلى ذهب، والفقر إلى غنى، والقبح إلى جمال ووسامة، ليس غريباً أن تكون هذه الفتاة المجبولة من طين البشر وجمر الشياطين، ساحرةً تسخِّر القوى الخفية المجهولة لخدمتها، وإلا كيف يمكن لعائلة منسية تسكن الخرائب وتعيش على الصدقات أن تصبح بين يوم وليلة إحدى أكثر العائلات وجاهة وغنى، وكيف لرجل أبكم درويش لا يعرف كيف ينطق اسمه مثل عامر اليتيم، أن يتحول من البكم والبلاهة، إلى الفصاحة والذكاء، ويلحق التغيير وجهه الذي عششت فيه الكآبة فيتحول من شيء يشبه كرناف النخيل إلى وجه رجل تربى على موائد الملوك، وجد الناس في الشائعة الجديدة التي صنعت من جميلة ساحرة تتحكم في ملوك الجن، تفسيراً لكل هذه التحولات التي طرأت على عائلة اليتيم وسببت لهم الكدر والحيرة، تلقفتها النساء بحماس عظيم وصرن يذهبن من بيت إلى بيت ويجعلنها موضوع أحاديثهن حول مواقد النار عندما يعقدن جلسات الشاي، ويجدن تسلية في ترويجها

والإضافة إليها، وتختلق الواحدة منهن عذراً وتذهب إلى بيت اليتيم لتتأكد بنفسها من تعامل جميلة بالسحر، وما أن تراها تداعب قطة أو تطعم دجاجة حتى تأتي إلى جاراتها قائلة:

- لقد رأيتها اليوم تتحدث إلى القطة، إنها تعرف لغة الدجاج أيضاً.

وتدعي إحدى النساء الجالسات عدم التصديق، فتؤكد المرأة قائلة:

- أي والله، لقد رأيتها بنفسي تأمر الدجاج فيطيعها.

وزاد الأمر في أذهانهن تأكيداً أن جمعة الدرويش أصابته نوبة من الهستيريا والجنون فصار يلهج باسم جميلة أينما ذهب ويتجول في شوارع القرية صائحاً:

- جميلة، يا ويلي من جميلة.

ويأتي إلى المسجد ويقف مع المصلين خلف الإمام لأداء الصلاة، وما أن يهم الإمام بالركوع قائلاً «الله أكبر» حتى يرتفع صياح الدرويش في وسط الصلاة:

- جميلة، يا ويلنا من جميلة.

ويضحك من يضحك، وتبطل الصلاة، فيطردونه من المسجد، ويجدونه جالساً أمام ضريح سيدي أبو قنديل يناجي جميلة ويتحدث إليها حديثاً يمتد إلى آخر الليل، فيسألونه في اليوم التالي عن سبب حديثه مع نفسه، فيقول إن جميلة كانت معه، وإنها تأتي متخفية لزيارته كل يوم، وبالرغم من أن الرجال يأخذون كلامه مأخذاً هازلاً فهو ليس إلا دليل عتهٍ وجنون، إلا أن بعض نساء القرية وجدن فيه

تأكيداً على أن جميلة تملك من قوة السحر ما يجعلها قادرة على أن تتخفى وأن تطوف القرية دون أن يراها أحد، وأنها بلا شك قد حضرت بعض مجالسهن واستمعت إلى مايقلنه عنها، وأنها بعد أن سلبت من الرجال عقولهم، ستأتي وتنزل عقابها بالنساء، وترفع الواحدة منهن يديها إلى أعلى قائلة في خوف ورهبة:

- يا خفي الألطاف، نجِّنا مما نخاف.

[١١]

في اليوم التالي لزيارته الأولى إلى بيت اليتيم، وفي وقت يماثل ذلك الوقت، سار العيد في طريقه إلى بيت اليتيم مرةً أخرى، لقد تعمّد أن يهرب هذا الصباح من والدها الذي عرف أنه يبحث عنه، وعندما جاء المساء وأحسّ بالحنين إلى رؤيتها، وجد أن اليتيم قد أعطاه مبرراً مناسباً للذهاب إلى بيته بحجةً أنه ما إن علم بأنه يبحث عنه حتى جاء بنفسه لمعرفة السبب.

رأى جميلة يغمر وجهها الاندهاش وهي تفتح الباب، سمع صوتاً مفعماً بالعذوبة يقول أهلاً، سرت في دمه نشوة الارتحال إلى مدينة الحلم، وقال وهو يتأمل أهدابها الطويلة:

– علمت أن والدك يريدني فجئت أبحث عنه.

– لقد خرج إلى صلاة العصر.

كان العيد قد تأكد قبل مجيئه أن والدها غادر البيت فقال كاذباً:

– سأذهب إذن إلى المسجد للبحث عنه.

وجدها لاتزال واقفةً لم تقفل الباب، بحث عن موضوع لحديث

يطيل عمر هذه اللحظة التي سيجعلها زاداً يعيش عليه لأيام أخرى، وجد نفسه يقول:

- وكيف حال الدراسة؟

أحس بثقل السؤال وسخافته، ليكن حديثه معها عن قطعان السحب التي ترعى في حقول السماء، أو عن الغزلان التي تركض في الصحراء تبحث عن منبع الشمس، أو عن نضارة العشب أو نعومة أوراق الورد أو كبرياء الأشجار، أو عن أي شيء آخر في الكون له بهجة هذا البهاء وروعة هاتين العينين، وجدها تهتم بسؤاله وتبتسم قائلة:

- حال الواجبات المنزلية التي لا تنتهي.

ولكن لمشهد الغروب بين أشجار النخيل سحراً لا يقاوم، فما حاجة امرأة مثلك للاعتناء بأشياء كهذه، دعي الواجبات المنزلية وحوائج البيت والمطبخ، وتعالي نعانق المدى ونراقب الشمس التي أعياها الرحيل وهي تشد عرباتها فوق الجبال البعيدة وتمد يدين واهنتين تنشر بهما غلالة الأسى الجميل وتبارك بهما الأشجار والبشر، قال مجاملاً:

- سنراك قريباً أستاذة بإذن الله.

قالت ضاحكة:

- كان الله في عون الأطفال الذين سأعلمهم.

ظهر على البعد شبح رجل يعبر الطريق، مدت إليه يدها على عجل، حاول أن يبقي يدها في يده ولكنها استلت يدها ضاحكة وأقفلت الباب.

جلس فوق مرتفع يطل على الفضاء وأشجار النخيل، أطلق صوته بأغنية تتحدث عن ابنة الشمس التي تمد ضفائرها الذهبيتين كل مساء إلى عشيقها لكي يتسلق صاعداً إلي السماء، جاءت جميلة وجلست بجواره، بدا الكون جميلاً والحياة أنشودة عذبة لا يعكر صفوها إلا حتمية أن يموت الإنسان، قال يسألها:

– لماذا لا يعيش الإنسان ألف عام؟

– لا تكن نهماً، يجب أن ترضى بمائة عام.

– إن مائة عام لا تكفي لأن أخبرك بكل الأشياء التي أريد أن أقولها لك.

– لقد أضعت وقتاً كثيراً، فلماذا لاتبدأ الآن؟

تذكر أن والدها يبحث عنه لينشب معركة معه ويمنعه من رؤينها فجاء يسألها عن وسيلة يكسب بها رضاه، لم يسمع منها رداً، ونظر فلم يجد بجواره أحداً، ضاع الوهم وجاء الواقع، رأى على البعد بدوياً ينزل الأمتعة عن ظهر جمله ليقيم الليلة بين أشجار النخيل، تذكر أن حياة البادية أقل تعقيداً من مجتمع القرية، وسبل الاختلاط أكثر يسراً بين رجال ونساء النجوع، أدهشه أن الحياة في تدرجها من مجتمع البداوة إلى مجتمع المدينة تأخذ عبر مرورها بمجتمع القرية شكلاً ممسوخاً، خسر تسامح البادية ولم يصل بعد إلى تحرر العلاقات في المدينة، لم يستطع أن يهتدي إلى المنطق الذي يحكم هذه المعادلة، رأى قبالته النخلة المجنونة ترفع رأسها فوق بقية الأشجار، فأيقن أن الكون مليء بالأسرار التي تمتنع عن التفسير، ذهب إلى البدوي وقد أحس بحاجته إلى أن يتحدث إلى هذا

الرجل الذي عاش في بيئة أكثر نقاءً من بيئته، جاء البدوي بوعاء اللبن وحبات التمر وسأله أن يشاركه الطعام، راوده شعور باللهو فقال للبدوي:

- هل تعرف عامر اليتيم؟
- من أي قبيلة هو؟
- لا قبيلة له، رجل مقطوع عن أهله.

عبَّر البدوي عن نفوره من رجل لا أصل له ولا قبيلة:

- لا أعرف رجلاً بهذا الاسم ولا أريد أن أعرفه.
- كنت أريدك أن تصالح بيني وبينه.
- كيف أصالح بينكما وأنا لا أعرفه؟
- لا يهم، يكفي أن تذهب إليه وتقول له إنك شيخ قبائل البدو، فهو رجل يحب معاشرة الشيوخ ولا يرد لهم طلباً.
- ولكنني لست شيخاً.
- كن شيخاً لمرة واحدة في حياتك.

ضحك البدوي عندما أدرك أن الرجل يتحدث هازلاً.

- لماذا يخاصمك؟
- ظناً منه أنني على علاقة بابنته.
- لا تلعب ببنات الناس.
- إنني لا ألعب.
- هل تقدمت لخطبتها؟
- لم أتقدم.
- إذا كنت لا تلعب فيجب أن تتقدم للزواج منها.

الأمور محددة ومحسومة في عقل هذا البدوي، نعم، لماذا لم تخطر هذه الفكرة على باله من قبل، لماذا لا يطرق البيوت من أبوابها ويتقدم في وضح النهار إلى والدها طالباً يدها، ليمتنع إذا شاء عن قبوله، فسوف يسوق عليه الوساطات حتى يلين ويرضى، إنه يدرك الآن أن جميلة أيضاً تريده، وسيكون اتصاله بها، وذهابه إلى بيتها، أمراً مشروعاً لا يثير حفيظة أحد، ترك البدوي يطعم جمله، وعاد مسرعاً إلي القرية وقد اهتدى إلى ما يجب أن يقوله لعامر اليتيم.

[١٢]

تميز المتصرف بزيِّه الجديد على بيئة القرية، جاء يرتدي البذلة الإفرنجية وربطة العنق ويضع فوق رأسه طربوشاً، ولا يتخلى عن هذا المظهر صيفاً وشتاءً، كانت القرية لا ترى الطرابيش إلا في المناسبات الوطنية التي يزورهم فيها وفد حكومي كبير مثل المرة التي زارهم فيها الوالي منذ سنوات كثيرة مضت لحضور إحدى المهرجانات الانتخابية أو المرات الأخرى التي جاء فيها وزراء لافتتاح بناء جديد مثل المدرسة أو المستوصف، وبخلاف غيره من المتصرفين السّابقين الذين كانوا كباراً في السن لا يعرفون البذلة الإفرنجية ولا يحتملون الإقامة في القرية لأكثر من عام أو عامين ثم يطلبون الانتقال هرباً من حرها ورياحها ومياهها الجيرية التي تصيبهم بداء الكلى، فقد كان هو في الأربعينات من عمره، أمضى معهم أكثر من ثلاث سنوات لا يبدي تذمراً ولا شكوى ولا تصيبه مياههم بداء أو علة، وما إن رأى أهل القرية طربوشاً يقيم بينهم ويطوف الشوارع مثلهم حتى استبشروا خيراً، فها هي الحكومة أخيراً ترسل لهم واحداً من رجالها، يعتمر هذا الشيء الذي لم يره أحد منهم إلا فوق رؤوس الولاة والوزراء، واعتبروه فألاً طيباً على القرية خاصةً وأن السيد المتصرف جاء تسبقه

سمعة كبيرة في الحنكة والدهاء، اكتسبها منذ أن عمل رئيساً للجان الانتخابية التي أثبت فيها ولاءه القوي للحكومة وقدرته على تنفيذ أوامرها وبسط هيبتها في أحلك الأيام وأكثرها توتراً وعصبية، فحاز بذلك ثقة المسؤولين الكبار وصار نافذ الكلمة في الدوائر العليا.

ودخل الطربوش قاموس القرية دخولاً مشرفاً كريماً، فهو لا يذكر إلا مقروناً بالهيبة والإكبار التي لا ينال منها إلا تزيد بعض الساخرين والماكرين الذين يبالغون في الاحتفاء بالطربوش ويقدمونه على المتصرف نفسه كأن يقول الواحد منهم:

– لقد رأيت اليوم الطربوش ومن تحته السيد المتصرف.

ولقد رأى الناس الطربوش ومن تحته السيد المتصرف يكثران من زيارتهما إلى بيت عامر اليتيم في الأيام الأخيرة، بدا غريباً أمر علاقة تنشأ بين ممثل الحكومة ورجل بسيط من أهل القرية مثل عامر اليتيم، ولكنهم سرعان ما يتذكرون أن الحظ الذي أصاب اليتيم ورفع من أقداره ترافق مع مجيء المتصرف إلى القرية وافتتاحه للمدرسة الجديدة التي ذهبت إليها ابنته، وأن الطربوش كان فأل خير على اليتيم أكثر من أي أحد سواه، فلا غرابة إذن أن تنشأ مثل هذه العلاقة، وأن يختار المتصرف بيته من بين كل البيوت مكاناً مفضلاً لزياراته، برهاناً عظيماً علي ما وصل إليه عامر اليتيم من جاه ونفوذ، وما للشمس الصغيرة التي تشرق بين جدران بيته من سحر على العقول والقلوب.

كان المتصرف قد رأى جميلة، سمع الحديث الذي يتناقله الناس الناس عن جمالها، وقاده فضوله إلى مدرسة البنات لرؤيتها بحجة أنه يقوم بجولة تفتيشية؛ وما أن رآها حتى أدرك أنها شجرة ورد تنبت في صحراء الرمال، وأنه لابد من يد حانية تتعهدها بالسقاية وتمسح

عن أوراقها التراب وتدرأ عنها خطر الرمال، وقرر بينه وبين نفسه أن يتولى هذا الدور، أوصى بها المدرسين خيراً، وعرف أنها تنتمي إلى عائلة فقيرة تسكن الخرائب القديمة فمنح والدها بيتاً، ثم تلى البيت العلاوة والترقية في العمل، جاء إليه والدها شاكراً فأبلغه صادقاً بأنه لم يقم بغير الواجب، فقد كان يراه واجباً أن تلقى فتاة في مثل جمالها معاملةً متميزة عن بقية الناس، لقد أحبها اللّه وحباها بكل هذا الحسن، فكيف لا يحب هو أيضاً من أحبها اللّه، لم يكن في ذهنه غرض أو يبغي لنفسه منفعة أكثر من المتعة التي يحس بها وهو يخدم هذا الجمال، ثم تدريجياً صار يرى نفسه مهموماً بمستقبلها والمصير الذي ستؤول إليه فتاة مثلها في قرية وسط الصحراء، لو كانت في بيئة أكثر حضارة وتقدماً لأقيمت من أجلها المهرجانات ولتسابق الأغنياء لإغراقها بالهدايا والهبات ولأصبحت صورتها على غلاف كل مجلة ولجاء أبناء الملوك يطلبون يدها، وكان يتألم عندما يري أن كل هذا الجمال سينتهي به المطاف إلى أن يدفن في بيت واحد من رجال هذه القرية الذين لا يعرفون قيمته ولا يستطيعون خدمته، ولا يفرقون بين الماعز والنساء.

إن فكرة الزواج من امرأة أخرى يختارها بذوقه لا بذوق الآخرين فكرة تلح على ذهنه منذ اليوم الأول الذي رأى فيه وجه المرأة التي ساقتها الظروف لتكون زوجته والتي لم يرها إلا ليلة العرس، لم يجد في نفسه ميلاً إليها ولكنها كانت طيبة، مطيعة، تقضي له حوائجه، وتسهر على راحته، راضيةً بدور الخادمة، فلم يجد في نفسه قدرة على طلاقها ولم يجد في وقته وقتاً للبحث عن امرأة يختارها بنفسه لتكون زوجة ثانية، هرب من البيت وأعطى كل وقته وفكره للوظيفة،

ووجد في تقدير المسؤولين لعمله تعويضاً عن الحياة البيتية السعيدة، ولكنه كان دائماً يعرف أنه لا يريد خادمة تشاركه حياته وإنما امرأة، امرأة بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات، امرأة تمتلئ بالوعد والنداء وشهوة الحياة، وغيمة تهطل بغيثها على أعشاب عمره اليابسة فتعيد إليها نضارتها واخضرارها، امرأة تكون بحق وصدق شريكةً لحياته يسكن إليها، ويغترف الفرح من عينيها، ويستمتع كل مساء بالسياحة في حدائق جسمها الغناء، إنه في مقتبل العمر مايزال، لم يصل السن التي يصبح فيها الزواج من امرأة أخرى مسألة تبعث على السخرية والرثاء، العمر يمضي، والفرصة التي تأتي لا تعود مرةً أخرى، وشجرة الورد التي قرر حمايتها عليه ألا يتركها لعواصف الصحراء تعبث بها، يجب أن ينقلها إلى بيته ويحرص العمر كله على أن يكون بستانياً يعزق أرضها ويتعهدها بالعناية والرعاية إلى آخر العمر.

قال المتصرف يخاطب عامر اليتيم عندما ذهب مع المساء لزيارته:

- تعلم أن انتخابات مجلس النواب سيحين موعدها آخر هذا العام، وتعلم أن مولانا يهتم شخصياً بهذه الانتخابات.

استغرب عامر اليتيم أن يفتح المتصرف موضوعاً كهذا يعرف أن اليتيم لا يفقه فيه شيئاً، ولكنه وجد اسم الملك يذكر أمامه فأحس بالرهبة والخوف وبادر قائلاً:

- حفظ الله مولانا ورعاه.

واصل المتصرف حديثه:

- إنها انتخابات غير عادية هذه المرة، لقد ساء مولانا الملك ما يثيره

بعض الأعضاء من مشاكل في وجه العلاقات المتينة التي تربطنا ببعض الدول الصديقة، فأمر بألا لا يدخل البرلمان في دورته الجديدة إلا من أدرك مصلحة البلاد وقدمها فوق كل اعتبار.

ولكن عامر اليتيم لا يعرف بالضبط ماذا يفعل البرلمان، أو لماذا يكون مهماً إلى حد أن يغضب الملك، كان البرلمان في ظنه مجرد مجلس كغيره من المجالس التي يسمع الناس يتحدثون عنها مثل مجالس المحافظات أو مجالس الآباء أو غيرها، فلماذا يكون هذا المجلس وحده الذي يثير هذه الزوابع وتنشأ من حوله الخلافات، وتقام له صناديق الاقتراع، لابد أنه مجلس خطير إذن، ولكن لماذا يأتي المتصرف اليوم ويقحمه في أمر لا يعرف عنه شيئاً، سمع المتصرف يقول:

- إن رؤوساً كثيرة سوف تطير، والذين يتمتعون بالحصانة البرلمانية سوف يفقدون حصانتهم.

الأمر مازال لغزاً في ذهن عامر اليتيم فهو لا يعرف أيضاً ما هي هذه الحصانة التي سيفقدها أصحابها وما علاقتها بالبرلمان، ولماذا يجب لتلك الرؤوس أن تطير.

- إن القرية يجب أن تعرف كيف تختار من يمثلها.

لابد أن يقول شيئاً مجاملة للرجل، فقد ظل صامتاً في حين كان المتصرف ينتظر منه في كل مرة تعليقاً، تذكر أن للقرية والمناطق الصحراوية التي حولها نائباً يمثلها في البرلمان هو الحاج عبد الجليل فقال وكأنه عثر على اكتشاف:

- البركة في الحاج عبد الجليل، لقد تمتع دائماً بثقة الحكومة.

سمع المتصرف يقول :

- لقد أمر مولانا بتطعيم المجلس بالدماء الجديدة .

ماذا يعني هذا الكلام ، هل سيفقد الحاج عبد الجليل وظيفته ويعود إلى كتابة الأحجبة كما كان يفعل في زمن قديم ، ولكن لماذا تبدل الحكومة رجلاً من رجالها الأقوياء الذين كثيراً ما فرضت فوزهم في البرلمان بقوة الشرطة والسلاح .

- إن وزارة الداخلية تعد منذ الآن قائمة بأسماء المرشحين الحكوميين لكي ترفعها إلى الديوان الملكي ، ومطلوب مني أن أذهب إلى طرابلس لأقدم اسم المرشح الجديد عن هذه المنطقة .

ثم سكت قبل أن يضيف :

- وباعتبارك صديقاً أقدره وأحترم رأيه فقد جئت أستشيرك فيمن تراه صالحاً لهذه المهمة .

أسقط في يد عامر اليتيم ، ماذا عساه أن يقول ، أراد أن يضحك ، ولكنه خشي أن يعتبر المتصرف ضحكه هزءاً وسخريةً من كلامه ، أتراه يتكلم جاداً أم مازحاً ، ولكنه يسدل ملامحه في تجهم وخطورة تدلان على أن الأمر جد لا هزل فيه ، ظل صامتاً لا يعرف ماذا يقول ، استعجله المتصرف قائلاً :

- لم تقل رأيك .

- وهل لنا رأي معك ، إنك أنت الخير والبركة .

- ولكنك ابن هذه المنطقة وأكثر مني خبرة بأهلها ورجالها .

قال مستعطفاً ، مسترحماً ، كأنه يطلب العفو عن ذنب لم يقترفه :

- إنني كما تعلم قليل الدراية بالسياسة ولا أعرف غير الحاج عبدالجليل أهلاً لهذه المكانة.

- لقد مضى عهد الحاج عبد الجليل وآن له أن يتقاعد، ولقد فكرت طويلاً في الأمر ولم أجد أحداً أطمئن إليه وأحمل اسمه إلى الوزارة وأنا واثق كل الثقة من فوزه برضا الديوان الملكي لأنه ليس في سجله ما يعيب، وليس في حياته مأخذ، ولم يشترك في نزاع أو خصومة وصلت مراكز الشرطة غير رجل واحد.

بقي اليتيم ينتظر في شوق معرفة الرجل، وقد أحس بالارتباح لأن المتصرف قد حمل عنه العبء ولم يعد محتاجاً لرأيه في الموضوع بعد أن اهتدى إلى الرجل الذي يريد، رأى المتصرف صامتاً لا يذكر اسم الرجل، فسأل بدافع الفضول:

- من هو هذا الرجل ياسيادة المتصرف؟

- إنه أنت يا عامر اليتيم.

انتفض اليتيم كأن المتصرف ألقى في حجره ثعباناً.

- أنا؟!

قالها بعد أن وقف وصار ينظر إلى وجه المتصرف باحثاً عن علامة من علامات العته أو الجنون، رأى المتصرف الرعب الذي أصابه فقال:

- ظننت بأن الخبر سيفرحك.

لم تكن لدى اليتيم كلمات يعبر بها عن الشعور الذي انتابه في تلك اللحظة، وجد نفسه يقف ثم يجلس ثم يقف ويجلس مرةً أخرى

والمتصرف ينظر إليه متعجباً والطربوش يرتفع ويهبط مع وقوف اليتيم وجلوسه.

- أجلس يا رجل وقل ما الذي أصابك؟

قال اليتيم وهو يفتش في نفسه عن تفسير لهذا الرعب الذي اجتاحه:

- إنني لا أعي شيئاً من هذه الأمور، ولم أذهب إلى طرابلس ولو مرةً واحدة في حياتي، ولا أعرف كيف أفك الخط أو أركب الفرس البرلمانية، فكيف باللّه عليك تريدني أن أكون نائباً في مجلس النواب؟

تساءل المتصرف في حيرة:

- ولكن عن أي فرس تتكلم؟

ثم انفجر ضاحكاً.

- لعلك تقصد الحصانة، فهمت الآن، لا يهم، لا يهم.

عاد إلى شرح الأمر الذي غمض على اليتيم بعد أن فرغ من الضحك:

- إنها ليست وظيفة كتابية تحتاج لإتقان القراءة والكتابة، إنهم يضعونها شرطاً ونحن لدينا الوقت لأن نتغلب على هذا الشرط، أما عن النقاش والحديث داخل المجلس فإن أهم شروط النائب الناجح هو ألا يتكلم أبداً، أما فيما يخص ركوب الفرس..

وعاد يضحك من جديد قبل أن يواصل الحديث:

- فهذه مسألة سأشرحها لك فيما بعد، إنني ذاهب الآن، فلا تقفل الباب في وجه الخير الذي جاء يسعى إليك، إنك خير من يصلح لهذه المهمة، كل ما أرجوه أن يبقى الأمر سراً بيننا حتى يحين الموعد المناسب لإعلام الناس.

ثم قال وهو يتبع طربوشه الذي ارتفع إلى أعلى:

- دعني أتدبر الأمر ولن يكون إلا خيراً.

وقف بباب المربوعة يضع الحذاء في قدمه وهو يقول مستدركاً:

- بقي أمر بسيط لا أدري كيف أفاتحك فيه؟

لم ينتظر تعليقاً من عامر اليتيم الذي مازال غائباً عن وعيه، فمضى يقول:

- لعلك تعلم أن أم الأولاد تعاني من برد في الركب.

- شفاها اللّه وعافاها.

- ولقد صرت أشقى وأتعذب بسبب هذا المرض الذي منعها من الإيفاء باحتياجات البيت، ووجدت أن أسلم حل هو أن أتزوج امرأة أخرى تعتني بشؤوني وتنقذني من العناء.

كان المتصرف يتحدث هامساً، وكان اليتيم يجد صعوبة في تتبع كلماته، أدرك أن في الأمر شيئاً لا يرتاح إليه، حاول استحضار عقله الغائب ليواجه به الموقف وقال هارباً من الموضوع:

- أرجو أن تبقى لتناول العشاء.

- أشكرك، إنني على عجل كما تري، كل ما في الأمر أنني فكرت طويلاً في المرأة التي أبني بها، والعائلة التي أصاهرها،

وفي الحقيقة فإنني لم أجد في القرية من هو أجدر منك بربط أواصر المصاهرة بيني وبينه.

مرةً أخرى يجد عامر اليتيم نفسه يواجه مأزقاً حرجاً، قال في محاولة لكسب بعض الوقت:

- لقد فاجأتني بهذا الموضوع ولا أدري ماذا أقول.

- إنني جاهز لأي مهر تطلبه.

- أستغفر اللّه، فليس بيننا مهر، ولكن الفتاة كما تعلم لم تكمل دراستها ولم يأت بعد الأوان للتفكير في أمر زواجها.

- خذ ما شئت من الوقت للتفكير، وليبقَ الموضوع طي الكتمان حتى يتم الاتفاق وتعلن الخطوبة.

عرض الصفقة بصراحة ووضوح ودونما إضاعة وقت، جميلة مقابل مقعد في البرلمان، أي مهر آخر يريد أكثر من هذا المهر، إنه كثيراً ما تولى تزوير الانتخابات لحساب الحكومة ولمصلحة رجال لا يجد أحياناً في قلبه ذرة ميل نحوهم، ولكن الأمر يختلف الآن، ستكون الانتخابات القادمة أول انتخابات يخوضها بحب وحماس حقيقيين، لأنه سيكون شريكاً في جني الأرباح، وسيديرها لحسابه ولحساب الحكومة معاً.

خرج المتصرف وترك اليتيم حائراً، لم ينتبه حتى لإقفال الباب الذي أبقاه المتصرف مفتوحاً.

[١٣]

أمضى العيد أسابيع ثلاثة مشغولاً بالفكرة التي زرعها في رأسه الرجل البدوي، كان قد ذهب إلى عمله في المدينة، وبقي بعيداً عن القرية كل هذه المدة من أجل أن يختبر مشاعره نحو جميلة قبل أن يقدم على خطبتها، لعل ما ظنه حبّاً لم يكن إلا افتتاناً بامرأة باهرة الجمال، ما أن يبتعد عنها أياماً حتى يتلاشى افتتانه بها وتنسيه جمالها الوجوه النسائية الأخرى التي يلتقي بها، أكثر من التردد على مكتبة الجامعة التي لم يكن يزورها إلا لماماً لاستعارة كتاب من كتب المنهج، علّ لقاءه بالطالبات وحديثه مع عاملات المكتبة ينسيه ذلك الأثر الذي أحدثته جميلة في نفسه، ولكن جميلة ظلت هاجساً يملأ عليه نومه ويقظته، رؤيته للنساء الأخريات لم تزده إلا شوقاً إليها ويقيناً بأن جميلة هي المرأة الوحيدة التي تبعث في نفسه هذه البهجة وتجعله يقبل على الحياة وكأنه خلق خلقاً جديداً، أراد أن يذهب إلى ذلك البيت الذي أدار ظهره إلى البحر، أغلقوا بابه الرئيسي ووضعوا فوقه الأقفال وتركوه يغطيه التراب وأعشاب البحر اليابسة فبدا كأنه بيت مهجور، وفتحوا باباً خلفياً لزبائن الليل، ولكن نفسه المليئة بهذه العاطفة الجديدة عافت الذهاب لشراء لحظات من المتعة الرخيصة في

مغارة الحلم، ظل يقاوم كل يوم رغبته في العودة إلى القرية، وأرغم نفسه ارغاماً علي البقاء في المدينة حتى انقضى الأسبوع الثالث، جاء يوم الخميس وانتهت ساعات الدوام ووجد نفسه محشوراً مع عدد من الرجال في سيارة أجرة تنهب بهم الطريق إلى «قرن الغزال»، وفي ضحي اليوم التالي جاء يطرق باب بيتها، أطلت جميلة تنظر باندهاش إليه، إنها تعرف أن سؤاله عن والدها في المرة السابقة لم يكن إلا عذراً اختلقه لكي يراها وتعرف أنه يهرب من طريق والدها ويختفي عندما يسأل عنه، فما الذي جاء به الآن وهو يعلم إنه يوم عطلة ووالدها ينتظر داخل البيت لتخبره من الطارق، ظنت أن العيد قد أخطأ التقدير هذه المرة فقالت محذرة:

– إن أبي موجود بالبيت.

قال بابتسامة تطمئنها وتبدد القلق الذي غشى ملامحها:

– ما جئت إلا لكي أراه.

وأضاف هامساً يريد بسرعة أن يعرف رأيها فيما أقدم عليه:

– جئت في الحقيقة لأمر يهمني ويهمك أنت أيضاً.

ابتسمت عيناها ودخلت مسرعة لإبلاغ والدها دون أن تعطيه فرصة ليكمل ما أراد أن يقوله لها، خرج اليتيم ليجد العيد واقفاً يعلق عينيه بحدوة الحصان، كان قد نسي في غمرة المفاجآت التي ساقها إليه المتصرف أنه غاضب على العيد وأنه منذ أسابيع مضت كان يبحث عنه ليسأله مرةّ أخرى أن يبتعد عن طريق ابنته، قال بلهجة باردة:

– تفضل.

وسار يقوده إلى المربوعة، دخل العيد وقد أسعده أن يرى سورة

الغضب التي قابله بها في المرة الماضية قد فارقت وجهه، وسمعه يسأله عن سبب مجيئه قائلاً:

- خيراً؟

- ليس هناك إلا الخير.

بدا خجولاً متلعثماً لا يعرف من أين يبدأ، تمنى لو أنه استعان على قضاء هذه المهمة بأمه أو أحد أقاربه، رأى أنه لابد أن يقول شيئاً يبرر به مجيئه للخطبة بمفرده:

- لقد رغبت في أن أسبق والدتي إلى زيارتكم لكي أقف بنفسي على رأيكم في الموضوع.

يعرف لو أنه جاء بأمه ورفض اليتيم طلبها فستكون قطيعة بين العائلتين لا أحد يدري إلى أي أمد تدوم، أدرك عامر اليتيم ما يرمي إليه العيد، ولكنه لم يشأ أن يساعده، إنه ذاته بحاجة إلى من يعينه على الخروج من هذا المأزق الذي وضعه فيه المتصرف، قال العيد:

- لقد فكرت أكثر من مرة في الزواج من عائلات تجاورني في المدينة وتربطني بها أمتن العلاقات، ولكنني في الحقيقة كنت أتراجع في اللحظات الأخيرة لأنني أعرف أن زوجة اختارها من بنات قريتنا ستكون أقدر على صون شرفي ورعاية بيتي والعطف بوالدتي أكثر من أية امرأة أخرى.

حمد اللّه الذي هداه إلى هذه المقدمة، إنه لم يفكر يوماً في الزواج من المدينة، ولا يعرف جيراناً غير مجموعة العزاب الذين جاءوا نازحين من الأرياف مثله، يؤجرون غرفاً في فندق رخيص بالمدينة القديمة يضم مخزناً لقوارب الصيد ويمتلئ بالرطوبة ورائحة

السمك، ولا يعرف بيوتاً غير «مغارة الحلم» التي تديرها امرأة كانت في صباها خليلة للحاكم الإنجليزي، اهتدي إليها أخيراً ووجد عند نسائها علاجاً للسأم والأرق ووسيلة لحرق ما لديه من مدخرات، أسرع قائلاً قبل أن بجف حلقه ويفقد قدرته على الكلام:

- ولذلك فقد جئت راغباً في طلب يد كريمتكم.

كان عامر اليتيم يجلس صامتاً وهو يراقب العيد يغالب خجله وارتباكه، احمرّ وجهه وعرقت أصابع يديه وهو يستعين بها في شرح كلماته، ارتدى الملابس الوطنية وبدت قصته من تحت الطاقية تنبئ بنعومة شعره وسواده الداكن، لاحظ انسجاماً بادياً في ملامح وجهه الطفولي الذي أضفى عليه كدر وعناء المهمة التي يقوم بها براءة جعلت اليتيم يحس بالعطف نحوه، ويدرك بينه وبين نفسه أنه أكثر شباب القرية جدارة بها، لا يزيد عليها في العمر بأكثر من ست أو سبع سنوات، ويحظى بحب الناس وتقديرهم لاجتهاده وعصاميته، ولكن هناك اعتبارات أخرى لا يستطيع اليتيم أن يغض الطرف عنها، ليس أقلها شأناً الاتفاق الذي جاء يعرضه عليه سيد هذه القرية، إنه لايريد أن يقف موقف المفاضلة بين المتصرف والعيد، فهذا ليس إلا مأزقاً جديداً يأتي هذا الفتى ليضعه فيه، لقد وجد العيد يدخل قلبه ولاشك أن لابنته ميلاً نحوه ولكن الإنسان لا ينال إلا ما كتب له، ولن يرى إلا ما سطرته الملائكة فوق جبينه، وهو لن يقول له شيئاً يغضبه، يؤذي مشاعره أو يكسبه عداوته، قال مجاملاً:

- أعرف محبة الناس لك، وما أنا إلا واحد من أهل هذه القرية، أحب ما يحبون وأكره ما يكرهون.

وبحث عن أي عذر يصرف به العيد:

- ولكنك يا ولدي تقيم بعيداً عن القرية وأنا أكره أن أرى ابنتي تسكن بعيداً عني، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى . .

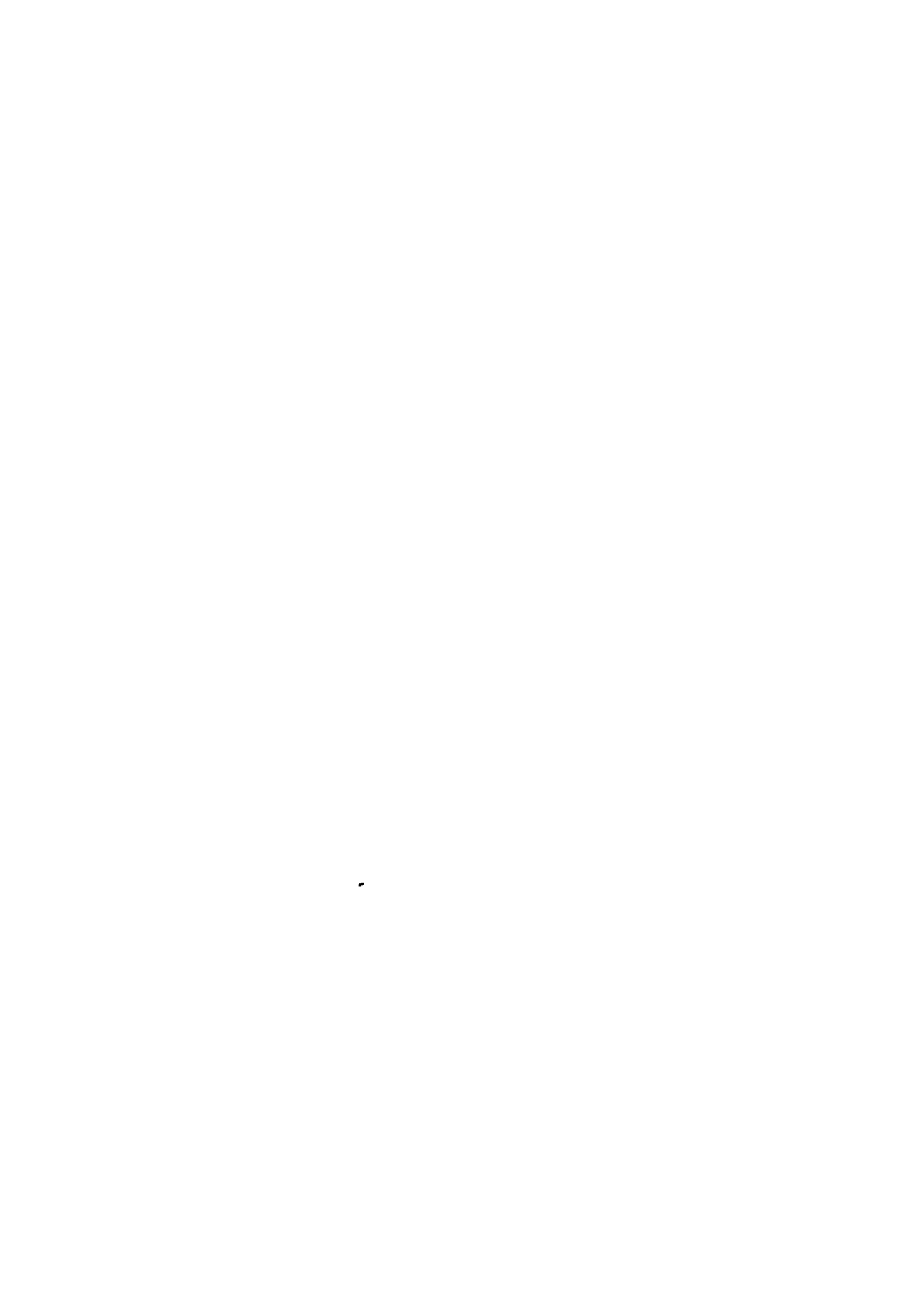
قاطعه العيد قائلاً :

- سأسعى بعون الله للحصول على الانتقالة .

- انتظرني قليلاً، ثم إنني لا أريد أن أشغلها بأي شيء آخر غير دراستها، وسأرجئ النظر في مثل هذه المواضيع إلى أن تكمل دراستها وتأخذ الشهادة .

ثم استأذن لأن موعد صلاة الجمعة قد أزف، وسيكون بعد قليل في طريقه إلى المسجد .

لم يجد العيد في كلام الرجل شيئاً يوحي برفضه، حتى وإن أرجأ النظر في الأمر فقد قال ذلك كله بمودة أسعدته، لقد ترك الباب مفتوحاً وعليه الآن أن يجتهد في الحصول على الانتقال إلى وظيفة بالقرية، والعودة بعد ذلك إلى اليتيم مجدداً الخطبة . ولم يجد حرجاً عندما عاد إلى البيت من كتابة رسالة إلى جميلة يخبرها فيها بما حدث ويضع الرسالة بين صفحات كتاب قصصي يرسل به مع طفل إليها .



[١٤]

ها هو العام الدراسي يتراجع ليسلمها بعد شهرين إلى موسم الامتحانات حيث تلوح تلك الجائزة بإطارها المزخرف، مليئة بالإمضاءات والأختام تحمل اسمها وقد كتب بحروف كبيرة أنيقة «جميلة عامر اليتيم» مقروناً بكلمة معلمة. شيء يستحق عناء السنين ويملأ القلب شوقاً ليوم الانعتاق من تلقي الدروس والانكباب على كتابة الواجبات المنزلية، لتبدأ بعد ذلك حياة جديدة مثيرة لم تعرف مثلها أية امرأة من نساء القرية، حيث هي التي تعطي الدروس وتكلف الآخرين بالواجبات، وستدخل تاريخ التعليم باعتبارها إحدي الرائدات في «قرن الغزال»، هكذا إذن يصنع التاريخ وتصبح صدفة كهذه سبباً لعقد ألوية البطولات ومنح الأوسمة في المناسبات الرسمية كما حدث مع بعض المدرسين في القرية. إن ما يبعث في قلبها الخوف، ليس الامتحانات، فقد استعدت لها، ولكنها تلك العطلة التي تعقبها بأيامها القائظة الطويلة وصيفها المحمل بالغبار والعرق والقرف والذباب ورياح القبلي ورائحة الرطب الفاسد، أسوأ فصول العام وأكثرها بؤساً وقسوةً، حيث لا مكان آخر تخرج إليه سوى الطواف حائرة بغرف البيت لا تدري ماذا تفعل بنفسها، لاشك

أن الذين اخترعوا هذه العطلة أرادوها أن تكون موسماً للراحة والاستمتاع بمباهج السفر والسياحة، ولكنهم لو عرفوا ما تفعله عطلتهم بطالبة من طالبات «قرن الغزال» لعدلوا عنها ولجعلوا العام الدراسي اثني عشر شهرا رحمة بها. ها هو التوتر الذي يثيره اقتراب الامتحانات قد بدأ يفعل فعله، تصحو مبكرة وتنام متأخرة، وتجلس في غرفتها تنتقل من كتاب إلى كتاب ومن كراس إلى آخر وكأنها تريد أن تحفظ المنهج كله في يوم واحد، ثم فجأة تكتشف أن الغرفة قد فرغت من الهواء وأنها تحس بالاختناق، فتسرع إلى فناء البيت بحثاً عن نسمة هواء وترفع رأسها فيدهشها منظر السماء الفسيحة الزرقاء، لقد دست رأسها في الكتب وحصرت نفسها بين جدران البيت والمدرسة حتى نسيت لون السماء، ولقد رأتهم يضربون حولها حصاراً في البيت لا تدري كيف بدأ ولا متى ينتهي، منعوها من زيارة أمي سعيدة التي صار بيتها الآن منطقة محرمة بعد أن وصلت إلى أسماع أهلها الشائعة التي تقول بأنها تعلمها السحر، وهي لا تعرف بيوتاً أخرى تذهب إليها، أما الأسواق والشوارع وغابة النخيل والجبال والبراري فقد صادرها الرجال منذ قرون سحيقة وصارت حكراً عليهم لا تفكر هي ولا أية امرأة أخرى في الاقتراب منها، ومشوار الذهاب إلى المدرسة والعودة منها صار واجباً ثقيلاً، تمضي في الطريق وهي تدس رأسها في صدرها وتمنع نفسها عن الالتفات شمالاً ويميناً لكي لا تلتقي بالعيون التي تبحث في فضول عن العلامات الساحرة في ملامحها، ولقد وجدتهم في المدرسة يعاملونها بحذر واحتراس كأن احتمال أن تكون حقاً ساحرة احتمالاً قابلاً للتصديق وتستغرب أن تري الجهل والخرافة يتسللان إلى بيئة تحصنت بالعلم مثل المدرسة فتحس بأنها غريبة عن كل ما حولها وتضيق أحياناً

بجمالها لأنها تعرف أنه مصدر هذا الإحساس بالغربة الذي يداهمها وسبب هذه الموجات من الحسد والشائعات التي تركض كقطعان الذئاب نحوها، جاء الطفل بالكتاب الذي أرسله العيد وقرأت رسالته، كانت قد أدركت من كلماته عندما جاء ليرى والدها أنه إنما جاء ليخطبها وانتظرت طوال اليوم أن يرسل والدها بأمها تسألها رأيها، كان يحرقها الشوق لأن نعرف مادار بينهما وأقلقها أن يمر اليوم دون أن تفاتحها أمها بشيء، حتى ذهب في ظنها أن والدها قد رفض العيد دون أن يأخذ رأيها، أسعدها وهي تقرأ الرسالة أن والدها قد أبقى الباب مفتوحاً ومعتذراً بإنه لا يريد أن يشغلها عن دراستها، لم تبادر بكتابة رد على رسالته فهو لم يكتبها لينتظر رداً، وهي لا تريد تشجيعه على إرسال المزيد منها لأنها تعرف أن مثل هذه الأمور لن تبقى سراً، جاء الكتاب في الوقت المناسب يمنحها فرصة للهروب بضع لحظات من روتين الحياة وثقلها، كان كتاباً قصصياً مطبوعاً طباعة أنيقة فاخرة، بعكس الكتب القديمة المهترئة التي تضمها مكتبة المدرسة الصغيرة، أغلبها قصص دينية تحكي حياة الأنبياء وتراجم القادة المسلمين وكتب في الأدب والتاريخ ودواوين الشعر العربي القديم، ولكنها لأول مرة تقرأ قصة حديثة تروي موضوعاً معاصراً، وبنهم قرأت القصة التي كانت مليئة بالمشاهد والمغامرات العاطفية، رجال ونساء يطارحون بعضهم بعضاً الغرام في الحدائق والمقاهي وعلي شواطئ البحر، وكأن حياتهم قد خلت من كل شيء آخر سوى الحب، لابد أنه شيء مبهج وجميل أن يحب الإنسان، وأن يجد في الحب شيئاً يملأ عليه حياته ويغنيه عن كل شيء آخر.

وتذكرت العيد.

لم تكن قد رأته إلا مرةً واحدةً منذ أعوام مضت، كان عائداً لتوه

من المدينة ومن حوله بعض الأطفال ينادونه باسم العيد، عرفت فيما بعد أنهم يطلقون عليه هذا الاسم لأنهم يفرحون بقدومه كما يفرحون بقدوم العيد.

ثم لم تره بعد ذلك إلى أن جاءت إليها أمها منذ أسابيع مضت تنقل إليها ما دار من حديث بينها وبين والدها بشأن علاقة يتكلم عنها الناس ويكتبون حولها الشعر تربط بين العيد وبينها، لقد أقنعت زوجها بأن الأمر مجرد إشاعة كاذبة، وكفتها شر الغضب الذي ألم به، وتسألها إذا كان في الأمر شيء تخفيه عنها، طمأنت أمها بأن ما قالته لوالدها كان صحيحاً، وجلست تفكر في هذا الرجل الذي جعلوه ودون أن تعلم حبيباً لها، حاولت أن تستعيد صورته فلم تجد شيئاً من ملامحه باقية في ذاكرتها، وعندما جاء بعد ذلك يطرق باب البيت بحجة أنه يريد تهنئة والديها بالبيت الجديد عرفت أنه العيد وضحكت في نفسها من هذا العذر الذي اختلقه لرؤيتها فالبيت الجديد صار الآن قديماً، وأدركت أن شائعة ارتباطه العاطفي بها هي التي أثارت في نفسه الفضول بمثل ما أثارت فضولها، كانت تتصوره ولداً ممن عاشوا طويلاً في المدينة فأذابت احتشامهم ومنحتهم طلاوة في الحديث وقدرة على الاقتحام واللعب بعقول النساء فأرادت للوهلة الأولى أن تأخذ حذرها منه، أدهشها وهي تقف تتأمله وتبحث عن سر اختيار ذلك الشاعر له ليكون حبيبها من بين كل الناس الآخرين، أن تري وجهاً وديعاً لم تفارقه طبيعته القروية، ورجلاً يتحدث بصوت هامس ويتحاشى النظر في عينيها كأنه خجول من هذا العذر الذي لفقه تلفيقاً، أحست بالعطف نحوه وهي ترى خجله وتردده وتري ذلك الأسى الذي يسكن عينيه العسليتين وكأن وراءهما سراً، ثم جاء في زيارته الثانية وقد اختلق عذراً جديداً فأدركت أنه

صار يهتم بها وأن عليها أن تفتش في نفسها إذا كانت تبادله ذات الاهتمام، رأته وقد تحرر من ارتباكه وكأنه أحس بالإلفة معها فرأت أنها أيضاً ألفت إليه وكأنها تعرفه منذ زمن طويل، عندما انتهى اللقاء على الباب وجدت نفسها تمد إليه يدها تودعه كأنها تريد بهذه الملامسة بالأيادي أن تتعرف عليه أكثر وأن تستمع إلى النبض الذي انتقل من قلبه إلى يده وتختبر بهذه المصافحة مدى قوة العلاقة التي تنشأ الآن بينهما، رأته يبقي يدها في يده، كانت هذه أيضاً رغبتها، أن تبقي هي أيضاً يدها في يده، أو لعلها ليست رغبتها وإنما رغبة الدم والخلايا والأنسجة في تلك اليد التي أحست بدفء الدم والخلايا والأنسجة في اليد الأخرى فأسعدها اللقاء، لعل هذا ما تسميه كتب العلوم كيمياء البدن الإنساني تعبر عن تفاعل عناصرها بالعناصر التي تقابلها، ولكنها انتزعت يدها من يده، بسرعة وقسوة انتزعتها، وكأن هذه الرغبة إثم يجب أن تحاربه في نفسها. إنها لا تعرف شباناً آخرين تختبر بعلاقتها بهم والحديث إليهم كنه العلاقة التي تربطها بالعيد، ولكن الأغاني التي تسمعها بالمذياع لا تذكرها بأي رجل آخر غيره، وهذا الكتاب الذي تقرأه الآن لا يوقظ في قلبها إلا ذكرى اللحظات التي رأته فيها.

- نعم، نعم، هذا هو الحب يا ابنتي.

قالتها أمي سعيدة وهي ترى جميلة تفتح لها الباب وتعانقها بشوق وحرارة، جاءت تتكئ على عكازها ومن خلفها كلبها الذي انطلق مهرولاً يتسلق جسم جميلة ويهز ذيله طرباً بلقائها، جلست أمي سعيدة تعبث بحبات المسبحة وتخاطب أم جميلة:

- لقد تخلفت جميلة عن زيارتي فجئت أستطلع السبب.

قالت الأم وهي تولع الموقد لإعداد الشاي:

- مرحباً بك دائماً .

ثم أضافت قبل أن تتورط ابنتها بقول شيء تعرف منه المرأة العجوز السبب الحقيقي الذي جعلهم لا يسمحون لجميلة بزيارتها :

- جميلة في صحة وعافية ، ولكن همّ الامتحانات القادمة شغلها عن كل شيء آخر .

- أسعدني أن الخطّاب قد بدأوا يتزاحمون على باب بيتها .

لم تكن جميلة تعرف أن هناك من تقدم لخطبتها غير العيد ، نظرت إلى أمها غاضبة لأنها تخبئ عنها شيئاً كهذا لا يهم أحداً بقدر ما يهمها ، لكن الأم لم تنتبه لنظرة ابنتها ، لقد أقلقها ما قالته الزنجية العجوز ، من أين لها أن تعرف أن هناك من جاء لخطبة ابنتها ، تعرف الأم قدرتها على ضرب الودع وخط الرمل فهل هي مجرد تكهنات جاءت تبحث الآن عن تأكيد لها؟ رأت أن من واجبها أن تقول شيئاً تقفل به هذا الموضوع :

- ما أغنانا عن فتح باب كهذا وهي لاتزال تلميذة لم تكمل دراستها .

- لا تخبئ عني شيئاً فأنا أيضاً أمها .

تتذكر الأم الآن أن أمي سعيدة هي التي أصرت على تسميتها «جميلة» ، كان من رأيها ورأي نساء كثيرات حضرن مولدها ورأين جمال المولودة وبياض بشرتها أن تسمى «الشينة» ليكون هذا الاسم القبيح الذي يناقض شكلها تميمة تمنع عنها الإصابة بالعين وترد عنها حسد الحاسدين ، ولكن أمي سعيدة أقنعتهم بأن هذا الاسم سيكون مصدر تعاسة لها عندما تكبر ، واختارت لها اسم جميلة ليكون اسماً لائقاً بها ، وها هي ابنتها الآن تحصد نتيجة هذه التسمية .

قالت ترد على اتهام أمي سعيدة :

- معاذ الله أن نخبئ عنك شيئاً ، تعرفين أن ليس هناك من شباب البلدة من يكره أن تكون من نصيبه ، ولكن والدها لا يريد فتح هذا الباب الآن .

- لقد جئت في الحقيقة أحذره من أن يقبل عريساً يندم في المستقبل على قبوله .

- من هذا العريس الذي تقصدين؟

- المتصرف ولا أحد غيره .

- المتصرف؟

قالتها جميلة باندهاش واستنكار ، لماذا لم تعرف به إذا كان حقاً قد جاءها خاطباً ، كيف يخبئون عنها مسألة كهذه ، أرادت أن تبدأ معركة مع أمها ، و نظرت إليها فرأتها تستقبل الخبر باندهاش مثل اندهاشها ، لم تفاجأ الأم باسم المتصرف ، ولكن الذي فاجأها هو كيف وصل الخبر إلى أمي سعيدة ، تعرف أن زوجها حمل عبء اتخاذ قرار في هذا الموضوع لأيام طويلة ، لا تكاد تنقضي ليلة دون أن يسألها أن تبحث معه عن حل لهذا المأزق ، إنها لا تريده زوجاً لابنتها ، لأنها تعرف أن هناك امرأة أخرى بأطفالها ستكون ضرة لها ، وابنتها ليست بائرة إلى حد إعطائها لرجل متزوج مهما كان مركزه ، ناهيك عن فارق السن بينهما وعن كونه غريباً عن القرية لن يبقى بها إلا عاماً أو عامين ثم ينتقل بها إلى برار أخرى ، ولكن زوجها يخشى بأس المتصرف وسلطته . إن اليتيم رجل لا أهل له ولا قبيلة تعينه على مقارعة الشر ، والرجل الذي جاء خاطباً إنما هو رجل الحكومة ،

يسجن من يشاء ويطلق سراح من يشاء، فمن يقوى على الوقوف في وجهه.

قالت أمي سعيدة وقد أدركت سر صمتها:

- أعرف أنكم تخافونه، ولكن لا تنسي أن وراء كل كبير من هو أكبر منه.

قالت الأم في انكسار وكأنها تعتذر عما حدث:

- وما حيلتنا نحن تجاه رجل بيده كل مقادير القرية.

أدركت جميلة من كلام أمها أن هناك أمراً مبيتاً لتزويجها منه، وقفت غاضبة تصيح في وجه أمها:

- من أين لكم الحق في تقرير شيء كهذا بالنيابة عني، إن عليكم أن تقتلوني أولاً قبل أن أقبل بشيء كهذا.

جاء من يطرق الباب، وجدتها الأم فرصة لأن تهرب من هذا الموقف الذي تأزم الآن، خرجت لترى الطارق، وانتهزت أمي سعيدة فرصة غيابها لتقول هامسة في أذن جميلة:

- لعلك لا تعلمين أن العيد أيضاً جاء لوالدك خاطباً.

هزت جميلة رأسها بالإيجاب والغضب مازال يغطي ملامحها.

- إنكما تليقان ببعضكما. وسأعمل جهدي كي أمنع هذا الزواج الذي أرادوه لك.

عادت الأم ومن ورائها دخل عامر اليتيم مرحباً بالمرأة الزائرة:

- ما هذه الرياح المباركة التي جاءت بك إلى نا.

رأى ابنتـه تخـرج غـاضبـة تلعن الحظ الـذي جـاء بهـا إلى الدنيـا فتساءل عن سبب ثورتها، قالت زوجته وهي تمد له طاسة الشاي:

– لقد جاءت سيرة المتصرف وخطبته لها.

إذن فالأمر لم يعد سراً كما كان يظن، أدرك أن لأمي سعيدة ضلعاً في إثارة الموضوع فقال مدافعاً عن نفسه:

– ومن يكره مصاهرة رجل له مثل هذه المكانة.

خاطبته أمي سعيدة بلهجة محملة بالوعيد:

– أرجو ألا يكون ما تناهى إلى سمعي صحيحاً يا عامر اليتيم.

لقد وجد عندها دائماً بيتاً مفتوحاً وطعاماً يشبع جوعه عندما كان صبياً لا يجد مأوى ولا عملاً، قال وهو يتجنب النظر إليها:

– لقد فكرت طويلاً في الموضوع ورأيت أنني لن أجد لابنتي زوجاً أفضل منه.

– اتق اللّه في ابنتك يا عـامـر، أتبيـعـهـا بمنصب من مناصب الحكومة.

من أين لهذه الحيزبون التي حضرت طوفان نوح أن تعرف أن في الأمر مناصب وصفقات ولكن الخيار صعب أيتها العجوز التي قضت عمرها في الخرائب والظلام، أما الفقر والسجن ولعنة الحكومة وأما الجاه والمال والنائب المحترم الذي يخشي بأسه الوزراء أنفسهم، بل قد يصبح هو نفسه وزيراً، لن يكون أول وزير في حكومة مولانا لا يعرف القراءة والكتابة، اغمضي عينيك للحظة واحدة وضعي نفسك في مكاني، من أين سأجد لابنتي زوجاً يغرقها ويغرقني في النعيم

الحكومي، ولكن من أين لامرأة مثلك تعودت على معاشرة الدجاج والكلاب وعاشت على ضرب الودع والغناء في الأعراس أن تعرف قيمة المجد الذي يلقاه من يمشي في ركاب الحكومة، ثم لماذا يعطي هذه المرأة فرصة للتدخل في حياته وإفساد الخطط التي ارتضاها لابنته، إذا كانت قد عطفت عليه يوماً فقد أعطاها بعد ذلك أكثر مما أعطته، قال بلهجة صارمة:

- إنني أدرى بمصلحة ابنتي، لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه.

نهضت أمي سعيدة واقفة، أخذت عكازها ومسبحتها وخرجت غاضبة ومن خلفها كلبها ينبح غاضباً لغضبها، ارادت زوجة اليتيم أن تسترضيها ومدت يدها بالشاي تسألها البقاء، ولكن أمي سعيدة خرجت وهي تلوح بعصاها منذرة متوعدة:

- ستندم يا عامر اليتيم، ستندم يا عامر اليتيم.

وقف اليتيم بالباب لحظة يشيع بنظراته المرأة الغاضبة، إنه لم يرتكب ذنباً يستحق الندم، فلماذا إذن تبعث كلماتها رجفة في جسمه كله، لقد كان في نيته أن يذهب إلى المتصرف اليوم أو غداً يبلغه بالموافقة على الخطبة ويتفق معه على تحديد موعد إعلانها، ولكنه الآن بعد أن جاءت هذه المرأة تثير الموضوع أمام ابنته، رأى أن يمنح نفسه مهلة أطول لعل هذه العاصفة تهدأ ولعل ابنته التي أغضبها أمر هذه الخطبة تلين وترضى.

[١٥]

مهمومة، حزينة، ذهبت جميلة في اليوم التالي إلى المدرسة، لم يستطع كل هذا البهاء الذي يفيض به وجهها أن يخفي الكدر الشديد الذي غطى ملامحها، جلست إلى مقعدها واجمة، غير قادرة على أن تسمع درساً، أو تكتب سطراً واحداً بلا أخطاء، لاحظت المدرسة المصرية التي جاءت تقدم حصة اللغة العربية والدين ذهولها وكثرة أخطائها، انفردت بها بعد انتهاء الحصة تسألها عن السبب، لم تخبرها جميلة بشيء مما حدث، خشية أن يتحول إلى وقود جديد يلهب المخيلة التي تنسج حولها القصص وتصنع الشائعات، قالت وهي ماتزال في شرودها:

- ليت الناس يتركون الإنسان في حاله.

تعرف المدرسة أن هذا مطلب يتعذر تحقيقه، وأن العلاقة بين جمال كهذا الجمال وبين البيئة التي حوله ستظل دائماً علاقة مليئة بالتوتر والصراع، إنهم لن يتركوه إلى حالة لأن هذا الجمال لن يتركهم، فهو يتحول إلى مركز جذب يرغمهم على الاهتمام به، سألتها بلهجة حانية ألا تشغل بالها بشيء غير دراستها التي أوشكت على الانتهاء والحرص على الفوز بالشهاة التي ستكون سلاحها في معارك الحياة.

ولكن صوت الحكمة الذي تتحدث به المدرسة لم يكن وحده يكفي لإزاحة هذه الغمامة التي تملأ صدرها، إنها لا تجد من حولها أحداً تستطيع أن تفضي إليه بهمومها، جلست في الفصل تستعرض وجوه زميلاتها، لقد اتسعت المساحة التي تفصلها حتى عن أقرب الطالبات إليها، رأت ابنة المتصرف تتحرك من مقعدها وتسير باتجاهها تسأل شيئاً لم تتبين جميلة إذا كانت تقصدها به أو تقصد طالبة بجوارها، لم تنتبه إلى كلماتها وإنما انتبهت إلى تشابه الملامح بينها وبين والدها، تصورتها للحظة سريعة أنها المتصرف قادماً نحوها ليخنقها، قامت من مقعدها ترد شرَّه عنها، تراجعت الفتاة مذعورة وهي ترى جميلة ودونما سبب تقف وتدفعها بكلتا يديها في صدرها حتى كادت تسقط فوق الأرض، اعتذرت لها وهي تحس بالخجل من نفسها وترى جدران الغرفة تزحف نحوها فتغمض عينيها وتنادي العيد أن يأتي قبل أن تسحقها الجدران ويأخذها بعيداً عن المدرسة والبيت والقرية كلها وبعيداً عن هذه الهواجس التي تدور كالزوابع السوداء في رأسها.

انتهى اليوم الدراسي وخرجت لتجد أمها واقفة بانتظارها أمام بوابة المدرسة لكي ترافقها في طريق العودة إلى البيت، لقد سألتها مراراً أن تتركها تذهب وتعود بمفردها كما تفعل بقية زميلاتها، قالت بهمس غاضب:

- إنك تحرجينني أمام بقية البنات عندما تعاملينني كأنني «عيلة صغيرة».

- إن خوفي عليك وأنت كبيرة بهذا الطول، أكثر من خوفي عليك وأنت طفلة.

وما إن سارا مسافة قصيرة حتى تناهى إليهما صوت الدرويش صائحاً :

- جميلة ، يا ويلي من جميلة .

رآته الأم قادماً يعدو نحوهما ، أدركت مذعورة أنه يريد بابنتها شراً ، تناولت حجراً ألقمته به ، تدارت جميلة تحتمي بأمها ، ارتطم الحجر برأسه وتدفق الدم غزيراً من جبينه ، ازداد هياجاً وازداد العواء الذي يصدر عنه حرقة والتياعاً ، اندفع كأنه كرة من اللهب والدخان نحو جميلة ، أطاح بها أرضاً ، أطلقت أمها الصراخ تطلب النجدة ، أمسكت بجلبابه تحاول أن تمنعه عن ابنتها ، تمزق الجلباب في يدها مظهراً عري الدرويش الذي ارتمى فوق جميلة وصار يمزق عنها ثوبها وهي باكية تدفعه عنها بلا جدوى ، وتطبق ساقيها في تشنج لكي لا يتمكن منها ، تحول إلى كتلة من الهيجان كأنه قطيع من النمور الجائعة ، يتطاير الزبد من فمه وهو يعوي باسمها وينشب أظافره في لحمها ويحاول أن يصل بأسنانه إلى صدرها وقد سالت الدماء تغطي وجهه كله ، تعاون الرجال الذين هرولوا من الأماكن القريبة لإزاحته من فوقها قبل أن يتمكن من اغتصابها ، أوسعوه لكما وضربا ولكنه ظل يقاوم ويحاول أن يطولها بذراعيه وأن يعود للارتماء فوقها ، سالت الدماء التي تصببت من جبينه فوق وجه جميلة وصدرها وثيابها ، ساعدوها على النهوض وهي تشهق وتبكي وأمها تندب وتلطم وجهها كما تفعل النساء في المآتم ، والدرويش يتلقى الضربات ويصرخ مردداً اسمها ، انطلق من بين أيديهم يجري ويعوي ككلب أصابه السعار ، جرى نفر منهم وراءه حتى دخل المقابر واختفى عنهم ، أعارت الأم لحافها إلى جميلة التي وقفت ترتجف وتبكي ،

تغطي وجهها بإحدى يديها خجلاً وتحاول باليد الأخرى أن تلملم الثوب الذي تمزق فوق جسمها لتستر به عري صدرها، ملأت الخدوش وجهها وعنقها وذراعيها، تمزق شعرها وتعفر بالدم والتراب وتناثرت خصلات منه فوق الأرض، وضعت الأم اللحاف فوق ابنتها وصعدت بها إلى السيارة التي جاءت تقلهما إلى مستوصف القرية.

[١٦]

لمدة أربعة أيام كاملة ظلت جميلة تقفل غرفة نومها على نفسها ولا تغادرها أبداً ، في اليوم الثاني جاءت أمها تطرق بابها وعندما لم تسمع منها رداً أدركت أن ابنتها مازالت تعاني من آثار المحنة التي تعرضت لها فتركتها تنام وتستريح دون أن يثير الأمر ريبتها ، وانتظرت أن ترى في صباح اليوم الثالث ابنتها قد خرجت تغتسل وتطلب إفطارها ولكنها رأت الباب لايزال مغلقاً والرتاج محكماً من الداخل فظلت تترك زائراتها وتذهب لتطرق الباب على ابنتها طرقاً خفيفاً لكي لا تثير فضول النساء الزائرات وعندما لا تسمع رداً تعود إليهن ثم لا يطاوعها قلبها فتذهب لتطرق الباب مرةً أخرى بأكثر إلحاحاً وقوة ، انقضى النهار فأدركت أن في الأمر شيئاً، جاءت ومعها نساء أخريات يطرقن الباب بعنف فلا يسمعن صوتاً أو حركة ، جلست أمها أمام باب الدار طوال الليل تبكي وتندب ابنتها فلعلها انتحرت أو ماتت كمداً ، لم تشأ أن تكسر الباب قبل أن تخبر والدها ، انشغلت بمأساتها وبالنساء اللائي جئن لزيارتها ورأته مشغولاً بزواره فلم تشأ أن تخبره بنوم ابنته وغيابها المريب داخل غرفتها ، جلست أمام الباب لعل معجزة تجعل جميلة تسمع نداءها وتفتح لها الباب لأن

معنى أن تلجأ لكسره لا يحتمل إلا تفسيراً واحداً يملأ القلب هلعاً ورعباً، وباكية متشنجة تطرق الباب هاتفة باسم ابنتها تلهج بالأدعية وتستجير بسيدي أبي قنديل أن يأتي لنجدتها، في اليوم الرابع لم تستطع أن تخفي الأمر أكثر من ذلك على والدها، رأته يأخذ الفأس ويأتي منزعجاً لتحطيم الباب، أدركت أن القضاء قد نزل ووطنت نفسها على استقبال الخبر البشع ووقفت بعيداً عن الباب باكية تراقب زوجها ومن حولها عدد من نساء الجيران يشاركنها البكاء وقد بات يقيناً في أذهان الجميع أن جميلة قد صارت الآن جسداً بلا حياة، وتهاوت طرقات الفأس على الباب، وقبل أن يتحطم تماماً بحيث يمكن دفعه والدخول إلى الغرفة، رأوا الأكرة تدور وسمعوا يداً تدير الرتاج الداخلي، توقف اليتيم عن ضرب الباب وبقي ينصت إلى الحركة الصادرة من داخل الغرفة، ثم رأوا الباب ينفرج وجميلة تطل بعينين أثقلهما النوم، تسأل في استغراب عن سبب هذه الضجة، رمى اليتيم الفأس وذهب، ارتمت الأم فوق صدر ابنتها تحتضنها وتقبلها دون أن تتوقف عن البكاء، رأت جميلة التساؤل في أعين النساء المتحلقات حولها فأخبرتهن بأنها كانت نائمة ولم تسمع نداءهم ولم توقظها إلا طرقات الفأس على الباب، سألتهن أن يذهبن لأنها تريد أن تعود إلى النوم مرةً أخرى، بدت مندهشة وهي تسمع أمها تقول بأنها نامت أربعة أيام كاملة، وأن ضيوفاً من زميلاتها في المدرسة يترددن عليها كل يوم بغية رؤيتها، استأذنت لحظات لكي تغتسل وتمشط شعرها وتتناول أفطارها، ارتدت أزهي فساتينها وخرجت ترحب بزائراتها، بعض اللاتي أردن التعبير عن مواساتهن لها أحسسن بالحرج وهن يشاهدنها مرحة مبتسمة، تقابلهن بوجه هادئ وادع لا أثر عليه للمحنة التي تعرضت لها سوى شحوب خفيف من

أثر النوم الطويل زاد من حـدة الألق الذي تشع به عـيناها، أرادت إحدى النساء أن تأتي على ذكر الحادث ولكن جميلة رمتها بنظرة غاضبة أسكتتها عن الكلام، كان واضحاً أنها لا تريد لأحد أن يذكر تلك التجربة المهينة أمامها، كانت النظرة التي بدت في عينيها شيئاً جديداً لم يعهدنه في جميلة من قبل، وتجنباً لأي إحراج فقد دار الحديث حول الامتحانات التي يحين موعدها بعد أسابيع قليلة، وأبدت بعض الطالبات استعدادهن للمجيء إليها بالواجبات المنزلية ومذاكرة الدروس معها في البيت إلى حين موعد الامتحانات، استغربت جميلة أن تسمع كلاماً كهذا، وكأنها امرأة عاجزة يثير ذهابها إلى المدرسة الخوف والإشفاق، ونظرت إليهن متسائلة:

- ولكن لماذا لا أذهب إلى المدرسة؟

قالت ذلك في براءة وعفوية، وكأنها نسيت ما حدث لها عند عودتها من المدرسة منذ أربعة أيام مضت، لم يجدن ما يقلنه لها، لأنهن لا يستطعن أن يخبرنها بأن صدمة مثل التي تعرضت لها كفيلة بأن تجعل أية امرأة أخرى تفقد عقلها أو تعتزل الناس والحياة، ساد الجلسة جو من التوتر الذي تبدد سريعاً بفضل ما أظهرته جميلة من روح المرح والدعابة حتى بات يقيناً في أذهان كل الحاضرات أن جميلة صارت قادرة على أن تضع هذه القصة المؤسفة وراء ظهرها وتواصل حياتها وكأن شيئاً لم يحدث.

قالت أمها بعد أن خلا البيت من النساء الزائرات:

- لم يحن الوقت بعد لعودتك إلى المدرسة، هذا هو رأي والدك أيضاً.

أدركت جميلة أن في الأمر شيئاً مبيتاً، وأنها لو وافقت الآن

فسوف لن تعود إلى المدرسة أبداً، ستذهب غداً إلي المدرسة شاء والدها أم أبى، ولكنها تساءلت عن السبب فقالت أمها بلهجة ودودة:

- ليس لأن باستطاعة كائن من كان أن يسيء إلى ك بكلمة واحدة.

وسكتت تبحث عن كلمات لا تسيء إلى مشاعر ابنتها.

- ولكن عندما تصبح البنت التي في سنك موضعاً لحديث الناس فإن أسلم شيء لها هو الزواج.

ها قد بدأ الأمر يتكشف الآن.

- هل هذا هو رأيك أنت؟

- نعم.

- ورأي أبي؟

- نعم.

عرفت ما يدور في رأس ابنتها فقالت قبل أن تبادرها بالسؤال:

- وهو أيضاً رأي المتصرف، لقد كان كريماً وجاء يريد الإسراع بإعلان الخطبة قطعاً لألسنة السوء.

إذن فقد جاء المتصرف، انتهز محاولة الاغتصاب التي تعرضت لها وجاء يوظفها لمشروعه، مؤكداً حرصه وغيرته على شرف العائلة ومبدياً بشهامة وفروسية استعداده للإسراع بالزواج قطعاً لألسنة السوء التي تولغ الآن بشراهة في سيرتها، لا شك أن أمها أرادت أن تدخل السرور على قلبها لأنه حتى بعد هذه الفضيحة، ووقوفها عارية أمام رجال القرية، مازال هناك رجل كبير المقام يريد أن يتزوجها.

لم تجد في نفسها رغبة لأن تدخل الآن معركة مع أمها التي مضت

تقول كلاماً كثيراً عن أهمية أن تتزوج الفتاة رجلاً في مكانة المتصرف، يوفر لها الحماية والأمان، لم تكن أمها قد تحدثت عن المتصرف بهذا الحماس من قبل، أدركت جميلة أن الحادث أفزعها فصارت تخاف عليها من أن تبقى بائرة لا أحد يجرؤ على الزواج منها في مستقبل الأيام، كتمت جميلة غيظها ولم تقل شيئاً.

في صباح اليوم التالي ارتدت ملابس الخروج ووضعت فوق رأسها المنديل وأخذت الكتب والكراسات وقالت لأمها باقتضاب:

- أنا ذاهبة.

وقفت الأم تحول بينها وبين الباب تمنعها من الخروج، كان عامر اليتيم قد غادر البيت مبكراً وترك لزوجته أن تتدبر الأمر مع ابنتها، أصرت جميلة على الذهاب، لم تجد قدرة على منعها أو إقناعها بالعدول عن فكرتها، أفسحت لها الطريق وارتدت لحافها لكي تصحبها، لكن جميلة سألتها أن تبقى في بيتها لأنها ستذهب منذ اليوم إلى المدرسة بمفردها، سألتها بلهجة حازمة قوية أحست معها الأم بأن ابنتها قد خرجت من هذه المحنة امرأة أخرى لن تستطيع بعد اليوم أن تعارض كلمتها، قالت الأم باستسلام:

- إذن سأصحبك في طريق العودة.

- لا حاجة بك لذلك، لأنني سأزور أمي سعيدة بعد المدرسة.

قالتها أيضاً بلهجة لم تترك معها للأم فرصة أن تعارض أو تناقش أو تحتج.

ما أن خطت أولى خطواتها في الطريق إلى المدرسة حتى وجدت أطفالاً لا حصر لهم يتجمعون أمام البيت ويتطلعون بفضول إليها، لم

تعرهم انتباهاً ولم تشعر نحوهم بأي غضب، وعندما صاح أحد الأطفال مقلداً الدرويش:

- يا ويلي من جميلة.

أحست برجفة خفيفة ولكنها سرعان ما تلاشت دون أن تبقي أثراً، كأنها سمعت صدى لذكرى حادث قديم أليم مرت أعوام على حدوثه.

كان نسيم الصباح يداعب وجهها ويعبث بأطراف المنديل الذي وضعته فوق رأسها، فتمد يدها لتسوية المنديل ودس خصلات الشعر التي تمردت على المنديل وخرجت تضرب وجهها، والشمس التي لم يمض على طلوعها سوى لحظات قصيرة تصنع لها ظلاً طويلاً يمتد أمامها، فتسير تتبع ظلها ولا تنظر لشيء حولها، كان بعض رجال القرية يمرون بها ويقفون قليلاً ينظرون إليها ثم يواصلون سيرهم. كان مجتمع المدرسة ينتظر امرأة منكسرة، مهزومة، يسربلها الإحساس بالخجل والعار، ولكنها فاجأتهم بمظرها المتماسك القوي، رآها أحد المدرسين وهي تدخل ساحة المدرسة متألقة، باسمة، كأن الحادث زادها بهاءً ونضجاً فقال يخاطب زميله:

- لعل من يراها من زميلاتها وقد ازدادت بهجة وجمالاً تمنت أن يرزقها اللّه بدرويش يهجم عليها.

رد الزميل قائلاً:

- إن هذا المظهر الضاحك مجرد قناع لن يدوم طويلاً فوق وجهها، انتظرها ساعة أو ساعتين وستراها كيف تنهار.

وعندما رأى اليوم الدراسي ينتهي دون أن تفقد مظهرها الباسم

الوديع أدرك أن اللّه قد أنزل السكينة على قلبها وأن لجميلة قدرة نادرة على صهر آلامها والانتصار على محنتها.

أمضت يومها الدراسي تدفع عنها فضول الطالبات برفق ولطف محاولة تجنب أي حديث في الموضوع، قالت إحداهن أثناء الاستراحة:

-لم يجدوا أثراً للدرويش، خرجت كل القرية تبحث عنه ولكن الأرض ابتلعته.

لتبتلعه الأرض إذا شاءت، فلماذا لا ينسون الموضوع، تجاهلت جميلة حديثها قائلة:

- أريد أن أستعير كراسة لنقل ما فاتني من دروس وواجبات، ماذا يمكن للواحدة منا أن تفعل داخل جدران البيت لولا الواجبات المنزلية.

فتابعت إلحاحها:

- ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش في الطريق مرةً أخرى؟

لعل الدور سيكون عليك أنت هذه المرة، تركتها جميلة دون أن ترد عليها وعادت إلى مقعدها في الغرفة الفارغة تراجع دروسها، ظل السؤال يدور في رأسها، تخيلت مشهده وهو يعدو كثور هائج يرفع قرنيه في الهواء ويجيء كالعاصفة يغرسهما في جسمها، كيف لعبيط أهبل مثل جمعة الدرويش أن يفعل ذلك، لقد كان يأتي إلى بيتهم ويطوف بيوت القرية الأخرى فتستقبله النساء في المطابخ دون أن يقمن له اعتباراً أو يجدن فيه رجولة تخيفهن أو تقتضي الاحتشام

أو الا٥١حتجاب في حضوره كما يفعلن مع الرجال الآخرين ، ترسله أمها لقضاء الحوائج من الدكاكين فيذهب فرحاً وتقدم له طعاماً داخل المطبخ فيأكله شاكراً ، كيف يمكن لشخص في وداعة الحمل وبلاهته أن يتحول إلى هذه الكتلة من الغرائز المتوحشة ، الهائجة ، هذه الحزمة من الأحطاب المشتعلة ، ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش مرةً أخرى؟ لأمر ما لم يفزعها السؤال ، لقد مات الدرويش بالنسب لها .

[١٧]

قالت أمي سعيدة وهي ترى جميلة تقف على باب بيتها :

- ما أسعدني وأنا أراك تخرجين من هذه المحنة متألقة كالشمس .

كان وقت غداء ، قدمت لها طعاماً ، خبزاً وإداماً ، ثم جاءت بإناء نحاسي به بضع جمرات ، وضعت أعشاباً يابسة في الإناء وسألتها أن تقترب وتستنشق الأبخرة التي ستحفظها من أعين السوء ، ثم بدأت في تلاوة الأدعية . ضاحكة أسلمت جميلة نفسه لرائحة الأبخرة النفاذة ، ما جدوى أن تقول لأمي سعيدة الآن إنها لا تؤمن بأن أعين السوء يمكن أن تطفئها الأعشاب والأدعية وأن هناك هواءً فاسداً أقوى من عبير هذه الأبخرة يملأ الدنيا ، أغمضت عينيها ترتشف العبير وتسلم له حواسها وخلاياها ، نسيت الهواء الفاسد وجاء خدر لذيذ يسربل جسمها كله ويوقظ في نفسها رغبة غامضة لمعانقة الرجل الذي تحب ، أحست بالأبخرة تملأ عينيها وأنفها وحلقها وتصيبها بالإعياء فاتكأت على إحدى الوسائد ، غطست في غيبوبة جميلة تسلمها إلى عالم من الحب والأحلام والأساطير وتطفو بجسمها في الهواء ، أتي صوت أمي سعيدة من خلف الدخان وأبخرة الحلم قائلة كأنها تقرأ أفكارها :

- جاءني العيد ليلة البارحة .

وتوقفت تنتظر وقع الخبر على أسماع الفتاة، ولكن جميلة لم ترد، كان الخدر اللذيذ مازال يسري في عروقها فلا تجد رغبة في الكلام أو التعليق، أطلقت تنهيدة قصيرة ولم تقل شيئاً .

- قضى الليل كله يبحث خلف الشعاب عن الدرويش .

كانت جميلة قد تمددت الآن بكامل جسمها فوق المندار، ساكنة، مغمضة العينين كأنها نائمة، إنها الآن فقط وفي حضرة هذه المرأة المباركة التي فتحت لها منذ الطفولة قلبها وبيتها ووسط هذا الجو الذي يعبق بالمحبة والأمومة ورائحة الأعشاب المحترقة تستطيع أن ترتاح وأن تحس بالأمان فترفع الأغطية عن الأبخرة التي تملأ قلبها، كان اسم الدرويش الذي جاءت على ذكره أمي سعيدة قد ملأ حلمها الآن بالمعتوهين الذين نبتت لهم قرون الثيران، رأت في حلمها قطعاناً من الثيران الهائجة تحاصرها وتنظر إليها بعيون ميتة، هي ليست ثيراناً ولكنها كائنات غريبة مشوهة لها وجوه البشر وقرون وأجسام الثيران، تحمل الوجوه ملامح المتصرف والدرويش وقد عجنت ومسخت في وجه واحد، ثم رأت وجه والدها قد جاء وامتزج بها، واختلطت ملامحه بملامح الاثنين الآخرين، فهل صار هو أيضاً كائناً ممسوخاً في ذهنها، ولأول مرة تسأل نفسها سؤالاً بدا لها غريباً وكأنه ليس من حق الفتاة أن تطرحه على نفسها، فهو سؤال يخص علاقتها بوالدها وإذا كان يحبها أو لا يحبها، لقد أخذت المسألة دائماً باعتبارها إحدى المسلمات التي تولد مع ميلاد الإنسان، فكيف لا يحب الأب ابنته، ولكنها الآن تستطيع أن تستحضر صور تلك المجتمعات البشرية القديمة التي كان فيها الأب يدفن ابنته وهي على قيد الحياة، فهل كان

ذلك الأب الجاهلي يحب ابنته؟ لعل تلك الفتاة الموءودة لم تسأل نفسها سؤالاً كهذا وأخذت الأمر باعتباره إحدى المسلمات التي لا يجوز مناقشتها. إذا كان حقاً يحبها فكيف لا تهمه سعادتها، كيف يأتي معصوب العينين يريد أن يأخذها رغماً عن إرادتهما ويرمي بها على أقدام رجل لا تريده ولا تحبه كأنها قربان يقدمه رجل وثني لثور بعيون ميتة، جعل منه والدها إلهاً لأنه يرتدي الطربوش ويملك منصباً حكومياً. رأت الثيران تزحف نحوها تريد بها شراً، فلم تجد اسماً تستنجد به غير العيد، حركت باسمه شفتيها فجاء صوت أمي سعيدة يسألها إذا كانت تريد أن تقول له شيئاً، سمعت نفسها تقول، وكأن كلماتها تصدر عن امرأة أخري، كأنها تتحدث بلسان غير لسانها، سمعت نفسها تقول:

- أريد أن ألتقي به.

لم تفكر فيما قالته، حتى لو فكرت الآن وأدركت خطورته فإنها لن تستطيع أن تسترجع الكلمات التي قالتها، لقد خرج الأمر الذي كان رغبة دفينة عن إرادتها الآن، إنها بصدق تريد أن تراه، ولديها شيء تريد أن تقوله له، فلماذا تتنكر لمشاعرها وتطبق قلبها على رغبة بسيطة هي من صميم حقوقها، تعرف أن عالم النفاق والقيم الكاذبة التي عاش عليها الناس وتآلفوا معها، لا يقر هذه الرغبة، لكن أمي سعيدة سوف لن تسيء فهمها ولن تمتنع عن تحقيق هذا اللقاء. لم تقل المرأة العجوز شيئاً، ظلت تتأمل الفتاة التي عرفتها منذ الطفولة حيية، خجولة، لا تعرف ما تريد، وإذا عرفته فهي لا تستطيع أن تعبر عنه أو تطالب علانية به، ها هي اليوم تعرف بوضوح ماتريد، وما تريده الآن يخرج عن المألوف ويقفز فوق تقاليد القرية وأعرافها، فكيف تضرب

الفتاة موعداً لرجل وتطلب أن تلقاه، إن هذا لا يحدث حتى بين الخطيب وخطيبته، إلا إذا كانت جميلة لا تعني ما قالته، أو قالته وهي غائبة عن وعيها ولم تنتبه لخطورة أن تقابل الفتاة رجلاً لا تربطها به أمام المجتمع أية رابطة، وفي وقت أعطي فيه والدها كلمته لرجل آخر كي تكون زوجته، ولكن ألا يكون هذا السبب وحده كافياً لأن تسعى جميلة للقاء العيد، حتى لو كان هذا اللقاء مخالفاً للتقاليد، أليس زواجها من المتصرف ظلماً وعسفا ومخالفة لما يرتضيه الله من حق وعدل، فكيف تستطيع أن تؤمن لها لقاءً بالعيد لا ترصده العيون، إن في الأمر أخطاراً لا قدرة لجميلة على تحملها، قالت تحذرها:

- ما أغناك عن كلام الناس يا ابنتي.

في تثاقل نهضت جميلة من مضجعها، وقفت على باب الغرفة تهم بالذهاب، سألت أمي سعيدة في لهجة باردة:

- متى ألقاه؟

قالت أمي سعيدة باقتضاب.

- سأتدبر الأمر.

[١٨]

صار المتصرف يأتي كل يوم إلى بيت عامر اليتيم.

ما أن يأتي المساء حتى يجيء مصحوباً بالمدرس الذي عهد إليه بمهمة محو أمية اليتيم استعداداً لموسم الانتخابات.

استسلم عامر اليتيم لنشوة المجد القادم مع الانتخابات، الفكرة التي كان يرفض تصديقها، صارت تتحول في عقله إلى طموح مشروع من حق أي إنسان أن يسعي إليه، إن الأمر كما أخبره المتصرف لن يقتضي منه سوى أن يجلس في قاعة كبيرة مع الجالسين ويرفع يده موافقاً عندما يرفع الآخرون أيديهم، هذا كل ما يحتاجه عمل النائب من جهد، ليضحك المتنطعون أمام المقهى، والسادرون في ثرثراتهم أمام الدكاكين الفارغة ممن لا يحبون له الخير، فسوف يصبح ورغماً عن إرادتهم ممثلهم في المجلس الكبير.

كان الناس قد عرفوا بأمر الدروس التي يأخذها اليتيم كل يوم استعداداً لدخول المعركة الانتخابية، ويأخذون الموضوع على أنه مجرد نكتة، وأن الرجل ضحية مقلب دبره له المتصرف، لأن أحداً في القرية لايستطيع أن يصدق بأن عامر اليتيم الذي مازال يتمرن على

النطق ولا يعرف موقع يده الشمال من يده اليمين يمكن أن يكون نائباً من نواب الشعب، يضع التشريعات ويصدر القوانين ويناقش الوزراء ويدير مقدرات البلاد، حتى لو كان مجلساً صورياً يزيف إرادة الناس ويمتثل لتعليمات الحكومة، فإنه يحتاج إلى رجال يملكون دهاء وخبرة وقدرة على تصوير الباطل حقاً والحق باطلاً وتضليل العقول وإقناع الناس بأنهم يعملون لصالح الشعب كما يفعل الحاج عبد الجليل.

وكان المتصرف قد أعاد في أحد مجالسه سوء الفهم الذي وقع فيه اليتيم عندما جاء ذكر الحصانة البَرلمانية فظنها فرساً، تلقف شباب المقهى ومعلمو المدرسة هذه الحادثة وصاروا يتندرون بها ويضحكون من جهل اليتيم وسذاجته.

- لعله سيبدأ التدريب على ركوب الخيل استعداداً لامتطاء الفرس البرلمانية.

- كيف لا يرى نفسه مؤهلاً لدخول الانتخابات وهو يعرف أن الحصانة تريد حصاناً.

- أقول الحق، إن حكومة مثل حكومتنا لا تستحق إلا نواباً مثله.

- لو حدث هذا فسأهجر التعليم وأتفرغ للصلاة والعبادة لأن في الأمر علامةً من علامات قيام الساعة.

وما أن عرف اليتيم كيف يرسم اسمه حتى مضى مزهواً بين الناس يبحث عن أية فرصة أو أية ورقة يستعملها لاستعراض اكتشافه الجديد، صارت سجلات مستودع السيارات تمتلئ باسمه الذي يكتبه بمناسبة وبلا مناسبة، وكلما مر على دكان وقف عنده واشترى شيئاً وسأل صاحب الدكان أن يأتيه بالدفتر ليقيده ديناً عليه، ليس لأنه لا

يملك نقوداً في تلك اللحظة، وإنما لأنه يريد أن يثبت للناس أنه صار قادراً على كتابة اسمه، وأنه أصبح الآن مؤهلاً لأن يحتل موقعه المناسب الجديد برجل عرف سراً عظيماً كهذا السر . .

شيء واحد يفسد على اليتيم نشوته ويتذكره فيحس بالقلق كأن قرية من النمل تتسلق جسمه، هو موقف ابنته المتشدد العنيد، إنه لا يجد تفسيراً لعنادها، ولا يرى معنى لهذا الرفض الغريب لرجل يحمل وعد الحياة الكريمة الرخية لها ولأسرتها. مضى يتودد إليها ويتسامح في ذهابها إلى المدرسة بمفردها وزياراتها لبيت أمي سعيدة، ويحادثها بلطف وكياسة لعله يستطيع بهذا الأسلوب ترطيب خاطرها فترضى بما اختاره اللّه لها وتغنيه مشقة إرغامها مكرهة على الزواج من المتصرف .

انتهز فرصة الهدية التي جاء بها المتصرف، الحذاء والفستان والخاتم، وحملها في صندوق من الورق مربوطاً بأشرطة ملونة إلى داخل البيت، يسأل الأم أن تأتي بابنتها لترى الهدية، كان المعلم قد فرغ من إعطائه الدرس وغادر المربوعة، في حين بقي المتصرف ينتظر أن يعرف أثر الهدية على أهل البيت، بالغت الأم في إبداء الحماس وقالت مبتهجة تخاطب ابنتها :

- أغمضي عينيك حتى يفتح والدك الصندوق ثم انظري ما جاء به هذا الرجل المبارك من هدايا .

قالت جميلة وقد استفزها حماس أمها وابتهاجها :

- لا أريد أن أرى هداياه .

أرادت أن تغادر الغرفة ولكن أمها أمسكت بيدها فجلست تراقب

طقوس فتح الهدية وفض الأشرطة عنها، أخذت أمها الفستان تشيد بلونه ونوع قماشته وأسلوب تطريزه وتسأل ابنتها أن تقف لكي تقيس طوله بطولها، ولكن جميلة لا تقف والأم لا تستسلم، أخرجت الحذاء تقلبه في ضوء المصباح معجبة بجماله وأناقته وكعبه العالي، رأته لا يخلف أثراً في ابنتها إلا الاشمئزاز والكراهية، ولكن لا يهم، فهي تعرف بحس المرأة ما للذهب من سحر على قلوب النساء، فتحت العلبة الصغيرة التي تضم الخاتم، رأته نائماً فوق القطيفة الخضراء، فمدت ببطء أصابعها إليه كأنها تلمس شيئاً مقدساً، قابلته لمسقط الضوء فبدا مشعاً متوهجاً، أخذت يد ابنتها لتضع الخاتم في إصبعها وهي صامتة كأن خاتماً كهذا لا يحتاج لتعزيز مكانته بعبارات الإعجاب التي أطلقتها على الفستان والحذاء، أو كأن عبارات الإعجاب كلها لا يمكن أن ترتفع لوصف هذا الشيء الذهبي الذي يبهر بجماله وتوهجه الأبصار، ولكن جميلة بنفور وعصبية أبعدت يدها عن الخاتم وكأنه عقربة أو أفعي، نظرت إليها الأم باندهاش كأنها لا تصدق أن في الدنيا امرأة ترفض حلية كهذه، قالت جميلة بصوت أرادته أن يصل إلى أسماع المتصرف:

- لا أريد هداياه، ولا أطيق لمسها.

قالت الأم:

- لقد جاء بها إليك، فاسترينا مع الرجل يسترك اللّه، من سيرتديها إذا لم ترتديها أنت؟

- لماذا لا يرتديها هو؟

قالتها بلهجة عارية من الخجل أغضبت والدها، لم تقاوم رغبتها في الابتسام وهي ترى المتصرف وقد ارتدى الخاتم والفستان والحذاء

النسائي ومن فوقهم الطربوش، لم يشأ والدها أن يصفعها أو يشتمها تأديباً لها لكي لا يثير مشكلة في حضور المتصرف، وضع ابتسامة فوق وجهه وعاد إليه.

- أرجو أن تكون الهدية قد أعجبتهم.

قالها المتصرف متظاهراً بأنه لم يسمع الكلمات الجارحة التي قالتها جميلة، أحنى اليتيم رأسه استكانة كأنه يعتذر عن سلوك ابنته قائلاً:

- إنك دائما تغمرنا بهذا الكرم الذي لا حد له، نسأل اللّه أن يقدرنا على رده لك.

- تعرف أنني لا أبغي شيئاً إلا رضاء الله ورضاءكم.

ما جاء بهذه الهدية اليوم إلا لتكون مناسبة للاتفاق على إعلان الخطبة، لقد ماطله اليتيم طويلاً، وهو يكره هذه المماطلة، لابد من حسم الموضوع الآن، فهو أيضاً لديه أشياؤه الأخرى التي أهملها جرياً وراء هذه الزيجة التي أنفق في سبيلها وقتاً ومالاً وكأنه سيتزوج ابنة الملك. إنه يعرف أن جميلة ترفض فكرة الزواج منه ولكنه يعرف أيضاً أن النساء يتمنعن وهن الراغبات، ولذلك فقد قال دون أن يحس بالحرج مما سمعه من كلمات قالتها جميلة:

- أرى إنه قد حان الوقت لإعلان الخطبة.

لقد وجد اليتيم في الامتحانات القادمة حجة يسوقها لتأخير الخطبة ولكن الانتخابات أيضاً على الأبواب، لن ينتهي الصيف إلا والحملة الانتخابية على أشدها، وهو يريد أن يضمن نصيبه من الصفقة أولاً، يريد أن يأخذ بيد ويعطي باليد الأخرى، لا يرضى أن يحمل عامر

اليتيم على كتفيه، بصعد به سلم المناصب العليا ويركبه الفرس البرلمانية قبل أن يركب هو أيضاً فرسه.

- يجب أن ننتهي من أمر هذا الزواج لكي نتفرغ بكل جهدنا للإعداد للحملة الانتخابية.

هكذا بلا مداراة ولا تغليف، فهذه أمور لا يجب أن يتركها مبهمة غامضة، لا وصول إلى مركز النائب قبل وصوله إلى جميلة، بصراحة يقولها، بل وقبل مباشرة الحملة الانتخابية وتسجيل أسماء المرشحين، لكي لا يبقى أي مجال للشك أو الالتباس في ذهن عامر اليتيم، ولكن اليتيم يريد وقتاً، يريد أن يمنح ابنته بضعة أسابيع تتعايش فيها مع فكرة الزواج، حتى إذا لم تقتنع بعد ذلك فسيكون من حقه عندئذ أن يرغمها كما يفعل أي أب مع ابنته، لقد خرجت لتوها من تجربة قاسية وليس من العدل أن يرمي بها إلى تجربة أخرى قبل أن تهدأ نفسها، فلماذا لا يعطيه وقتاً. اهتدى اليتيم إلى فكرة جديدة مضى يقولها بحماس للمتصرف الذي أبدى استعداداً طيباً لقبولها، وهي أنهم ليسوا بحاجة إلى خطبة يعقبها بعد مدة طويلة حفل الزفاف، فما إن تنتهي الامتحانات حتى تعلن الخطبة ويتبعها مباشرة الزفاف وكتب الكتاب، وأن يتم ذلك كله قبل موسم الانتخابات بوقت كاف يسمح بالإعداد والتخطيط للحملة الدعائية.

[١٩]

مبهوراً بجمالها وباللحظة، جلس العيد صامتاً يتأمل السناء القادم من وجهها وخصلات الشعر التي تهدلت فوق عينيها وخديها فلم تهتم جميلة بإعادتها إلى مكانها تحت المنديل السماوي الذي تغطي به شعرها، ولم يقل شيئاً، لقد جلس طويلاً في هذه الغرفة ينتظر قدومها ويعد في ذهنه الكلمات التي سيقولها لها ولكنه ما أن يهم بقولها حتى يحس بأنها عاجزة عن التعبير عن فورة المشاعر التي تغمره، بدا له أن أي كلام سيكون إهداراً لهذه اللحظة المبهرة الرائعة التي يرى فيها جميلة قريبةً منه محاط وجهها بغلالة الضوء القادم من نافذة الغرفة ممزوجاً بأبخرة الأعشاب المحترقة كالحلم الذي أصبح وجهاً. تحولت الغرفة إلى سحابة من الأبخرة والعبير تطفو بهما إلى عالم خلا من المعتوهين والدراويش وأصحاب الدكاكين الفارغة ولاعبي الورق والأبراج السوداء والقيم الممسوخة الكاذبة، عالم أكثر بهجة وبهاء، صار فيه البشر ملائكة واستعاد فيه الإنسان فردوسه المفقود.

لقد جاء منتشياً منذ الفجر إلى بيت أمي سعيدة ينتظر قدوم جميلة، سألته المرأة العجوز أن يأتي مبكراً ولا يخرج إلا بعد حلول

الظلام فلا يرى أحد دخوله أو خروجه، وبذلك فإن جميلة عندما تأتي مع الظهر لزيارتها، لن يعلم أحد بأن العيد موجود لديها، خططت لهذا اللقاء وكأنها تدير خلية سرية لقلب نظام الحكم، انتهت كلمات الترحيب الأولى وجلس منتشيا بالنظر إلى عينيها، مزهواً لأنها ضربت له موعداً وسألته أن يأتي للقائها وتحملت أن تخاطر من أجله بسمعتها، ولم يجد معنى لكل ذلك إلا أنها تحبه بمثل ما يحبها، وأنه لا يريد شيئاًمن الدنيا إلا أن تصبح هذه اللحظة عمراً، ولكن أمي سعيدة التي تركتهما يختليان ببعضهما للحظات قصيرة سرعان ما جاءت تبدد بكلماتها الصمت وهي تحتج لأن الشاي الذي وضعته أمامهما قد تحول إلى شراب بارد، وأضافت ضاحكة:

- ولكنكما ستشربانه شئتما أم أبيتما.

ناولتهما الشاي المصنوع من رحيق الأعشاب، قال العيد متجاوزاً حديث المحنة التي تعرضت لها جميلة لكي لا يفسد باستحضار ذكرياتها الأليمة جمال هذه اللحظة:

- لقد قدمت طلباً بنقلي إلى القرية كما أراد عمي اليتيم.

قالت أمي سعيدة:

- ولكن اليتيم لم يعدك بشيء.

- إنه لم يرفض.

وبلهجة قاسية كأنما أرادت أن تستثير بها مشاعره، قالت جميلة:

- لقد أصبحت موعودة للذبح على شرف السيد المتصرف.

- ولكن ذلك مستحيل.

قالها العيد مذعوراً وقد صعقته المفاجأة وجعلت وجهه يحتقن بالدماء السوداء، وبأسلوبها العملي قالت أمي سعيدة:

- لقد نال موافقة اليتيم، وسيتم إعلان الخطبة ومراسم الزواج فور انتهاء العام الدراسي.

لم تكن جميلة تعلم أنه قد تم تحديد موعد الزفاف، نظرت إلى العيد فرأته مازال مذهولاً غارقاً في الغضب والحيرة.

- إنني لا أصدق ما أسمع.

قالت أمي سعيدة وقد رأت أنه آن الأوان لأن تتركهما يتدبران أمرهما:

- سأصعد إلى السطوح أطعم الدجاج، فلا تفتحا الباب لأحد ولا تردا عليه.

انتظرت جميلة حتى رأت أمي سعيدة تغادر الغرفة ثم أحنت رأسها نحوه وقالت بصوت هامس:

- لقد فكرت في الأمر، إن أهلي يعلمون برفضي لهذا الزواج، ولكنهم إذا أصروا فليس أمامنا سوى حل واحد.

انتظر بلهفة أن يسمع هذا الحل، صمتت قليلاً وهي ترى العيد يعلق عينيه وأنفاسه بانتظار الكلمات التي ستقولها:

- ومن أجل هذا أردت أن ألتقي بك.

لم يقل شيئاً فواصلت الحديث:

- لن يبقى أمامنا عندئذٍ سوى الهروب.

ظل العيد ينظر إليها مبهوتاً كأنه لم يستوعب ما قالته، جاءت كلمة الهروب تركض نحوه كموجة تحمل قارباً في زمن الغرق والفيضانات، الهروب، أخذ يدوِّر الكلمة في رأسه ويتأمل المرأة التي قالتها يبحث في وجهها عن شيء غفل عن رؤيته من قبل، لقد رأى جمالها وتعرف إلى سحره ولكنه لمن ينتبه إلى هذه القوة التي تبدت في شخصيتها، لاحظ لأول مرة ذلك الألق الذي تشع به عيناها، اكتست شخصيتها بدفقة القوة والشجاعة مزيداً من المهابة والجمال، أمِنْ أجله هو تفعل جميلة كل ذلك، وتبدي استعدادها للهروب معه وتتخطى كل هذه الأسوار والجدران وأكداس الطين والشوك التي أقاموها حول قلب الإنسان وعينيه وأذنيه وقدميه لكي لا يحب إلا ما يسمحون بحبه، ولا يرى إلا ما يسمحون برؤيته، ولا يسمع إلا مايريدونه أن يسمع ولا يمشي إلا في الطريق الذي حددوه له؟ إن هناك في القرية قصصاً تروى عن نساء هربن مع رجال أحببنهم، إنها حكايات أشبه بالأساطير، ولكن أن يحدث هذا أمام عينيه وأن يكون الهروب من أجله، وأن تكون المرأة التي تطالب به هي جميلة من دون كل النساء، فكيف سيجد الكلمات التي يعبر بها عن فيض المشاعر وهيجانها. رأته مملوءاً بالدهشة لا يعلق بشيء فقالت تستحثه على الكلام:

- ولهذا فأنا أريد أن أعرف رأيك.

- إنها تضحية كبيرة تقومين بها، فهل أستحق أنا كل هذا؟

نظرت إليه باسمةً ولم تقل شيئاً.

حركت ابتسامتها في ذهنه عالماً أسطورياً رأى فيه نفسه يركب جواداً ويمتشق حساماً ويذهب إلى غريمه المتصرف يدعوه إلى النزال

وما إن يخرج إليه حتى يبادره بضربة من سيفه تتركه مشطوراً إلى نصفين، ويعود إلى جميلة يأخذها معه فوق جواده، وينطلق راكضاً في الصحراء. ليته حقاً يجد وسيلة لإزاحته من الطريق بتهديده أو بتحريك أهل القرية ضده، أراد أن يفكر بصوت عال باحثاً عن وسيلة يواجهه بها، ولكن جميلة قاطعته قبل أن يصل بالفكرة إلى نهايتها قائلة:

- لا تفكر بشيء كهذا، إنه لن يعدم وسيلة يلفق بها تهمة ترميك في السجن ويضيع كل شيء.

قال وقد اتجه بتفكيره نحو عامر اليتيم لعله يجد طريقاً إلى قلبه، ويجنب امرأة في رقة هذه المرأة وعذوبة ملامحها أهوال مخاطرة كهذه:

- ما أشد ما تغير عمي اليتيم.

وعندما لم تقل ابنته شيئاً، أضاف:

- ومع ذلك فسأرسل إليه والدتي طالبة يدك بصفة رسمية.

- لا فائدة ترجى من ذلك.

ولكنه لابد أن يستنفد كل الوسائل الأخرى لكي يبقى الهروب حلاً أخيراً لا سبيل سواه.

وسريعاً انتهى اللقاء ووقفت أمي سعيدة تودع جميلة وترطب خاطرها ببعض الكلمات التي أنهتها قائلة:

- لن يكون إلا خيراً بإذن اللّه.

بإذن اللّه، بإذن اللّه، تردد الصدى يملأ رأسه، جاء الظلام وعاد

إلى بيته، ولكن الأمر صار تقليداً أشبه بطقوس وثنية حافظ عليها الناس منذ عصور ما قبل الفتوحات، وهو ألا تتزوج المرأة في «قرن الغزال» من الرجل الذي تحب، وألا يتزوج الرجل من المرأة التي يحب، قانون يمضي بعكس ما تريده الطبيعة وما تحتمه شرائع ونواميس الحياة، لم يكتبه أحد، ولا يقول به علانية أحد، ولكنه نافذ نفاذ الطقوس والفرائض الدينية، اتفقوا جميعاً عليه وامتثلوا لأوامره ونواهيه وزيفوا مشاعرهم وعواطفهم من أجل المحافظة على تنفيذه جيلاً بعد جيل، ما إن تحمل الريح همسة تقول بأن رجلاً أحب امرأة وأراد أن يتزوجها حتى بادروا بتزويجها من رجل آخر، كأن في الأمر إثماً يجلب لهم المصائب والأهوال ويثير غضب آلهة لا يقوى البشر الفانون على مخالفة أوامرها. ويائساً أرسل أمه مع بعض أقاربه إلى بيت اليتيم خاطبة، عادت الأم من رحلتها خائبة فلم تفاجئه النتيجة، قالت والغضب مازال يغطي ملامحها:

- إنها القطيعة بيننا وبين هذا اليتيم إلى الأبد.

صريحة قالها لهم اليتيم بأن على العيد أن يبحث عن نصيبه في مكان غير هذا المكان لأن ابنته قد تم الاتفاق على زواجها من رجل آخر وانتهى الأمر.

- لكنني لم أسكت له.

عرف العيد كيف أن أمه وقفت لليتيم في وسط بيته تصب عليه الشتائم واللعنات وتتهمه بأنه يبيع ابنته بيعاً لرجل متزوج وله أبناء وبنات في عمر ابنته لا أحد يعرف من أين جاء ولا نسب له ولا أهل وليس ذلك غريباً لأن اليتيم نفسه بذرة رجل تجند مع الطليان وذهب ليموت في حروبهم لا أحد يعرف له أصلاً ولا أهلاً.

كان الخبر قد وصل إلى أسماع بعض أهل القرية ممن يعرفون العيد فرآهم يستوقفونه في الطريق يستنكرون ما حدث ويسألونه في فضول عن تفاصيل القصة، لم يظهر لأحد منهم غضبه ولم يطل الحديث معهم وإنما اكتفى بالقول إن الزواج قسمة ونصيب. ترك الشوارع والدكاكين وذهب إلى حيث يمكنه أن يختلي بأفكاره، وما أن وصل إلى مرتفع يطل على غابة النخيل حتى تناهى إليه صوت الدرويش يأتي من قلب الغابة:

- يا ويلي من جميلة.

عاد هابطاً وانطلق يعدو وسط غياط النخيل باحثاً عنه، لم يستطع أن يحدد المصدر الذي يأتي منه الصوت، فهو يبدو أحياناً قريباً وفي لحظات أخرى يبتعد ويتلاشى كأنه يأتي من خارج الغابة، تحمله الريح من الشرق فيتجه شرقاً.

يجد أنه ترك الصوت خلفه فيعود للعدو في الاتجاه المعاكس.

- يا ويلي من جميلة.

كان جمعة الدرويش يقولها برعب وخوف، يمد في حروفها حتى تصبح عويلاً كعويل النساء النائحات، كأنه يواجه الآن هلاكاً محققاً، أو كأن جميلة هي التي تحولت اليوم إلى قطيع من النمور ترد عليه الهجوم، رأى في لحظة من اللحظات أنه اقترب من مصدر الصوت فأسرع في العدو نحوه حتى بدا له أن بإمكانه أن يمد يده خلف النخلة التي بجواره ليمسك به، ثم فجأة اختفى النداء ولم يجد للدرويش أثراً، فتش خلف الأشجار، رفع رأسه ينطلع إلى جريدها علّه تسلق نخلة واختفى بين سعفها وكرنافها وعراجين البلح التي لم تنضج

بعد، ولكنه لم ير سوى حدأة تحوم ببطء فوق رؤوس النخيل، انتظر أن يسمع نداء الدرويش مرةً أخرى وعندما لم يسمع شيئاً نفض يده من الأمر وانكفأ عائداً إلي مكانه، وما إن سار قليلاً حتى لاح الدرويش يتوسد حجراً ويتمدد في ظل نخلة قصيرة يلامس جريدها الأرض، هجم عليه يأخذ بأطراف ثوبه ولكنه اكتشف عندما رأى وجهه أن الرجل ليس الدرويش وإنما عمران عامل الفرن يرتدي أسمالاً كأسمال الدرويش، تغطيه الأتربة كأنه نام تحت الريح عاماً كاملاً، اعتذر للرجل بلهجة حارة وسأله بعد أن شرح له الأمر إن كان قد سمع مثله صياح الدرويش، فاجأه عمران بقوله إنه أمضى وقتاً في ظل هذه النخلة لم يسمع خلالها إلا صوت النخيل الذي يعارك الريح يقطعه بين الحين والآخر صوت حدأة تأتي وتحوم فوق رأسه.

- لعلك كنت نائماً.

لم يكن عمران نائماً، كان يراقب الظل وينتظر مغيب الشمس لكي يعاود الحفر مرةً أخرى، هل كان الصوت مجرد وهم، هل صار مجنوناً يتخيل الأشياء ويسمع الأصوات التي يظنها حقيقة فيجري يطاردها بين الأشجار، هل هو ترجيع الصدى لتلك الأفكار التي تملأ رأسه عندما جاء إلى هذا المكان وقد أحالها صوت الحدأة إلى درويش يصيح باسم جميلة، إنه على يقين من أن الدرويش جاء يزرع صوته في الغابة هذا المساء وما عمران إلا رجل أهبل ملأ عقله بوهم الكنز وأقفله عن كل شيء آخر عداه، فلماذا يأخذ كلامه مأخذاً جاداً، إن الحديث مع عمران لا يكون إلا هزلاً وإلا اختلطت الأشياء وضاعت الحدود بين الجد واللعب، مضى يتأمله وهو يتكئ بجواره تمثالاً للعناء

والعبث، جاءت سيرة الدرويش وجميلة تحرك فضول عمران وتدفعه لسؤال العيد عن صحة ما يشاع من اعتزامه الزواج بجميلة، فرد العيد ساخراً:

- ظننتك لاهياً عن أخبار الدنيا، ولكن لاتنسَ نصيبي من الكنز عندما تلقاه، لقد أصاب الغلاء كل شيء ولم يعد المرتّب كافياً للإيفاء بالتزامات العرس والزواج.

ما إن يجد عمران فسحة من الوقت حتى يترك الفرن ويأتي إلى أطلال القصر الروماني بأطراف غابة النخيل يحفر الكنز الذي ورد ذكره في أغنية شعبية تتحدث عن القصر، كانت أمه قبل أن تموت ترغمه ارغاماً علي الحفر، فلقد جاءها هاتف في المنام، وأخبرها بأن الكنز سيكون من نصيب ابنها عمران، ماتت الأم وتحول الهوس إلى ابنها الذي حافظ على عمله بالفرن ولكنه ترك كل شيء آخر، هجر الجلوس في المقهى والذهاب إلى المناسبات والأعراس، كما هجر الصلاة ولقاء الناس وصرف كل ماتبقى من وقته للبحث عن الكنز، لم يبق موقع حول تلك الأطلال إلاّ وحفره، وعندما يقولون له إن اللّه لن يمنح الكنز لرجل هجر الصلاة، يجيبهم بأنه قطع على ربه عهداً بأنه سيبني من أموال الكنز مسجداً يعوض بأجره وثوابه كل ما فاته من صلاة، ويسألونه أحياناً ناصحين بأن يتخلى عن هذا الوهم فيضحك في وجوههم ضحك من يعلم علم اليقين بأنه سيخطر بينهم ذات يوم قريب وقد تحول إلى ابن من أبناء الملوك، فقره صار غني، وأسماله تحولت إلى عباءة مطرزة بالحرير، وخرابة الطين التي يسكنها أصبحت قصراً مليئاً بالخدم والنساء:

قال معلقاً على كلام العيد :

- لم أكن أعلم أن البحث عن الكنز سيأخذ كل هذه السنين وإلا ما كنت قد تركت الصلاة .

- وماذا ستفعل بالكنز عندما تلقاه .

قال مازحاً وهو يقوم من مرقده :

- أول ما سأفعله هو أن أتزوج جميلة وأتركك تموت غيظاً وحسرة .

- حتى أنت؟

أخذ فأسه ومضى فالشمس أوشكت على الغروب وهو لابد أن يحفر عند المكان الذي ينتهي إليه ظل الحائط فتلك هي حدود المنطقة التي تضم الكنز كما تقول الأغنية .

بقي العيد وحيداً يراقب مشهد الغروب ويتمني لو أن جميلة بجواره الآن تبدد الإحساس بالوحشة التي تتركها في نفسه الشمس الغاربة ، أراد استدعاء صورتها ولكنها ترفض أن تأتي ، إن مجيئها مشروط بتوافر ذلك الصفاء الذهني الذي يغيب عنه الآن . اشتعل الأفق بمهرجان الألوان ، والشمس دائرة حمراء تحفها مواكب السحب الموشاة أطرافها بالذهب والفضة كأنها صبايا العرس يرتدين أجمل الثياب ويأخذن الشمس إلى مضجعها ، عادت نداءات الدرويش تملأ رأسه ، ها هو قد جعل اليتيم عدواً له بعد أن أرسل أمه إلى بيته تشتمه وتنشب معركة معه ، وانتزاع جميلة من بيتها والهروب بها ليلاً صار الآن اختياراً وحيداً لا يملك حلاً غيره ، سيهربان كما هرب كثيرون غيرهما ، وسيجدان في مكان ما محكمة ترضى بعقد قرانهما ، سوف

يجن المتصرف ويرسل كل ما في حوزته من شرطة للبحث عنهما، وقد يعمم البلاغات الكاذبة على مراكز الشرطة مدعياً بأنه اختطف خطيبته اختطافاً وأنه مجرم يجب قتله، ليذهب إلى الجحيم هو وشرطته، سيبحث عن مغارة في أحد الجبال ويقيم معها هناك إلى الأبد، أطبق الظلام على الدنيا وحطت قطعة منه في قلبه، وجد نفسه يضيق بفكرة العودة المبكرة إلى البيت فاتجه إلى المقهى، تحلقوا حوله، شعبان وعاشور وسلطان وعدد آخر من شباب القرية، يعلقون على ما حدث عندما ذهبت أمه إلى بيت اليتيم ظهر اليوم.

- لقد هجمت عليه كالنمرة تريد أن تقتله.

- كيف يسمح اليتيم لنفسه بأن يفضل عليك رجلاً من خارج القرية متزوجاً وأكبر منه سناً.

- لقد انتظرت قريتنا مئات الأعوام حتى تنجب صبية في ملاحتها، أليس عاراً بعد ذلك أن يأتي هذا الرجل الغريب ويخطفها رغماً عن إرادتنا؟

- إن المتصرف يهزأ بنا ولا يقيم اعتباراً لمشاعرنا.

- يجب أن نطرده من قريتنا إذا كنا حقاً أبناء المجدوبة.

جاء ذكر المجدوبة فنظر العيد حوله يفتش عما تبقى من تلك المرأة التي أرهبت الصحراء، ألّفت من أبنائها عصابة تقودها بنفسها لقطع الطريق وفرض الأتاوات على القوافل التي تعبر الصحراء، وعندما أصبحت غنية ذهبت إلى الحج وعادت تستقر بأبنائها قرب هذه الهضاب، وتترك صيتاً يجعلها مضرب المثل في البأس والشدة. تلك

كـانت جدتهم ولـكنه زمن ولّى وانقـضى والنار الـتي أشعلتهـا لـم يبق منها إلا هذا الرماد الذي يملأ القلوب والعيون.

انتهت السهـرة فقال العيد وقـد أحس بدفـء العواطف التي أحاطوه بها تبدد شيئاً من سحب الكآبة التي تملأ صدره:

- لا تحملوا هماً، سأعرف كيف أتدبر الأمر.

عاد إلى بيته ونداء الدرويش الذي سمعه في الغابة مازالت أصداؤه تتردد في أدنية:

- يا ويلي من جميلة.

[٢٠]

قبل موعد عودته إلى المدينة التقى العيد بجميلة مرةً أخرى.

ذهب لانتظارها في بيت أمي سعيدة وعندما جاءت تصافحه أبقى يده في يدها وجلس على المندار بجوارها، أحس بالوهج الذي انتقل إليه من يدها يذيب الهواجس التي ملأت ليله ونهاره، إنه يخجل الآن من تلك اللحظات التي رأي فيها نفسه واهناً ضعيفاً لا يدري كيف يواجه الموقف، اكتشف وهو يجلس ملاصقاً لها بأنه صار قوياً قادراً على خوض أكثر المعارك هولاً وتحقيق النصر فيها، وتمنى ألا يكون هذا الإحساس مجرد وهم يتبخر بمجرد أن ينتهي اللقاء معها، ولكنهما الآن معاً، وسيبقيان معاً، ولن يستطيع أحد أن يفرق بينهما، يكفي أن هذا ما يريدانه، بشهوة الحياة وإرادتها يريدانه، بدفق الحب وقوته يريدانه، بمثل ما تحقق لهما هذا اللقاء الآن وفي هذه اللحظة وتحت سقف هذه الغرفة ورغماً عن إرادة الآخرين، فإن أحداً لن يمنع هذا اللقاء من أن يستمر ويتواصل، إن حبهما ليس إلا استجابة لنواميس الكون وقوانينه الكبرى، وتلبية لنداء الطبيعة ودورتها المتجددة الخصيبة، فكيف يمكن لهذه النواميس والقوانين أن تخذلهما، كيف يمكن للحياة أن تتحول إلى كرة تعبث بها ريح

مجنونة لا تقيم اعتباراً لإرادة الإنسان وأعراس القلب، وتسير بحياتهما في اتجاه يناقض ما أرادته الطبيعة لهما، كان يريد أن يخبرها بقصة الدرويش الذي سمع صوته في الغابة ويحذرها منه، وعن المعركة التي نشبت بين أمه ووالدها ويسخر منها، ولكنه عندما رأى مسحة الحزن التي تغطي وجهها، ضغط برفق على يدها قائلاً:

- غداً سوف تصبح كل هذه المشاكل مجرد ذكريات نستحضرها لنضحك منها.

- ليت الحياة تسير وفقاً لما تشتهيه القلوب.

- ليس من العدل أن تسير بما تشتهيه قلوب المتصرفين فقط.

وجد نفسه مرةً أخرى يقع في شرك الحديث عن الأشياء التي تبدد هذا الصفاء، لكنها حقائق الحياة بكل قسوتها وعريها، مجردة من الحلم والأوهام الجميلة، مثل هذا العرق الذي ينز من يده الممسكة بيدها، لا يقتل بهجة التلامس ولكنه يلحق بهما ضيقاً يجعلهما يفكان عناق أيديهما لحظة ثم يعودان للتلامس مرةً أخرى، سمعها تقول:

- لا يمر يوم إلا ويحط كسحابة سوداء في بيتنا، فأحسُّ بالضيق والاختناق ولا أجد شيئاً أفعله سوي أن أشتمه وألعنه بدعوي أنني أشتم القطة التي جاءت تضايقني، وأرفع صوتي بغية أن تصل إليه لعناتي كي يستحي ويتنحى عن طريقي.

- تراودني كل ليلة أحلام دموية، وأفاجئ نفسي متلبساً بالتفكير في قتله.

أراد أن ينتهز فرصة وجودهما منفردين ويخبرها بما انتهى إليه تفكيره في موضوع هروبهما.

- سأذهب غداً إلي المدينة وسأتدبر منذ الآن مكاناً آمناً نلجأ إليه، وما إن تنتهي من الامتحان حتى نكون قد اتفقنا على ساعة اللقاء وتدبر أمر السيارة التي تنقلنا.

نظر إليها يستطلع رأيها، وافقت بإشارة خفيفة من رأسها، وجهها يفيض بالسلام والسكينة، كأن هذا الهروب ليس مغامرة تملأ القلب فزعاً، أضاف قليلاً:

- سنضعهم جميعاً أمام الأمر الواقع.

عادت أمي سعيدة تنضم إليهما، لم يكن أحد منهما قد فاتحها بما اعتزما القيام به، كانت جميلة ترجئ إخبارها إلى أن يصبح هروبهما أمراً لا مناص منه.

أدركت أمي سعيدة من سماعها للجملة الأخيرة التي قالها العيد ما ينويان عمله.

- إذن فقد عقدتما العزم على الهروب، كم تمنيت من كل قلبي ألا تصل الأمور إلى هذا الحد.

قالت جميلة تدافع عن قرارها:

- إنه الاختيار الوحيد الذي تبقّى لنا.

نظرت أمي سعيدة بإشفاق إليها، هل ستتحمل أن تعيش منبوذة عن أهلها طوال حياتها، وهل تدرك ما يجلبه الهروب من عار عليها وعلي أسرتها، إنه شر أهون عليها من الشر الآخر الذي أرادوه لها، ولكنها لاتستطيع أن توافق بسهولة عليه. جاء صوتها يحذر جميلة:

- إنك تحكمين على نفسك بقطع كل علاقة مع أبيك وأمك وأخوتك، قطيعة قد تستمر مدى الحياة.

ولكن جميلة لم تفكر في هذه القطيعة، كل ما تعرفه أنها ضحية هؤلاء الأهل الذين يريدون تزويجها من رجل تمقت أن ترى ظله لا أن تعيش وتنام فوق فراش واحد معه، تمنحه جسمها وتكون جارية له، فكيف يكون هروبها ظلماً لهم، حتى لو كان الهروب انتحاراً فإنها تفضل الموت على هذا المصير الذي اختاروه لها.

كانت تريد توضيح ما يعتمل في نفسها من مشاعر لعل أمي سعيدة تفهم دوافعها، ولكن طرقا عنيفاً علي الباب مصحوباً بالدوشة والصراخ جاء وأنساها الكلام، وقفت وهي ترى العيد وأمي سعيدة يقفان مثلها وينظران في خوف إليها، كأن هؤلاء الناس الذين يدقون الباب ما جاءوا إلا بحثاً عنها، ولأول مرة يبدو ذلك الخاطر المرعب الذي لم تفكر فيه من قبل احتمالاً قابلاً للتحقيق، ماذا لو أن المتصرف قد أرسل عيونه يتجسسون عليها، وقد اكتشف الآن أمر لقائها بالعيد فاستنفر أهل القرية يشهدهم على مروقها، الفضيحة والعار لها وللعيد ولأمي سعيدة التي سيعتبرونها امرأة سوء تجمع الناس في الحرام، اشتد الصياح واشتد الطرق على الباب مختلطاً بنباح الكلب وأصوات الدجاج الذي أفزعه الصخب.

رأت أمي سعيدة أن أحداً إذا جاء لايجب أن يراهما يجتمعان في غرفة واحدة، سألت العيد أن يذهب إلى المطبخ المصنوع من ألواح الصفيح لأنه ليس في بيتها غرفة أخرى سواه، في حين رأت أن تبقى جميلة في مكانها، خرجت وأقفلت باب الغرفة وراءها، لا أحد يزورها في مثل هذه القيلولة، توقعت شراً وتظاهرت بأنها نائمة فجاءت تفتح الباب وهي تتثاءب كأن النوم مازال في عينيها، وقفت قبل أن تفتح الباب تتنصت لأصوات الطارقين وتفكر في طريقة

تطردهم بها، لم تتبين إلا أصوات الأطفال الذين يصيحون بها أن تفتح الباب، فتحته فرأت عدداً كبيراً من الصبيان ينشئون زحاماً أمام البيت، كان أحد أبناء الجيران يحمل لوحاً ويصيح مبتهجاً بأنه صاحب «الختمة» فقد وصل في دراسته القرآنية إلى سورة «الجن»، وجاء يطوف مع بقية التلاميذ يجمعون الهدايا من الجيران ليقدموها للفقيه. استندت أمي سعيدة إلى الحائط تستلقط أنفاسها إثر الفزع الذي ألم بها وتمسح العرق الذي تصبب من جبينها ودخل في عينيها، تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتسأله أن يحمي بيتها من شر الجن والعفاريت، غابت لحظة ثم عادت تحمل لصاحب الختمة بيضاً وتدعو له بالنجاح.

ومسرعة غادرت جميلة البيت.

[٢١]

بأصابع مرتعشة أمسك المتصرف الورقة التي وجدها مرمية عند الصباح تحت باب البيت، وقف مذعوراً يعيد قراءتها وكأنها مكتوبة بحبر الشياطين:

«ارحل عن قريتنا واترك ابنة اليتيم في حالها، وإلا سننزل بك عقاباً شنيعاً».

بيد لم تتعلم كيف تفك الخط جيداً كتبت الرسالة التي لا تحمل توقيعاً سوى عبارة «أبناء المجدوبة»، لقد سمع نتفاً من حكايات تتحدث عن امرأة ينسب الناس أنفسهم إليها اسمها «المجدوبة»، ولكن مَنْ من أبناء هذه الداعرة تجرأ وجاء مع الليل يضع الورقة تحت بابه، لن يكون المتصرف إذا لم يجعله مجدوباً مثل أمه، ويسومه عذاباً يتمنى معه أن تكون الساعة التي تمر به هي آخر ساعة في حياته. مهتاجاً غاضباً طوى الورقة في جيب سترته وضرب الباب وراءه، ومهتاجاً غاضباً وصل إلى مكتبه، أقفل الباب بعنف وصاح وشتم يلعن المباشر الذي تأخر بإحضار القهوة، الورقة تحرق صدره، وإحساسه بالكرامة التي جرحت يجعله لا يقوى على الجلوس في مكتبه، فظل يطوف بالغرفة كحيوان هائج داخل قفصه، يزوم

ويضرب كفاً بكف ويصدر أصواتاً لا معنى لها، إنها ليست كرامته التي جرحت وإنما هي كرامة الحكومة، نعم الحكومة، الناس أنفسهم لا يضعون حداً فاصلاً بين شخصه وبين الحكومة، حتى اسمه ضاع ولم يعد أحد يناديه به، أو لعل أحداً لا يذكره لأنه منذ أن صار مديراً ثم متصرفاً صار اسم الوظيفة هو اسمه، وصارت الحكومة هي أهله، وصار لا يري لنفسه دوراً خارج هذا الدور ولا يعرف للحياة معنى خارج هذا المعنى، وكل ما يقوم به من أعمال إنما هو نابع من هذا اليقين، يقينه الراسخ الثابت إنه والحكومة شيء واحد، وأن ما يضر الحكومة يضره وما يفيد الحكومة يفيده، وإذا كان لا يضيره أحياناً أن يضع شيئاً من المال العام في ماله الخاص إذا حانت الفرصة ودون أن يعتبره غشاً أو سرقة، فما ذلك إلا لأن الحدود بين الخاص والعام قد ذابت وتلاشت، كثيرة هي المناسبات التي وجد فيها نفسه ينفق مرتبه ومدخراته الخاصة في أغراض عامة مثل الولائم التي يقيمها في بيته لضيوف الحكومة ومندوبيها عندما يزورون القرية، وهو عندما يغش الانتخابات لصالح الحكومة أو يلفق التقارير للإيقاع بإعدائها ومعارضيها فما ذلك إلا لأنه يرى أن الحكومة هي الحق وما عداها باطل، ومن عارضها مارق آثم استحق اللعنة والمطاردة، ويؤمن أن الحكومة لا يخدم أهدافها إلا من كان قوياً قادراً علي فرض هيبتها وتنفيذ إرادتها بحزم وشدة، ولذلك فهو يسخر من أولئك الموظفين الذين يأنفون مثلاً من المشاركة في تزوير الانتخابات أو تحطيم صناديق المرشحين المعارضين للحكومة باسم النزاهة والشرف والوطنية، إن ذلك ليس إلا جبناً وخوفاً وعجزاً عن الارتفاع إلى مستوى المسؤوليات الجسام التي يتطلبها العمل الحكومي، لن تفلح أمة يلحق الضعف حكومتها أو يصيب الوهن والجبن موظفيها، وبدافع من هذا

الإيمان كـان يدخل مـعـارك الحكومـة بقـوة وشـراسـة وينفـذ إرادتـهـا بإخلاص واجتهاد ويتحمل تبعات ذلك كله بلا خوف ولا وجل، لقد كاد يتعرض للهلاك في أحد المواسم الانتخابية عندما جاء أهل الدائرة غاضبين من تزييفه نتيجـة الانتـخابات، يحملون الفؤوس يريدون قتله، لقد نجا من القتل ولكنه كان على استعداد للموت في سبيل أداء واجبه، ولقـد منحته خبرته الطويلة في العمل الحكومي قدرة عظيمة على كـسب ولاء الموظفين الذين يعـملون تحت أمرتـه، فـهـؤلاء هم أدواته في تنفـيذ المهـمـات التي تكلفه بهـا الحكومة، هم كـتيبتـه التي يحـارب بها ولذلك فـهو يغـدق عليهم الترقيات، يمنحهم العـلاوات، ويشـاركهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة، من أراد قرضاً أخذه، ومن طلب إجازة وقعها له بلا إبطاء، فصاروا يعتبرون عهده عـهداً ذهبياً لـم تشـهـد المتصـرفية مثله من قبل، وما إن سرى الخبر بين هؤلاء الموظفين بأن المتـصـرف، وحـسب التعـبـير المتداول بينهم «يحـيط به الدجـاج الأسـود» حتى بدوا جميعهم غـاضبين لغضبه، أعلنوا حالة الطوارئ، وطردوا جـمـيع المراجعين، واعـتبروه يوم حداد قبل أن يعـرفـوا سـبـباً لغضبه وهياجه.

قـال بعد أن هدأت أعصابه قليلاً، يشرب القـهـوة ويخاطب كـاتبـه الخاص:

– هذه بلدة لا ينفع فيها عمل الخير.

– لماذا لا سمح الله؟

قالها الـكاتب بلهفة وقد أدرك أن الفرصة قد حانت ليعرف السبب الذي أغضب المتصرف، سيرضي فضوله وفضول بقية الموظفين الذين ينتظرونه الآن ليروي لهم القصة، ولكن المتصرف لم يكن قد قرر أن

يطلع موظفيه على الرسالة التي تلقاها، ليس قبل أن يهتدي إلى الوسيلة التي يرد بها على أبناء تلك الداعرة، قال دون إفصاح :

- يبدو أن هناك من لا يعجبه وجودي في هذه البلدة .

كان الكاتب يعرف أن أمراً كهذا ليس جديداً وأن المتصرف لا يولي مثل هذه الأمور اهتماماً كبيراً، ما يهمه دائماً هو رضا الحكومة لا المواطنين، ولكنه قال بلهجة مماثلة :

- قطع اللسان الذي يتحدث عنك بسوء، هل ينسى أهل هذه البلدة أياديك البيضاء عليهم، هل ينسون شعير العلف الذي جئت به إليهم هدية من الحكومة ليكون غذاء لأغنامهم فأكلوه هم وأطفالهم دون أن تعاقبهم أو تتوقف عن جلبه إليهم كل عام، هل ينسون المصنع الذي ستبنيه لهم فوق الرمال، هل. .

وقبل أن يأتي على كل مكارمه قاطعه المتصرف قائلاً :

- إنهم ينكرون على الزواج من ابنة عامر اليتيم، هل أتيت منكراً عندما أحببت هذه البلدة وأردت أن أرتبط بها برباط المصاهرة الذي لا تنقطع عراه .

ثم أضاف بحدة :

- قد لا يعلم الناس هنا أن المتصرفين في أماكن أخرى يحصلون على هذه الأشياء بلا زواج، فهل هذا جزائي عندما أصون الحرمات وأحمي الأعراض وأراعي فيهم الشرع والقانون .

لم يجد الكاتب في كلام رئيسه ما يرضي فضوله لمعرفة ما حدث بالضبط، تساءل قائلاً :

- ولكن من هم ياسيادة المتصرف هؤلاء الناس الذين يقولون عنك هذا الكلام؟

قال المتصرف منهياً الحديث :

- لا يهم الآن، سأعرف كيف أنتقم.

في المساء عاوده غضبه وعاوده هياجه وهو يزور اليتيم في بيته مبكراً علي غير عادته ويطلعه على فحوى الرسالة. لم يكن اليتيم يظن أن المصاهرة التي ينوي عقدها مع المتصرف سوف تثير حفيظة أهل القرية بهذا الشكل العنيف، صار الآن خائفاً من الأذى الذي سيلحقه من جراء هذه المعركة التي تنشب الآن بينهم وبين المتصرف، خاصةً إذا ما استعمل الرجل سلطته وشرطته للبطش بهم، سوف يعتبرون اليتيم هو السبب، سيعجزون عن مواجهة المتصرف وسيتحولون بحنقهم وثورتهم إليه. حاول تهوين الأمر على المتصرف فما هذه الرسالة إلا عمل من أعمال الطيش الذي لا يستحق الغضب والانفعال.

قال المتصرف حانقاً :

- كيف لا أغضب وأنت تعرف ما قدمته لهذه البلدة من خدمات، هل أخرج منها في النهاية مثل من يسلخ الحمير، لا لحم يطعم جوعه ولا رائحة طيبة تعلق بثيابه، ولكنهم إذا أرادوه سلخاً للحمير فليكن، سأعرف عندئذ كيف أسلخ جلود هؤلاء الحمير جميعاً.

كان اليتيم يتساءل بينه وبين نفسه عن هوية هذا الرجل الذي كتب الرسالة وواتته الشجاعة على أن يضعها للمتصرف تحت أنفه، ولا يجد في ذهنه أحداً غير العيد، فهو الذي يملك دافعاً قوياً لارتكاب

هذه المخاطرة، ولكن العيد أكثر عقلاً من أن يقترف حماقة كهذه، خاصةً وأن المتصرف نعت كاتبها بأنه جاهل لا يعرف كيف يخط حرفاً صحيحاً، من إذن؟ ولكن لماذا يجهد نفسه في البحث عمن يكون، إن فتح باب كهذا سوف لن يجلب لحياته سوى العواصف، والخير كل الخير هو أن ينسى المتصرف هذه الرسالة لأنه لو تابعها فسيكون كمن يحفر كثبان الرمال، لن يجلب الحفر إلا مزيداً من الرمل.

مضى المتصرف يتحدث عن نيته في التنكيل بأهل القرية جميعاً إذا لم يكشفوا عن كاتب الرسالة ويقدمونه له لينال جزاءه. فقال اليتيم:

- إن هذا بالضبط مايريده كاتب الرسالة وهو أن يفسد علاقة الود التي تربطك بأهل البلدة، فيتحولون جميعاً إلي أعداء لك.

- إذن اسمعني جيداً.

كان واضحاً أن المتصرف قد اهتدى الآن إلى الوسيلة التي يرد بها على هذه الرسالة رداً ناجعاً.

- طالما أن المسألة صارت تحدياً، فسأقبل التحدي، وإذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل البلدة فعليك أن توافق على ما أقوله لك.

التقط أنفاسه قبل أن يقول:

- وهو أن تتم مراسم الزواج كلها اليوم، وفي هذه الليلة، دوعنا نرى ماذا يستطيع أن يفعل أولاد الـ . . . مجدوبة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالها اليتيم وأبقى بصره معلقاً بوجه المتصرف. ها هو يكشف مرةً أخرى عن براعته في توظيف كل شيء لمصلحته، كأن عقله رحى

كبيرة لا يدخلها شيء إلا وتطحنه وتحيله إلى دقيق يصبح خبزاً وطعاماً علي مائدته. حتى هذه الرسالة التي أرادها صاحبها أن تكون تهديداً يمنعه من بلوغ أهدافه وجد كيف يحيلها إلى شيء يسرع بتحقيق رغباته، وهذه الكلمات التي قالها اليتيم ليدفع عن نفسه شراً رآه يلوح في الأفق، ها هو يجدها توظف توظيفاً ماهراً ضده وتصبح هي الأخرى طعاماً لأحلام المتصرف ووسيلة لإرضاء شهواته.

ظل ينظر إليه مبهوراً بهذه القدرات العجيبة التي يملكها، مدركاً الآن أن الحكومة لا تختار رجالها عبثاً، ثم قال قبل أن يجد عبارات أفضل يتقي بها هذا المأزق الجديد:

- ولكن الأمر يحتاج إلى استعداد.
- سأتولى ترتيب كل شيء.
- لابد أن تمنحني وقتاً.
- إذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل القرية فلم يبق إلا هذا الحل، وإلا ضاعت هيبتي وهيبة الحكومة.

حاول اليتيم بقوة أن يقنع المتصرف بجدوى الانتظار ولكن دون فائدة، وفي النهاية خضع لمشيئته واتفق معه على أن يبدأ العرس منذ هذه الليلة كما أراد، وفي الليلة التي تليها يكتب عقد القران لتصبح جميلة زوجته أمام الله والناس، على أن تؤجل ليلة الدخلة إلى ما بعد الامتحانات التي يحين موعدها بعد أيام قليلة فلا تحرم الفتاة من نيل شهادتها هذا العام. وضع المتصرف يده في يد اليتيم يقرآن سورة الفاتحة، قال مبتهجاً بعد ختام السورة:

- لتملأ الزغاريد البلدة هذه الليلة، وليمت بغيظهم الحاقدون.

[٢٢]

سعيداً بانتصاره ذهب المتصرف يرسل وراء موظفيه وأعوانه لشراء المؤن ونحر الخراف وإحضار نسائهم لإحياء العرس الذي يريده أن يكون أعظم عرس تشهده القرية، فهو قبل كل شيء وبعد كل شيء عرس الحكومة وهيبتها التي أراد بعض الصعاليك النيل منها، ومن أجل ذلك فقد جاءت سيارات نقل الحكومة وخزانات الماء التي تجرها عربات الحكومة وفتحت المخازن الكبيرة التي يحتفظون فيها بالخيام والأبسطة والمصابيح والقدور للاحتفال بالمناسبات الرسمية ونقلت جميعها إلى بيت اليتيم. وفي ساعات قليلة أقيم السرادق ومدت البسط وصفّت الكراسي وأضيئت مصابيح الكهرباء بأعداد لا تحصى وجاء من يضرب الطبلة ويعزف الناي والمقرونة كما جاء من مركز الشرطة من يحمل سلاحاً يطلق به النار في الهواء إظهاراً للفرحة والابتهاج بعرس المتصرف، وبعيون تمتلئ فضولاً توافد الأطفال الذين أرسلتهم أمهاتهم لمعرفة الخبر يملأون ساحة الاحتفال أمام البيت، وأرسل المتصرف عماله يدقون أبواب البيوت يدعون الناس لحضور العرس ويذهبون إلى المسجد والحوانيت يدعون الرجال لتناول العشاء، ووجد أهل القرية أنفسهم فجأة أمام عرس لا يدري عنه أحد شيئاً.

- إنه عـرس كـأعـراس الجن، مـا تـدري إلا وقـد ضـج الليل من حولك فجأة بالموسيقى والغناء والبارود.

- قل إنه عـرس كـالموت، فـالموت وحـده الذي يأتي فـجأة ويطلق حناجر النساء بالعويل دونما ترتيب أو تمهيد.

- ها هي الحكومة تذكر قريتنا بعد إهمال طويل فجاءت تقيم بدل المصنع عرساً.

فاجأهم العرس فمنهم من ذهب مهرولاً يمني النفس بوليمة عظيمة ويتقي غضب المتصرف ومنهم من أزعجه ما حدث فاختار البقاء في البيت ومنع زوجته وأطفاله من الذهاب.

لم يكن قد جاء أحد من المعازيم عندما وقفت جميلة في فناء البيت الداخلي تصيح في وجه أمها وهي ترى الاستعدادات فجأة تقام لمباشرة العرس، غاضبة تبكي وتشتم المتصرف وتهدد أمها بالانتحار، سمع اليتيم صراخها وهو يشرف على بناء الخيمة أمام البيت فدخل مهرولاً يحتوي ابنته بين ذراعيه ويضع يده على فمها محاولاً إسكاتها قائلاً لها:

- إنك تفضحيننا أمام الناس.

بشراسة دفعته عنها حتى ارتطم بالجدار وسقط يتدحرج فوق الأرض، صرخت الأم وهي تداري وجهها خجلاً ورعباً، قام اليتيم غاضباً وكأن بركاناً اشتعل في صدره، تناول قطعة خشب وهجم على ابنته يضربها ويشتمها، حاولت الأم أن تمنعه عنها فبدأ يشتمها هي الأخرى لأنها أفسدتها بالتدليل ويشتم المدرسة التي ملأت رأسها بالأفكار الغريبة فخرجت على آداب القرية وتقاليدها ويقسم بأن

الزواج سوف يتم في موعده شاءت أم أبت. انتزعت نفسها من قبضته ونائحة ينزف الدم من جبينها هربت إلى غرفتها وأقفلت الباب خلفها، وضج البيت بزغاريد النساء القادمات لإحياء العرس.

ما أن وصلت أمي سعيدة حتى طالبت من فورها بأن ترى جميلة، كانت أمها تعتذر للنساء قائلة بأنها كأي فتاة في سنها لاتحتمل فكرة الفراق القريب عن بيت أهلها فلزمت غرفتها وما أن يهدأ خاطرها حتى تأتي إليهن، لكن نساء العرس يعرفن أنها تقول ذلك مداراة للحقيقة وخجلاً منها، ويعرفن أن جميلة تجلس الآن في غرفتها تندب سوء طالعها وترفض تزويجها من المتصرف لأنها تحب العيد وتريده زوجاً لها، إنها ليست أول ولا آخر فتاة في «قرن الغزال» يقوم والدها بتزويجها رغماً عنها، هن يعرفن ذلك ويعرفن أيضاً أنه لا فائدة من مقاومة تقليد ظل لأزمان طويلة قدر النساء في هذه القرية وسيظل قدرهن لأجيال كثيرة تأتيٍ، ولاشك أن جميلة بعد أيام سوف ترضى وسوف تقبل بقسمتها كما حدث لنساء كثيرات من قبلها.

هبت أكثر من امرأة تتطوع لمرافقة أمي سعيدة عند ذهابها لترى جميلة في غرفتها، قائلات بأنهن سيشرحن لها الأمور التي لا تعرفها صبية لم تر دنيا مثلها، وسيقنعنها بالخروج من غرفتها للترحيب بالزائرات، إذ ليس من اللياقة أن يقام العرس فتغيب العروس.

قالت إحداهن ضاحكة:

- سأشرح لها تلك الأشياء التي سوف تلقاها عند العريس فتنسيها أمها وأبيها.

- سأتولى بنفسي تخضيب يديها وقدميها بالحناء هذه الليلة، إنه فأل سيئ أن يكتب الكتاب والعروس بلا حناء.

ولكن أمي سعيدة برفق سألتهن البقاء في أماكنهن لأن هناك ما يكفي من الوقت للحديث معها فيما بعد، فلا داعي لخلق تظاهرة تفزعها، ثم ذهبت تطرق بابها، أدخلتها عندما عرفت أنها أمي سعيدة ثم أقفلت الباب، زاد بكاؤها حدة وهي ترى المرأة التي جلست تنتظرها فلم تتأخر عنها، لم تكن جميلة قد اهتمت بإزالة الدم الذي سال فوق وجهها وثيابها، أخذت أمي سعيدة منديلاً تمسح عنها الدم وتكمد الجرح الذي فوق عينها دون أن تسألها عما حدث.

- لم يخطر ببالي أنه سينقضّ علينا بعرس كأنه ضربة من ضربات القضاء والقدر.

واصلت جميلة البكاء وهي ترتمي في حضنها:

- لابد أن أهرب هذه الليلة.

مهسترة، تنتفض وتبكي ظلت تعيدها.

- لابد أن أهرب الآن، لا أطيق أن أبقى في هذا المكان دقيقة واحدة، لابد أن أهرب الآن.

لابد أن تهرب الآن، لأنها إن لم تهرب هذه الليلة فإنها لن تستطيع أن تهرب أبداً، غداً سيعقد القران وستكون في عرف المجتمع ونظر القانون امرأة متزوجة، وسيكون الهروب بعد أن أصبحت على ذمة رجل آخر شيئاً مستحيلاً، لن تتولى المحكمة عقد قرانها مع العيد هذه المرة وإنما ستعاملهما باعتبارهما زانيين يستحقان السجن إن لم يكن الرجم بالحجارة حتى الموت كما كانوا يفعلون قديماً، أمي سعيدة تدرك رعب ذلك كله وتدرك ما تعانيه جميلة الآن من عذاب، ولكن إلى أين يمكن أن تهرب والرجل الذي تريد أن تهرب معه سافر بعيداً

ولا سبيل إليه، وكيف يمكن أن تهرب ومن حولها عرس يمتلئ بالبشر والعيون والبنادق، حتى لو انتظرت إلى أن ينتهي الحفل وتسللت مع الفجر خارج البيت فأين يمكنها أن تذهب خلال الساعات التي تفصلها عن طلوع النهار، وفي قرية صغيرة مثل «قرن الغزال»، سيكتشفون بعد لحظات هروبها ويأتون لإعادتها وإرغامها على الذهاب إلى بيت الزوجية مجللة بالعار والفضيحة، الوقت يمضي وموعد عقد القران لا يفصلهما عنه سوي هذه الليلة ونهار الغد، فما الذي يمكن عمله خلال ما تبقى من ساعات، لعلها تجد نصيراً في زوجة المتصرف التي لابد أنها تجلس باكية في بيتها، سترغمها على أن تفعل شيئاً هي الأخري، ستأتي بها في يوم الغد وستأتي بأولادها وبناتها يقيمون مناحة في هذا البيت ويبطلون هذا العرس، وإذا لم يفلح ذلك كله فإنها ستقف لهم وسط الخيمة عند كتابة العقد، وطالما أن الشرع يشترط موافقة المرأة فسوف تطالب على رؤوس الأشهاد بإحضار جميلة وأخذ رأيها بحسب ما يأمر به الدين وإلا أصبح عقد القران باطلاً وبات هذا الزواج حراماً، هم عادةً يتظاهرون بإرسال من يأتي بموافقة المرأة قبل كتابة العقد، يذهب ويعود ليقول إنها موافقة بدون سؤالها، إجراء شكلي هم يقولون، ولكنها ستكشف هذه المرة لعبتهم وستمنع كتابة هذا العقد المجافي للقرآن والسنّة. وبكلمات مقتضبة حاولت أمي سعيدة أن تنقل هذه الأفكار إلى جميلة التي توقفت منذ لحظات عن البكاء وظلت شاردة، ساهمة، كأنها لا تعي شيئاً من كلام المرأة العجوز.

قالت جميلة من خلال شرودها:

– ماذا لو لم تفلح هذه الجهود؟

- ستفلح بإذن اللّه .

وبلهجة باردة خالية من أي انفعال قالت جميلة :

- عندها سأقتله وأقتل نفسي .

كان الجو ثقيلاً داخل الغرفة ، والظلام صار دامساً ، ولم تعبأ أي منهما بأن تضيء النور ، في حين كان الصخب خارج الغرفة يبلغ منتهاه .

[٢٣]

وقبيل الفجر جاء الدرويش.

كان قد هبط مع منتصف الليل من أحد الشقوق التي يأوي إليها في الشعاب القريبة، وجاء إلى مقره القديم بمقبرة القرية يبحث في بقايا النذور التي يحملونها إلى ضريح سيدي أبو قنديل أو بين أكداس القمامة القريبة من المقبرة عن شيء يسكت به آلام الجوع.

تناهت إليه الزغاريد وأصوات المغنين والعازفين تنطلق من بيت العرس، ورأى المصابيح الملونة تسطع فوق بيت اليتيم، نسي جوعه وتذكر جميلة، أدرك أنهم الآن يحتفلون بزفاف «جميلته» على رجل آخر، ووضع طرف جلبابه في فمه ومسكوناً بالغضب والجنون انطلق يعدو باتجاه بيت العرس، رأى شبح رجل في البعيد، ظنه شرطياً فارتدّ مفزوعاً خائفاً من القبض عليه، اختبأ في الضريح وانتظر حتى توقف العزف والغناء، وقبيل الفجر بقليل انطلق الدرويش مثل كرة من النار حتى وصل بيت اليتيم، تسلق إحدى المواسير وجلس فوق سطوح الغرف العلوية لاهثاً يستطلع المكان، كان أهل القرية الذين حضروا العرس قد عادوا إلى بيوتهم، رأى على ضوء النجوم العازفين الثلاثة يحملون آلاتهم الموسيقية ويبتعدون، انتهى الصخب

والضجيج وبقي الصمت، صمت لا يقطعه إلا غناء الجنادب والحشرات أو ثغاء شاة من الشياه التي تقبع في الزريبة تنتظر الذبح، نظر من فوق السطح إلى غرفة جميلة، ازداد اهتياجاً وازدادت عروقه انتفاخاً وصار يصدر فحيحاً كأن أحداً أشعل في جوفه ناراً، لم يجد قريباً منه سلما أو ماسورة يتسلقها هابطاً، أراد أن يقفز ولكنه عندما ألقى نظرة على فناء البيت ورآه عميقا كقاع البئر عدل عن رأيه، وجد على السطح وتدا بشدون إليه حبل الغسيل، حاول أن يستعمل الحبل فتقطع بين يديه، وقف لحظة لا يدري ماذا يفعل ثم جاءه الحل، مجنوناً بالشهوة وحلم الارتماء فوق جسد جميلة خلع جلباباً وبنطلوناً ممزقين، بقي عارياً من فوقه النجوم ومن خلفه الظلام، عروقه نافرة وأحليله منتصبا والنار في جوفه تصدر فحيحاً لاهبا، بسرعة ربط أسماله بعضها ببعض وجدل منها حبلاً لكي يستعمله في الهبوط إلى فناء البيت، شد الأسمال إلى الوتد وما أن تدلي جسمه متعلقاً بها حتى تمزقت وسقط إلى الأرض، أطلق وهو يرتطم بالبلاط صرخة أخيرة، عالية، مدوية، كأنها انطلقت من حنجرة حيوان خرافي، ترددت أصداؤها في جوف الليل فأيقظت البشر وأفزعت الطيور، وهبت الكلاب في وقت واحد تملأ ليل القرية بالنباح. خرج أهل البيت مذعورين على صوت الصرخة والارتطام ليفاجأوا بمشهد الدرويش ملقى على ظهره في فناء البيت، عارياً كيوم ولدته أمه، تهشم رأسه وسال الدم خيوطاً تخضب وجهه، يده تقبض في تشنج على مزق من ثوبه، وإحليله نافر.

توافد الناس من أركان القرية الأربعة بجلابيب نومهم، يفركون أعينهم بأيديهم ويسألون بعضهم بعضاً عن سر هذا الصراخ الغريب الذي انطلق من بيت اليتيم، وجدوا أن سيارة الشرطة قد سبقتهم

وتوزع أفرادها يعاينون المشهد ويمنعون الناس من الاقتراب، عرفوا أن الدرويش وجد عارياً في بيت اليتيم وهو مهشم الرأس، أخذوا العناصر الأولى للقصة وصاروا يضيفون إليها ويعيدون خلقها وروايتها بأشكال مختلفة، فالدرويش في إحدى هذه الروايات لم يمت لأنه سقط من السطح، وإنما لأن اليتيم اكتشف أمره عندما جاء هاجماً علي دار ابنته فضربه بعمود من حديد على رأسه وحطمه، ورواية أخرى تقول بأن جميلة عندما استيقظت مرعوبة على جسد الدرويش يرتمي فوقها عارياً مدت يدها إلى جرة من الجرار وكسرتها فوق رأسه، تنوعت الروايات، وبدأت الشرطة تباشر روتينها، جاء من عاصمة المحافظة ضابط يتولى التحقيق كما هي العادة عند حدوث مثل هذه الفاجعة، واعتبر كل من كان موجوداً في البيت ليلتها متهماً حتي ينجلي الأمر، اعتزل اليتيم الناس ولم يعد أحد يراه إلا أثناء ذهابه إلى مركز الشرطة عندما يستدعونه للتحقيق، لا أحد يزوره سوى المتصرف الذي كان يحرص على حضور جلسات التحقيق بنفسه مؤكداً لليتيم بأن الأمر لا يعدو كونه استكمالاً لبعض الإجراءات الروتينية التي لا تناله ولا تنال أسرته بشيء يمس الشرف، ومريضة لازمت جميلة الفراش، أصابها مشهد الدرويش وهي تراه ملقى على تلك الشاكلة في فناء البيت بصدمة جعلتها تفقد توازنها وتسقط أمام باب الدار مغشيا عليها، وعندما أفاقت ورأت أن إجراءات العرس قد توقفت، أدركت أن حلقة من حلقات العذاب قد انتهت وأسلمتها إلى حلقة أخرى، كانت تحس بحزن غامض نحو الرجل الذي مات كأنها مسؤولة عن مصرعه، ظل مشهد موته لاصقاً بأهدابها، ما أن تغمض عينيها حتى تراه فتقوم مفزوعة من نومها، كان الدم الذي وجدوه يلطخ أحد فساتينها سبباً للاشتباه بها وإدخالها

دائرة التحقيق ونقلها إلى مستوصف القرية لأخذ عينات من دمها، مرت أيام ثقيلة قبل أن تأتي نتيجة التحليل من المعامل الطبية في المدينة بأن الدم الذي وجدوه على الفستان إنما هو دمها وليس دم الدرويش. وبعد أن انتهى التحقيق إلى أن موت الدرويش كان موتاً عرضياً بسبب وقوعه من فوق سطح البيت، ظلت تلك السحابة التي أحدثتها الفاجعة معلقة فوق بيت اليتيم، لا تذيبها شمس الصيف القائظة ولا تزيحها من مكانها رياح القبلي المحملة برمال الصحراء.

اقتنعت الحكومة ببراءة اليتيم، ولكن خيال القرية ظل مولعاً بالحكايات التي صاغها رافضاً أن يتخلى عنها، ومقهى القرية تحول إلى فم لا يجد علكة يمضغها أفضل من هذه العلكة:

- ها هي صداقة اليتيم للمتصرف تؤتي نتائجها، تنجيه من تهمة القتل، وتبعد عنه حبل المشنقة.
- ذهب الدرويش ضحية الحب الأعمى، وقد يصبح قبره ذات يوم مزاراً للعاشقين.
- من كان يظن بأن للدرويش هذه القدرة العجيبة على الحب، حتى بعد أن مات ودفن بقي ذلك الشيء واقفاً.
- جسمه في القبر ولكن روحه المعذبة ستظل تسكن بيت اليتيم إلى الأبد.

كان العيد قد دخل المقهى ووقف بجوار سلطان وهو يصنع له القهوة، متجنباً مشاركة الآخرين الثرثرة ولعب الورق، متأملاً صراع الآلهة الرومانية فوق جدران المقهى، رأى كيوبيد يملأ جرابه بالسهام ويستعد لإطلاق إحداها، فتساءل بينه وبين نفسه منذ متى ظل هذا السهم مشدوداً بين القوس والوتر دون أن ينطلق.

قال عاشور غامزاً بعينه للعيد :

- ما أتعس مصير من يحبك يا جميلة يا ابنة عامر اليتيم .

دعابة ضحك لها رواد المقهى ، ولكن العيد ونقيضاً لما يعرفون عن طبعه الهادئ ، فاجأهم بأن تحرك من مكانه غاضباً وهجم على الرجل يضع يديه في عنقه ، تعاون عدد من الرجال على فك الاشتباك بينهما وسحب العيد بعيداً عن عاشور .

- سأقتلك إذا عدت لمثل هذا القول .

متبرماً بالمقهى ورواده الذين صارت حياة جميلة طعاماً لأقاويلهم وشائعاتهم ، ترك فنجان القهوة دون أن يمسه ، وذهب متسكعاً في الطرقات على غير هدى ، وجد نفسه يطوف قريباً من بيت اليتيم دون أن يجرؤ على الاقتراب منه ، ها هو يبعثر أيامه في القرية ، استنفد مدة الإجازة ، وتخلى عن مطالعة دروس الجامعة ، وظل ضائعاً يفتعل المعارك في المقاهي ويحوم ببيتها كالطائر الذي هدموا عشه ، دون أن يجد سبيلاً إلى رؤيتها . شاهد من مكانه البعيد أمي سعيدة تخرج من بيت اليتيم يتبعها كلبها ، انتظر حتى وصلت إلى بيتها وذهب إليها ، كان قد زارها مرة واحدة منذ عودته إلى القرية إثر موت الدرويش ، سألها بلهفة وهي تضع أمامه كوباً من رحيق الأعشاب .

- أخبريني كيف حالها .

- غداً سوف تذهب إلى المدرسة لأداء الامتحان .

قال مبتهجاً :

- إذن فقد تعافت .

- لم تتعاف بعد ، ولكنها قالت بأن المرض لن يمنعها من أخذ الشهادة هذا العام .

- ألا يضرّ ذلك بصحتها.

- لم أستطع إقناعها بالعدول عن هذه الفكرة، لقد صارت عنيدة، إذا ما حددت لنفسها هدفاً لا تتنازل عنه أبداً.

منحته هذه الكلمات بعض الطمأنينة، فهو أيضاً يقع ضمن دائرة أهدافها، ثم إنه يريدها قوية قادرة على مقاومة كل هذه القوي التي انطلقت من كهوفها تبغي بها شراً، إنه يحبها ويريد أن يكون عوناً لها ولكنه يرى نفسه عاجزاً عن تقديم أي شيء يدفع عنها هذا العناء الذي تلاقيه، إنها مثل إلهة أحبت إنساناً فانياً ودخلت حروباً مع آلهة الرعد والبراكين والعواصف المرسومة على جداريات المقهي، وهي الإلهة الرقيقة التي تصنع الخصب وتحمل في جعابها سهام الحب وتعشق حدائق الورد وجداول الماء المجدولة بضوء القمر، جاءوا يقذفونها بالشهب والنيازك ويثيرون في وجهها الصواعق والبراكين والعواصف، وهو ملتصق بالأرض، يرقب في عجز هذه الحرب ولا يجد القدرة على أن يفعل شيئاً.

لعله لو رآها لاهتدى إلى شيء عظيم يفعله من أجلها، إنه على يقين من أن لقاءً يتم بينهما سوف يفجر في نفسه القوة ويلهمه ويلهمها طريقاً للخلاص، قال يخاطب المرأة العجوز:

- كيف أستطيع أن أراها.

- لا أعتقد أن الوقت مناسب هذه الأيام.

إنه أيضاً يعرف ذلك، ولكن ما حيلته والعطش لرؤيتها يحرق حلقه، حاول أن يجد كلمات قادرةً على احتواء هذا الصخب الذي يضج به صدره، لعل أمي سعيّدة تجد سبيلاً لنجدته، لكن الكلمات

عاجزة، وأمي سعيدة لا تملك لعونه سبيلاً، كان من رأيها أن يعود إلى عـمله ودراسته وأن يدع هـذه الأيام الثقـيلة تمـر فلن يحـدث شيء في المستقبل القريب يستوجب منه البقاء.

قالت وهي تودعه:

- كل شيء بأوانه، فلا تجزع يا ولدي ولا تتعجل الأمر.

قال في نفسه:

- امرأة مباركة، تعرف ما لا نعرف، وترى ما لا نرى.

[٢٤]

جاء مصرع الدرويش فأوقف العرس ولكنه لم يطفئ نهم المتصرف للفوز بجميلة، أو ينقص من رغبته الأكيدة في إتمام الصفقة التي عقدها مع والدها، إنه الآن أكثر حماساً وتصميماً علي إتمام العرس، والدرويش الذي لقي مصرعه وهو يسعى إليها لم يزد عواطفه نحوها إلا توهجاً واشتعالاً، لقد أيقظت بجمالها العواطف الميتة لدى رجل لا عقل له، ولا رجولة فيه، حتى لقي حتفه في سبيلها، فكيف يتركها من يملك عقلاً كعقله ورجولة كرجولته، لم يخطر بباله لحظة واحدة أن انتهاء العرس على تلك الطريقة الفاجعة، يعني نهاية أحلامه في أن يأخذ جميلة إلى بيته زوجة جديدة يضيفها إلى زوجته الأولى، بل بالعكس من ذلك، إن الحادثة التي اعتبرها الناس نذيراً بهدم ما بناه، لا يعتبرها المتصرف إلا تعزيزاً وترسيخاً لهذا البناء، وإذا كانت قد زرعت هماً عظيماً في بيت اليتيم، وجعلت ابنته أكثر ضعفاً وهواناً فمعنى ذلك أن مركزه الآن في مواجهة جميلة أكثر تفوقاً وقوة. إن المقاومة التي أبدتها لفكرة الزواج منه سوف تتضاءل وتنهار بعد أن جاءت هذه الضربة تكسر روحها المتكبرة العنيدة، وستأتي الآن إلى بيته طائعة، ذليلة. مرةً أخرى يجد المتصرف نفسه قادراً علي

استخلاص نتيجة تخدم أغراضه من بين أنقاض الكارثة، ولقد حرص على أن يعرف كل الناس أنه مازال وفياً لكلمته، لا يتخلى، برغم الظروف الحالكة ورائحة العار والفضيحة من إنسانة بريئة مثل خطيبته، ويطلق على بيت اليتيم تسمية جديدة هي «بيت صهري»، إذا كان عقد القران لم يكتب كما كان مخططاً له، فإنه لا شيء يمنع من اعتبار الحفل الذي أقيم حفل خطوبة، واعتبار جميلة منذ ذلك اليوم خطيبته التي لن يهنأ حتى يراها تتمدد كجدول العسل فوق سريره. ولقد انتهى الآن موسم الامتحانات، والحادث الذي عطل إتمام العرس تقادمت عليه الأيام، وصار من حقه على اليتبم أن يفتح معه الموضوع ويحددان معاً يوماً قريباً لعقد القران وإتمام الزفاف.

كان اليتيم قد مل جلوسه الدائم في مربوعة البيت، فصار على حياء وخجل يعود إلى حياة القرية ويصبح جزءاً من دورة أيامها الرتيبة، يذهب بانتظام إلى عمله في المستودع، ويرتاد السوق يوم الجمعة ويذهب أحياناً إلي الحلقات التي تعقد أمام الدكاكين في المساء، وجد فتوراً واضحاً في لقاء الناس به، وعزوفاً عن الحديث معه، اختفت تلك البهجة التي كان يراها في أعين الناس عندما يلتحق بمجالسهم وروح الدعابة التي يستقبلونه بها، لعل سلوكه إزاء ابنته، أو انطفاء الأمل في قلوب الرجال الذين يحلمون بالزواج بها بعد أن صارت موعودة للمتصرف، أو تفضيله لرجل غريب عن القرية ليكون صهراً له بدلاً من أحد أبنائها، أو مصرع الدرويش في بيته وما رافق ذلك من قصص واتهامات، لعل سبباً من هذه الأسباب أو لعلها مجتمعة هي التي أسهمت في خلق هذه الجفوة بينه وبين الناس، أو لعله دافع آخر لا علاقة له بما تذكره من أسباب وإنما بهذا الصيف الذي جاء ليكون أقسى فصول الصيف التي عرفتها القرية منذ أعوام،

محملاً بالعرق والذباب وزوابع الرمل، يملأ العيون بالغبار ويذيب الطراوة في قلوب الرجال، فيصبحون هم أيضاً أكثر قسوة وخشونة.

وبرغم أن أحداً لم يحاول يوماً استثارة مشاعره أو الخوض معه في موضوع من المواضيع التي لا يود إثارتها أو سؤاله حتى من باب الفضول عن تفاصيل التحقيقات التي أجريت معه، بالرغم من ذلك فقد أحس بأن شرخاً عميقاً يصعب سدَّه قد أصاب علاقته بهؤلاء الناس، إنه يذكر الآن بحنين بالغ تلك الأيام عندما كان كماً مهملاً، لا يهتم أحد بحضوره أو انصرافه ولا يثير من حوله غضباً ولا نفوراً ولا بهجةً ولا رضى، لقد كانوا هم أيضاً بالنسبة له كماً مهملاً لا يهتم بهم ولا يعبأ برواحهم ومجيئهم، لقد كان غائباً عن الدنيا، أو لعله لم يكن غائباً عن الدنيا وإنما غائب عن الناس، كان في الدنيا كالريح اللينة التي تمر فلا تثير مشاعر أحد ولا تسعي لجلب اهتمامه، وكان مثل الريح حراً، لا يرى هذا الصراع الذي ينشب بين الناس ولا يحس بهذا الحصار الذي يحس به الآن ويجعله أكثر ضيقاً وتبرماً بالناس والحياة، لقد انتهت بسرعة حفلات التكريم التي أقاموها له عندما عاد إليهم وأصبح واحداً منهم، لقد كان مجرد احتفال قصير مثل الذي يقيمونه لرجل عاد إلى القرية بعد غيبة طويلة، ثم ما يلبث هذا الرجل أن يصبح جزءاً من معاناتهم وأشجانهم وخصوماتهم وأحقادهم، إنه ليس غاضباً من أحد، ولكن العبء كبير، لقد جاءت يد خفية، مجهولة، تدفع به من ظهره ليقفز من مكانه على السور إلى داخل الميدان الذي تدور فيه المعارك والصراعات ويصبح طرفاً فيها، إنه لايستطيع أن يعود كماً مهملاً، بريئاً وحراً كما كان، وعليه أن يواصل السير إلى آخر الشوط.

[٢٥]

وجد اليتيم في المسجد ملجا هادئاً يبعده عن صخب الأسواق وحلقات النقاش الدائر أمام الدكاكين فأكثر من التردد عليه، رأى الشيخ نصر الدين، إمام القرية وعالمها الجليل، يرحب به ويبش في وجهه ويظهر له وداً لم يعتقد أن أحداً في القرية مازال يحتفظ له بمثله، فأقبل على صحبته، وصار يواظب على حضور صلاة الجماعة في الأوقات الخمسة، ويتأخر أحياناً بعد صلاة المغرب للجلوس على المحراب أمام المسجد يستمع إلى أحاديث الشيخ ويستفيد من علمه وتقواه، ويجد في الجلوس إليه راحة وطمأنينة تمسح عن قلبه عناء النهار، بل صار أحياناً يدعوه إلى تناول الشاي في بيته بعد صلاة العصر فيقبل الشيخ نصر الدين عزومته شاكراً، وتجرأ اليتيم ذات يوم وسأله أن يبارك البيت لئلا تكون روح ذلك المجنون الذي مات صريعاً قد سكنته كما يروج بعض الناس، فطاف الشيخ بكل غرف البيت مرتّلاً التسابيح والأوراد، وداعياً لليتيم بالبركة ولبيته بالطمأنينة والسلام، كانت جميلة ماتزال في تلك الأيام مريضة تلازم فراشها عندما جاء والدها يصحب رجلاً بديناً، قصير القامة، تغطي اللحية البيضاء صدره، عرفت أنه الشيخ نصر الدين الذي أبلغتها أمها منذ

لحظات بأنه سيأتي ليبارك غرفتها كما فعل مع بقية غرف البيت، دخلت تحت الأغطية وعادت إلى النوم إلا أن والدها جاء يسألها أن تقوم وتقبل يد الشيخ وتتلقى منه البركة، رأته يمد نحوها يداً يغطي أصابعها شعر كثيف، وضعت فمها فوق الأصابع وهي تغمض عينيها، ثم انصرف إلى قراءة أوراده وغادر بعدها الغرفة.

وبمثل ما كان اليتيم حريصاً علي صداقته الجديدة للشيخ نصر الدين فقد كان حريصاً علي العلاقة التي تربطه بالمتصرف، مؤمناً بأنه أسبغ عليه عطفاً كبيراً عندما منحه بيتاً جديداً، وعملاً كريماً مريحاً، ووقف بجواره في أوقات الشدة والضيق، ورأى في صداقته للشيخ نصر الدين من جهة، وعلاقته بالمتصرف من جهة أخرى شيئين يكملان بعضهما البعض، قطبين ترتكز عليهما حياته ويمنحانها توافقاً وانسجاماً، أحدهما صار في ذهنه معادلاً للدين والآخر معادلاً للدنيا، فهو هنا في رفقة الشيخ وحمايته وارتياد المسجد وإقامة الصلاة في أوقاتها يعمل لآخرته كأنه سيموت غداً، أما في صحبته للمتصرف فهو يعمل لدنياه، كأنه سيعيش أبداً، كلاهما يكمل الآخر ويمنحان حياته غطاءً يقيه عثرات الدنيا وظلمات القبر، لاحظ خلال هذه الأيام التي أعقبت الحادث أن المتصرف تجنب الحديث في موضوع العرس طوال هذه المدة، فارتاح لذلك وتمنى أن يستمر الأمر على هذه الحال، ما ضر لو تأخر هذا الزواج الذي جلب إليه المشاكل لمدة عام آخر، فالمتصرف لن يصبح فجأة شيخاً هرماً وابنته لن تربي أجنحة وتطير، وهو لن يتراجع عن كلمته التي أعطاها للرجل طالما أوفى بوعوده، كل ما في الأمر أن ذلك يتيح لكل الأطراف وقتاً يتجاوزون فيه آثار هذه الفاجعة ويتيح لابنته زمناً كافياً تطيب فيه نفسها لهذا الزواج الذي تنفر منه الآن، فلا يبقى مضطراً لإكراهها عليه. إنه مازال لا يفهم لماذا

ترفض ابنته رجلاً بيده مفاتيح النعيم الأرضي، إن كل أب في القرية يتمنى مصاهرة رجل له نفوذ المتصرف وسلطانه، فلماذا تريد أن تقفل باباً فتحه اللّه عندما سخر هذا الرجل يغترفون من خيره، ولكنه أدرى بمصلحتها وسيعمل مايراه نافعاً لمستقبلها، وهو على يقين من أنها ستفهم ذات يوم دوافعه وستدرك الخير الذي أراده لها من هذه الزيجة، فليت المتصرف يساعده بقليل من الصبر وقليل من الوقت، ولكنه يعرف في دخيلة نفسه أن المتصرف لن يستمر طويلاً في سكوته وإنه الآن وبعد أن أكملت ابنته امتحاناتها، سوف يأتي ليطالب بحقه في إتمام العرس الذي بدأ ولم يتم، تري ماذا سيقول له، وكيف سيقنعه بوجهة نظره التي لا ترجو إلا الفائدة للجميع، رأى، والشيخ نصر الدين يجلس قريباً منه وقد خلا المجلس إلا منهما، أن يشركه في حيرته وأن يستضيء بنور علمه وحكمته بعض ما أدلهمّ عليه من أشياء، قال مفتتحاً الحديث:

- بمثل ما لأبنائنا وبناتنا من حقوق علينا، فإن لنا نحن أيضاً حقوقاً عليهم، أليس كذلك يا سيدنا؟

ارتاب الشيخ في السؤال وأصدر دمدمة غامضة تبين منها اليتيم قوله:

- نعم، نعم، إن هذا صحيح.

- وأنا أريد أن أستشيرك في أمر ابنتي جميلة التي أرجو ألا أكون مقصراً في حقها، لقد أوصيتني بها خيراً، ولا شك أنك تعلم أن هناك من جاء يخطبها..

وقبل أن يكمل كلماته رأى الشيخ يقف منتفضاً، مرتجفاً، إلى حد

أن اليتيم أشفق عليه من السقوط فوق الأرض انفعالاً وغضباً، وقف هو الآخر مذعوراً يسأل في دهشة:

- لا بأس يا شيخ نصر الدين.

قال الشيخ جافلاً:

- لا شيء، لا شيء، أريد أن أجدد الوضوء.

دخل مرتعشاً، محموماً، إلى حمام المسجد، وترك اليتيم مزروعاً في مكانه يملأ وجهه الاندهاش، وقف اليتيم قليلاً حتى زايله الذهول، ومتطيراً، متشائماً، ذهب وجلس في بيته يطرد عن وجهه الذباب الذي جاء يهاجمه بأعداد لا حصر لها، وينتظر زيارة المتصرف، وما أن جاء وبدأ حديثه مهنئاً بانتهاء الامتحانات حتى أدرك اليتيم أن الموضوع الذي لا يريده أن يفتح، سوف يفتح الآن، وأن عليه أن يقرر بنفسه وبدون معونة من الشيخ نصر الدين ما يجب عليه أن يفعله، رأى أن يبدأ هو الحديث بدلاً من أن ينتظر المتصرف حتى يتكلم، ليأخذ المبادرة في يده ويباغت المتصرف الذي يتهيأ الآن للكلام، سيتيح له ذلك فرصة أفضل للسيطرة على الحديث، لقد اتخذ دائماً موقف الدفاع ثم الإذعان لمبادرات المتصرف فليجرب هذه المرة الحديث من موقع الهجوم، باشر كلامه قائلاً:

- أعتقد أنه قد حان الوقت لأن نتحدث في موضوع العرس.

- منذ متى صرت تقرأ ما في الصدور، كأنك تعرف أن هذا ما أردته أن يكون موضوع حديثنا اليوم.

لم تكن قد تهيأت لليتيم فرصة يرتب فيها أفكاره، وجد نفسه يخاطبه قائلاً:

- صار من المتعذر بعد فاجعة كتلك الفاجعة أن نقيم في بيتنا عرساً هذا الصيف، وأرى أن يتأجل إلى الصيف القادم.

قال كل شيء دفعة واحدة، تمنى لو أنه تمهل قليلاً وأطال في المقدمات والمبررات حتى يكون حديثه أكثر ليونة ورفقاً، انتظر وقع ذلك على الرجل.

- لقد هولت الأمر يا يتيم.

رآه يقولها ضاحكاً، محاولاً تهوين الموقف وكأنه على يقين من أن المسألة لن تقتضيه سوى بضع كلمات حتى يقنع اليتيم بالعدول عن رأيه، يعرف اليتيم مكر الرجل ودهاءه، وما هذا الضحك إلا نوع من الغش في اللعب، ولذلك فهو سعيد لأنه بدأ الحديث، حريص على أن تبقى المبادرة في يده إلى آخر هذا الشوط من اللعب، واصل المتصرف حديثه:

- أن يرمي مجنون بنفسه إلى الموت، فهذه ليست مسؤولية أحد، ولا يجب أن يقف موته حاجزاً عن المضي في مشروعنا، العن الشيطان يا رجل ودع الأشياء تمضي كما خططنا لها.

ولكن اليتيم لم يلعن الشيطان، إنه بدلاً من ذلك قال:

- إنك تعرف أن ابنتي مازالت عند موقفها من رفض هذا الزواج، ولن يضيرنا شيء لو أمهلناها بعض الوقت حتى يطيب خاطرها وتذهب إلى بيتها سعيدة راضية.

توجس المتصرف شراً، ها هو اليتيم يدخل في الموضوع عاملاً جديداً لم يرد في حديثه من قبل، هو رفض ابنته للزواج منه، فما الجديد الذي طرأ هذه المرة. كلاهما يعلم أنها رافضة، ولكن متى كان

الآباء يعيرون انتباهاً لآراء بناتهم، أليس هو والدها ومن حقه أن يعطيها لمن يشاء.

– ما هذا الكلام يا يتيم، هل صارت الدنيا تمشي بالمقلوب، أم إنها فعلاً تمشي بالمقلوب وأسلمنا أمر تقريرها للنساء.

وغاضباً واصل حديثه:

– إذا كان ما يزعجها أنها تأتي إلى بيت به ضرة، فلقد أعددت لها بيتاً منفرداً تكون هي سيدة الأمر والنهي فيه، ألا يكفي هذا لإرضائها؟

ظل اليتيم هادئاً لا يبدي تأثراً لغضب المتصرف وهياجه، لقد وجد في نفسه القوة على قول ما قاله، فأحس براحة عميقة لم يفسدها ما أصاب المتصرف من توتر وهياج، ولم يشعر بأدنى رغبة في إرضائه أو التسرية عنه، كأنه لم يعد يهمه كثيراً أن يغضب أو يرضى، أو كأن إرضاءه سيكون تسليماً للمواقع التي تحصن بها عندما بادر بالهجوم، ولم يحرجه أن المتصرف تكلم بصوت عال يصل إلى أسماع ابنته وزوجته في الغرف الأخرى، لن يضيره أن يعرفا أنه يتكلم مع المتصرف كما يتكلم الند للند.

هدأ صوت المتصرف قليلاً عندما جاءت سيرة الانتخابات، صار يتحدث بأسلوب يتفق مع خطورة القضية، كان اليتيم يعرف أنه لن يطول الوقت قبل أن يرمي المتصرف بأهم أوراقه في اللعب، استمع إليه يعيد كلامه القديم عن هذه الانتخابات التي قرب موعدها وواجب الإسراع بالعرس ليباشرا فور انتهائه خوض معركتها. وصار اليتيم يفتش في ذهنه عن حقيقة رأيه الآن في الانتخابات، لقد ألهته

الأحداث التي مرت عن التفكير فيها ولم يجد فرصة يختبر مشاعره نحوها ويعرف إذا ما كان قد لحقها التبدل أم أنه مازال متحمساً لها كما كان سابقاً، فوجئ الآن بأن ذكر الانتخابات لم يعد يثير في نفسه تلك النشوة القديمة التي كان يحس بها من قبل، إنه لا يكره أن يكون سيداً في قومه، بل لعله لا يكره أن يسعى المتصرف لتمكينه من الفوز بهذا المنصب، ولكن المسألة تبدو لأول مرة خاليةً من ذلك البريق الذي كان يدهشه ويخترق قلبه كالسحر، إنه الآن وهو ينظر إلى الموضوع بهدوء ودونما إثارة أو حماس لا يجد في نفسه القدرة على التسليم بأن القضية بهذه السهولة التي يتحدث بها المتصرف وكأنه يتحدث عن تعيين غفير أو سائق يلحقه بمكتبه، من أدراه أن الحكومة ليس لها مرشح آخر يهمها الوصول به إلى هذا المركز، ثم لماذا تتخلى عن نائب أثبت ولاءه لها وتفضل عليه رجلاً مثله لا أحد في الحكومة يعرف عنه شيئاً عدا المتصرف، ثم حتى لو سلم جدلاً أن للمتصرف من النفوذ ما يستطيع به إقناع الحكومة بقبوله نائباً عن هذه المنطقة، فلماذا لا يبادله ثقة بثقة، لماذا هذا الإصرار العجيب على أن يضمن حقه أولاً، إنه صادق في وعده له بالزواج من ابنته بعد أن تنقضي هذه الأيام الحرجة، فلماذا الاستعجال إذن؟ خواطر ظلت تراوده ولكنه يعرف أنه لن يستطيع الإفصاح عنها. وبعد أن ألقى المتصرف بكل الحجج التي أراد أن يثبت بها صحة رأيه في إقامة العرس الآن، أضاف شيئاً لم يكن اليتيم قد فكر فيه أو خطر له على بال، عندما قال بابتسامة لا معنى لها:

- أما إذا كان السبب وراء رغبتك هذه هو أن تستفيد من مرتب ابنتك بعد تعيينها، فإنه لا مانع عندي من أن تقدم إليك مرتبها كاملاً ولمدة عامين إذا أردت.

هل لابد أن يربط كل شيء في الدنيا بالمال والمنفعة، ولكن لا بأس، فحقائق الحياة لابد أن تكون حاضرة في أذهان أمثاله من أصحاب المناصب والطموح، وهي مسألة يستحق أن يفكر بها عندما يأتي الوقت لذكر الشروط وكتابة عقد القران، إن عليه أن يتعلم من هذا الرجل إذا أراد لنفسه النجاح، ولكنه يعلم الآن أن علاقته بالمتصرف قد وصلت إلى تقاطع طرق يوجب عليه أن يتخذ موقفاً وأن يتحمل نتيجة هذا الموقف، إن قضية كهذه أصعب من أن يتخذ فيها قراراً سريعاً، فهو لا يريد أن يفقد العلاقة الحميمة التي تربطه برجل ملك مفاتيح المستقبل، ومن ناحية أخرى، فهو لا يريد أن يذعن هذا المساء لمشيئته ويسلم له كل مواقعه.

- أمهلني بعض الوقت للتفكير واستشارة أهل بيتي.

ها قد هرب من المواجهة وأرجأها إلى مناسبة أخرى. قال المتصرف ساخراً:

- لقد عدنا مرةً أخرى للاستخارة برأي النساء.

لم يقل اليتيم شيئاً، إحساسه بالنصر لأنه لم يخضع لطلباته لم يمنع شعوراً بالإثم يتسلل إليه وهو يرى علامات الخيبة وقد ارتسمت على جبين الرجل الذي غمره دائماً بأفضاله، رآه يمد يداً فاترة للوداع، فأخذ يده يصافحها بقوة وحرارة وكأنه يطلب منه الصفح.

[٢٦]

كان الشيخ نصر الدين أول من جاء إلى المسجد، توضأ وصلي ركعتين تحية المسجد، قرأ حزباً كاملاً من القرآن، وانتظر حتى امتلأ صحن المسجد وردهاته الداخلية بالقادمين لصلاة الجمعة، حان موعد الصلاة وقام للجلوس على المنبر وفي يده كتاب تمزق غلافه واصفرّت صفحاته وامتلأ بالأشرطة اللاصقة تربط أجزاءه المفككة، ارتفع الأذان الأول والثاني والثالث، فوقف وفتح الكتاب يقرأ بأسلوب منغم أشبه بقراءة التراتيل الخطبة الأولى لصلاة الجمعة:

«الحمد لله، الحمد لله الذي خلق أبانا آدم من طين وسواه، وجعل ذريته متفرقة فلا يعلمها أحد سواه، ففريق أفقره وفريق أغناه، وفريق أسعده وفريق أشقاه، وفريق منعه وفريق أعطاه، وفريق أبعده وفريق أدناه، وفريق أماته وفريق أحياه، أما بعد. . .».

ثم مضى يكمل الخطبة التي اختتمها بالحديث الشريف:

«اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وجلس قليلاً يتمتم ببعض الأدعية ثم قام للخطبة الثانية وهي الخطبة التي يتكرر قولها في كل صلاة جمعة حتى صار يقرؤها من

الذاكرة دون أن ينظر في صفحات الكتاب المفتوح بين يديه، واستجار وطلب من اللّه العون والمغفرة والهداية لسائر المسلمين، ومن خلفه أصوات المصلين تردد في بطء وخشوع آمين، آمين، أقفل الكتاب وقال وهو يهم بالهبوط من فوق المنبر الكلمات التي تعود أن يخاطب بها المصلين استعداداً لإقامة الصلاة:

«عباد اللّه، اذكروا اللّه يذكركم، واستغفروه يغفر لكم، واشكروه على نعمه يزدكم، وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء.. إن.. الصلاة.. تنهى.. عن الفحشاء».

تكسر الصوت وتهدج، ترنح وهو يهبط الدرج وتعثر، تلاشى صوته، ثم أغمض عينيه وتهاوى ساقطاً بين أيدي عدد من المصلين في الصف الأمامي، أخذوه إلى جانب من المسجد وأسندوا ظهره إلى الحائط، رشوا فوق وجهه الماء، استعاد وعيه، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف، تقدم واحد منهم ليؤم بهم الصلاة بدلاً منه، وعندما فرغوا من صلاتهم نقلوه إلى بيته ليرتاح وينام، دون أن يعرف أحد سبباً لهذا المرض المفاجئ الذي أصاب الشيخ.

في صباح اليوم التالي غادر الشيخ نصر الدين مسكنه متجهاً إلى مركز شرطة «قرن الغزال»، أثار وجوده في المركز شيئاً من القلق والفضول لدى أفراد الشرطة الذين تحلقوا حول براد الشاي يتناولون إفطارهم، أدخله أحدهم إلى الضابط الذي تلقاه مرحباً مستفسراً عن صحته، متسائلاً عن السبب الذي دعاه إلى الخروج من بيته وهو مازال متعباً لم يتعاف بعد، قال الشيخ:

- لقد جئت لأعترف أمام اللّه وأمامكم بما ارتكبت من إثم وخطيئة.

استغرب الضابط متسائلاً عما يمكن أن يرتكبه شيخ تقي مثل هذا الشيخ من مخالفات، لعله نسي أداء فرض من الفروض أو تأخر في أداء صلاة أو صدقة أو زكاة، وظن أن مراكز الشرطة سلبت اختصاصات الملائكة وصارت تتدخل في شؤون كهذه، واصل الشيخ حديثه:

- يريحني كثيراً أنني جئت لأعترف، فالاعتراف بالذنب فضيلة كما تعلم، ومن نعم الله على عباده أن جعل باب التوبة مفتوحاً دائماً للعصاة التائبين.

قال الضابط وهو مايزال غارقاً في حيرته:

- إنك مثال للخير والصلاح والاستقامة يا شيخ نصر الدين، ولو أن البشر جميعاً كانوا صالحين مثلك لما وجد ضابط مثلي عملاً ولانقرضت مهنتنا من الدنيا.

- كل ابن آدم خطّاء، ولكنني عازم بنية صادقة على إصلاح الخطأ وتصحيحه، ومن أجل هذا جئت لأضع نفسي تحت تصرف العدالة.

وأضاف قبل أن يمنح الضابط فرصة للسؤال:

- إن الطفل الذي يتحرك في أحشاء تلك الصبية إنما هو طفلي.

امتلأ وجه الضابط بتعبير غريب لم يكن اندهاشاً أو استغراباً أو سخرية بقدر ما كان وجوماً وسكوناً، كأنما تعطلت حواسه، غير مصدق لما يسمع، أو غير قابل لأن يسمع ما يسمع، أو يرى ما يرى، في حين واصل الشيخ اعترافه غير عابئ بما طرأ على وجه الضابط من تحولات:

- لقد ارتكبت معها الفاحشة التي نهت عنها السماء، إنها الغواية التي يبثها في قلوبنا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فلم أعرف كيف أقاوم ضعفي، وفعلت ما فعلته معها عندما جاءت مع الفجر تعترض طريقي عند برج النعام.

- ولكن من هي؟

قالها الضابط بصوتٍ واهن ضعيف لم يعبأ الشيخ بسماعه فمضى يقول:

- لذلك فقد جئت لأسجل اعترافي وأبدي استعدادي للزواج منها في الحال.

وعاود الضابط طرح السؤال بصوت استعاد شيئاً من حيويته هذه المرة:

- ولكن من هي يا شيخ نصر الدين؟

- أريد أن أتزوجها ستراً للفضيحة ورحمةً بالجنين الذي في بطنها.

عاد الضابط يلح على معرفة اسم المرأة التي زنى بها الشيخ:

- لم تقل لي من هي.

صمت الشيخ قليلاً قبل أن يقول:

- جميلة ابنة عامر اليتيم.

ما الذي جرى لهذا الشيخ الذي لابد أنه قد بلغ السبعين من عمره، لم يكن ما قاله قابلاً للتصديق، كان الضابط على يقين من أن شيئاً ما خطأ، لعله في نظام الكون، هل هو الجنون؟ ولكن الشيخ هادئ الأعصاب يتحدث بطلاقة وعفوية ويدلي بأقواله حول حادثة الزنى

بوقار واتزان، لا تحس وراء سحنته أي أثر لتلك الشحنات البركانية التي تقذف بها عادةً الأعماق الموتورة لرجل مجنون.

لم يجد الضابط شيئاً يقوله للوهلة الأولى، ظل صامتاً يتأمل الشيخ الذي يطفح وجهه بسعادة من أزال عن قلبه حملاً كبيراً، مهيباً، جليلاً، وقد بدت لحيته الكثيفة وكأنها صنعت من السحب البيضاء، أحس برغبة لأن يخرج إلى فناء المركز يستنشق الهواء، وفي يقينه أن عطباً أصاب جوهر الحياة حتى جعل عقلاً تربى في رحاب كتاب الله وصمد كالقلاع الكبيرة في وجه أهواء النفس يتهاوى وينهار، تذكر أن الشيخ كان ضحية مزاح ثقيل عندما أرسلوا إليه غولة وهمية تلاقيه عند الفجر قريباً من برج النعام وتساءل إذا كانت تلك الحادثة قد تركت في عقله أثراً لم يبرأ منه حتى الآن، عاد وفي يده طاسة الشاي التي قدمها للشيخ قائلاً:

- يبدو أنك متعب قليلاً يا شيخ نصر الدين، وأرى أن تذهب إلى البيت لترتاح بضعة أيام وسوف تدرك أن هذا الإثم الذي ارتكبته مع الفتاة ليس إلا أضغاث أحلام، سأنسى أنا الموضوع وأرجو أنت أيضاً أن تنساه فلا تأتي بذكره لأحد من الناس.

وقف الضابط ومد يده مودعاً، صافحه الشيخ ولكنه ظل جالساً في مكانه لا يتحرك، ممسكاً بيد الضابط لا يتركها.

- أعرف أنك تريد أن تتستر علي، لكنني لا أستطيع أن أقبل هذا الفضل، لقد زارني في النوم كوكبة من الشيوخ الأفاضل الذين أخذت على أيديهم العلم وكانوا غاضبين لأنني فعلت ما فعلت وكتمت الأمر، وأمروني أن أعترف بذنبي وأعلن للناس خطأي وأتقدم للزواج منها على سنّة اللّه ورسوله.

حاول الضابط صادقاً أن يقنع الشيخ بأن ينسى الموضوع، استعمل كل ما اهتدى إليه من حجج، توسل إليه أن يؤجل اعترافه بضعة أيام حتى يتأكد من أن هذه الحادثة لم تكن مجرد شيء رآه أثناء النوم، رجاه أن يفكر فيما سيلحق باسمه الذي كان دائماً نقياً من أوحال وما سيسببه من كدر لأهل القرية الذين أحبوه واختاروه إماماً ومرشداً لهم في أمور الدين، وأبلغه بأنه إذا ما فتح المحضر فلابد من أن يأخذ التحقيق دورته الكاملة وسيضطر عندئذ للتحفظ عليه وإيداعه سجن المركز كما تقضي بذلك التعليمات وسيلحق الأذى الفتاة التي قال إنه ارتكب معها الفاحشة وستساق للتحقيق أمام الناس، وسيرفع القضية إلى السلطات المركزية في عاصمة المحافظة، ولكن الشيخ استمر في إصراره، رافضاً أن يغادر المركز أو يتنازل عن أقواله مكرراً استعداده للزواج منذ هذه الليلة بابنة عامر اليتيم.

بقي الضابط يتأمله وهو يكتم غيظه، برغم شيخوخته فهو مازال قوياً موفور الصحة، لعل الفتاة وجدت فيه شيئاً أغواها، أو لعله افتتن بجمالها فكتب لها تعويذة من تلك التعاويذ التي يعرف هؤلاء الفقهاء أسرارها، فجعلها تسير في نومها للقائه عند تلك الخرائب، ثم لحق به الندم فجاء يسجل اعترافه، كل شيء قابل للاحتمال والتصديق، وغاضباً صاح منادياً شرطي التحقيق، جاء الشرطي مهرولاً، فسأله بلهجة حانقة أن يأتي بالسجل ويفتح محضراً للشيخ يأخذ فيه كل أقواله ويختمها بتوقيعه ثم يودعه غرفة السجن، في حين قرر أن يذهب بنفسه إلى بيت اليتيم.

بدت المهمة صعبة وكريهة، تمنى لو عهد بها إلى أحد أفراد الشرطة، ولكنه أراد أن يذهب بنفسه لعله يستطيع أن يعالج الموقف

بأقل قدر من الضجة والإثارة، سأل السائق أن يذهب إلى المستودع الحكومي أولاً، تنحى باليتيم جانباً وأخبره بما حدث، قائلاً بأنه حاول إقناع الشيخ بالعدول عن أقواله، رافضاً أن يفتح له محضراً أو يأخذه مأخذاً جاداً إلا أنه أصر على إثبات أقواله، وهو ينتظر الآن مصيره في سجن المركز، وإن التحقيق سيأخذ بالتالي دورته ولابد من سؤال ابنته وعرضها على الفحص الطبي.

بدا وجه اليتيم كوجه رجل مات وانطفأت فيه الحياة، حركه الضابط من كتفه وكأنه خشي أن يكون فعلاً قد مات، لكنه رآه يقول وهو مازال ميتاً:

- هل قلت الشيخ نصر الدين؟

قال الضابط في اقتضاب وإعياء:

- شيء لا يصدق، ولكنه هو.

وجد اليتيم بجواره صندوقاً فارغاً تهالك فوقه وقد تحول إلى حجر جامد بلا حياة ولا حركة، كان الضابط يدرك مدى الصدمة التي أصابت اليتيم، فجلس بمحاذاته صامتاً يجفف عرقاً غزيراً ينز من جبينه وعنقه وينتظر اليتيم حتى يعود إلى الحياة.

لم يكن بمستوصف القرية ما يكفي من المعدات لإجراء الفحوص التي يتطلبها التحقيق، فكان لابد من أخذ جميلة إلى عاصمة المحافظة، كان الضابط قد أجرى معها تحقيقاً سريعاً في مربوعة البيت، أبقى الباب مفتوحاً وسألها على انفراد وبصوت بطيء، هامس، سؤالاً واحداً حول ما إذا كان قد جرى اتصال جنسي بينها وبين الشيخ نصر الدين، باكية، محمومة، تنتفض غضباً، وحزناً،

وحرجاً ومهانة، استنكرت هذه التهمة، وباكية محمومة دخلت مع والدها والممرضة التي جاءت تصحبها، صندوق سيارة الإسعاف، في حين ركب الشرطي المكلف بمرافقتها وجلب التقارير الطبية عن حالتها بجوار السائق، وما حدث بعد ذلك فقد كان كابوساً اختلطت فيه أصوات الصغار الذين تحلقوا كالجرذان حول سيارة الإسعاف، ورجال القرية الذين رأتهم من خلال زجاج نافذة السيارة المتسخ يقفون على جوانب الطريق يرقبونها وقد انعكس اتساخ الزجاج على وجوههم فبدت مشوهة، قبيحة، كأنهم أشباح خرجوا لتوّهم من إحدى الخرافات، إلى أن وصلت إلى مستشفى المدينة، ووجدت جسدها عارياً، مباحاً لنظرات ولمسات أكثر من رجل وامرأة، بينهم أجنبي يتكلم لغة غريبة، كانت قد رفضت بقوة خلع ملابسها في حضرة هؤلاء الناس، ثم وجدتهم يرغمونها على التعري إرغاماً وينضون عنها ملابسها عنوةً، وهي صارخة متشنجة، تدفعهم عنها وتمنعهم عن جسمها بلا فائدة، واضطروا في النهاية إلى إعطائها حقنة مخدرة أفقدتها وعيها، ولم يكن مهماً بعد ذلك أن تأتي التقارير مؤكدة سلامتها، كاشفة جنون الشيخ وتخاريفه، لم يعد مهماً بالنسبة لها أن تعرف ما يحدث لذلك الشيخ، أو ما تقوله ألسنة القرية عنها، فقد بدت وكأن حالة الغيبوبة التي أحست بها عندما أعطوها حقنة التخدير قد استمرت معها ولم تشأ أن تفارقها، عادت إلى البيت ساهمة، واجمة، لا تكلم أحداً، ولا ترد على أحد، ولا تمد يدها بالتحية لأحد يمد لها يده، كأنها لا تريد شيئاً ولا ترغب في شيء إلا أن تموت.

كانوا قد أخذوا الشيخ إلى محكمة بعاصمة المحافظة ثم اتضح جنونه فأبقوه أسبوعاً للعلاج وتركوه بعد ذلك يغادر المصحة، رآه أهل

القرية يعود من رحلته وقد حلقوا له شعر رأسه ولحيته، ضاع الوقار وضاعت المهابة وظهرت عيوب البدانة وقصر القامة ونتوء الوجه الذي صار مثل طائر ميت سلخوا عنه الريش، ذهب بعض أصحابه ومريديه ومن بينهم الشيخ مسعود يطرقون بابه للزيارة والمواساة، خرج إليهم يبصق في وجوههم ويشتمهم بكلمات قبيحة نابية تطول شرف أمهاتهم ونسائهم، أطرقوا برؤوسهم خجلاً وأدركوا أن فجيعتهم في الرجل فجيعة دائمة، في حين أقفل هو باب بيته، وظل هناك لا يغادره إلى أن مات بعد ذلك بأسابيع قليلة.

كانت القرية قد وجدت في القصة الجديدة طعاماً شهياً لأحاديث السهر في ليالي الصيف التي تدلت نجومها كبيرة وقريبة من الأرض مثل القناديل، وعلي غير عادتهم صار الناس يطيلون السهر في الحلقات التي تعقد أمام الدكاكين، ويرفض الواحد منهم أن يعود مبكراً إلى البيت لكيلا يحرم نفسه من الاستماع إلى آخر التفسيرات والتحليلات لما حدث، كما دب نشاط جديد في أوساط النساء، فصرن يكثرن من التزاور والتجمع حول أباريق الشاي وقد وجدن موضوعاً مثيراً لقصة تحدث أمام أعينهنّ عن شيخ تقي، ورع، ترك الصلاة، والمسبحة، والعبادة، وهام على وجهه في حب بنت اليتيم. وكانت أكثر التفسيرات لسلوك الشيخ رواجاً، تلك التى تقول بأن روح الدرويش قد تلبست جسم الشيخ نصر الدين، لقد ذهب إلى بنت اليتيم ليطرد تلك الروح المعذبة التي تسكنه ولكن الدرويش الذي خرجت روحه مطرودة من بيت معشوقته، انتقم لنفسه واستولى على جسم الشيخ يسكنه بكل عذاباته ولوعته، وهكذا أصبح الشيخ نصر الدين درويشاً مهووساً بعشق جميلة، يتخيل أنها تواعده ليلاً وتأتيه

ليضاجعها بين الخرائب القديمة، ومنهم من مضى يؤكد أن الشيخ كان صادقاً في كلامه عن ليلة الحب التي قضاها معها، لقد أغوته جميلة وراودته عن نفسه حتى نسي علمه وتقواه وسقط في الإثم والخطيئة، فهي ليست إلا روحاً شريرة استهدفت أكثر رجال القرية تديناً وطهراً لكي تسلبه عقله ودينه، وإن التقارير الطبية التي تتحدث عن سلامتها ليست إلا حيلة تمنع بها الحكومة استفحال الأمر وارتكاب جرائم القتل، وعندما يأتي صوت يعترض على هذا الرأي قائلاً:

- ولكن هل تعتقد أن شيخاً في عمره مازال قادراً علي فعل ذلك الشيء.

يرد عليه الآخر مؤكداً:

- إن في تاريخ قريتنا رجالاً تزوجوا وأنجبوا وهم في التسعين.

ويرتفع أكثر من صوت محذراً بأنه إذا كان الدرويش أول ضحاياها فإن الشيخ نصر الدين لن يكون آخرهم، إن رؤوساً كثيرة سوف يصيبها الدوار وتسقط في ذات الحفرة التي لا قرار لها والتي سقط فيها الشيخ والدرويش.

[٢٧]

ترك العيد عمله وهجر دراسته وأقام في القرية غير عابئ بالرسالة التي تلقاها من إدارته تهدد بطرده إذا لم يعد إلى عمله، عافت نفسه الانضمام إلى هذه الحلقات التي يعقدها أهل القرية كل ليلة يلوكون فيها موضوعاً واحداً لا يملونه، رأوا شيخاً مهووساً يذكر اسم جميلة فوثبوا على الفرصة يملأون بها الفراغ الموحش الذي يأكل أيامهم بعد أن بارت أسواقهم ودكاكينهم وضاعت أحلامهم في المصنع الذي وعدتهم به الحكومة. جاءت جميلة شمساً تضيء ظلام الكهف فخرجت العناكب والعقارب والجعارين وطيور الليل تعزف نشيداً واحداً ضد هذا الضوء. ابتعد عن مجالسهم كارهاً الحديث معهم، أو الالتقاء بهم، لم يعد كما كان سابقاً يبادر بالتحية كل من يلاقيه، بل صار إذا سمع تحية من أحد تظاهر بأنه لم يسمعها، أو هو فعلاً لا يسمعها، لأنه أغلق أذنيه عن أصواتهم، وأغلق عينيه عن رؤيتهم، وأوصد عقله وقلبه في وجوههم، هجر الجلوس في المقهى والذهاب إلى الدكاكين وسوق يوم الجمعة، ولم يعد يختلط بأحد أو يزور أحداً سوى أمي سعيدة التي صار يتردد على بيتها كل يوم، يسألها أسئلة معادة، مكررة، عن جميلة، وتجيب نفس الإجابة، وعندما تتأخر

يوماً عن الذهاب إليها، يلومها على هذا التقصير، ويلح عليها في الذهاب، فكانت تذهب وتعود دون أن تأتيه بجديد، فجميلة مازالت في ذهولها، غارقة في صمتها، لم يسمع أحد منها كلمة واحدة منذ أن عادت من رحلة الكشف الطبي.

حاول العيد ذات يوم أن يذهب إلى المدينة ليلتحق بعمله على أن يعود في عطلة نهاية الأسبوع، ولكنه ما أن وصل إلى هناك حتى وجد نفسه يترك المكتب بعد أقل من ساعة، ومتبرماً ضجراً ظل يتجول في شوارع المدينة على غير هدى، لم تكن «مغارة الحلم» مكاناً يرحب بضيوفه قبل مجيء الليل، ولكنه مدفوعاً بالملل والكآبة وجد نفسه يذهب قبل الظهر إلى هناك، فاجأ صاحبة البيت نائمة، أدخلته على مضض وأدارت قرص الهاتف تبحث له عن جليسة ثم ألقت السماعة وعادت إلى نومها عندما لم تجد له أحداً، بحث عن شيء يبدد به الوحدة والملل في انتظار مجيء الليل وبداية السهر، وجد كومة من المجلات النسائية والفنية التي صار يقلبها دونما رغبة، ثم ما لبث أن رمى بها وقد تذكر أنه جائع لم يتناول إفطاراً ولا غداءً، ذهب إلى المطبخ يبحث عن شيء يأكله، رأى الرفوف تمتلئ بزجاجات النبيذ فأدرك أنه اهتدى إلى بغيته، لم يكن يشرب الخمر إلا لماماً، وإذا شرب لا يشرب إلا كأساً واحدة مسايرة لرفاق السهرة ولكنه لأول مرة يحس برغبة قوية في الهروب إليها والاحتماء بغيبوبتها من سأم ورتابة هذا اليوم الطويل الذي لا يريد أن ينتهي، أرغم نفسه إرغاماً على ابتلاع الكأس الأولى والثانية، شربهما بنفور واشمئزاز، راق له الشراب بعد ذلك، فأحضر صحون المزة التي تبقت في المطبخ من سهرة الليلة الماضية وصار يرتشف الكأس وراء الأخرى بشراهة ولذة، صعدت الأبخرة إلى رأسه، وتضاءل الكون بكل ما يرزح به

من هموم ومشاكل حتى صار في حجم عقب السيجارة، جاء الليل سريعاً والعيد منتش مخمور، رأى المكان يمتلئ بنساء شبه عاريات ورجال يعرف بعضهم ولا يعرف بعضهم الآخر، يعانقون النساء ويغنون احتفالاً بعيد ميلاد إحدى الحاضرات، كان في شبه غيبوبة غير واع بما يدور وما يقال، وعندما أفاق في الصباح وجد بجواره امرأة نصّف عارية تسيل فوق وجهها الدميم المساحيق والأصباغ وتفوح منها رائحة التبغ والعرق والخمور، آثار القيء على ملابسه ومطارق الألم في رأسه، خرج هارباً، ناقماً على نفسه، وبحث عن سيارة أجرة ذاهبة إلى قريته، حشر نفسه بين ركابها، وعاد إلى ضياع آخر بين طرقات القرية.

قال لأمي سعيدة وهي تعيد على أسماعه كلمات تصف بها حالة جميلة التي زاد ضعفها وذبولها ولم تغادر صمتها بعد:

- يجب عرضها على الطبيب دون تأخير.

- وهل أصابها ما أصابها إلا بسبب الأطباء.

- ليس من العدل أن نقف مكتوفي الأيدي ونحن نراها تضيع أمامنا.

ها هو مرةً أخرى يقف عاجزاً غير قادر على أن يفعل شيئاً من أجلها، تستحم وحدها في نهر الجحيم وهو يقف على ضفة النهر يمسح عن وجهه العرق ويلعن العجز والزمن ويبحث عن معنى لمعاناة الإنسان وعذابه في عالم من العبث واللاجدوى، سمعته أمي سعيدة يقول كلاماً غامضاً يعبر به عن تبرمه بالدنيا وشكه في أن هناك قوانين تحكم هذه الفوضى، فقالت:

- لا تفقد إيمانك يا ولدي ولا تنسَ أن هناك واحداً أحداً، فرداً صمداً، لايغفل ولا ينام.

- ليس هناك من هو أكثر إيماناً من الشيخ نصر الدين.

- إنه ليس أول إنسان يفقد عقله.

ولن يكون آخر إنسان، فما هذه الطبول التي تملأ الآن رأسه الضجيج إلا إشارة لقدوم شيء، قال يسألها:

- متى تأتي الإشارة بنهاية الكون؟

قالت المرأة العجوز وكأنها أخذت كلامه مأخذاً جاداً، وكأنها تنتظر مجيء هذا اليوم في زمن قريب:

- عندما تشرق الشمس من الغرب.

لعلها قد أشرقت من الغرب الآن، ولكن لماذا لا تحاول أمي سعيدة إحضار جميلة إلى هذا المكان ولو لمرة واحدة، إنه على يقين من أن لقاءً يتم بينه وبينها سوف يعيد للكون شيئاً من توازنه ويمنع الشمس من أن تشرق من الغرب.

قال يشرك أمي سعيدة في حيرته:

- إنني لا أجد تفسيراً لهذه الحمى التي أصابت القرية، رأيت أكثر الناس طيبة وسذاجة يمشون في الطرقات وقد نبتت لهم أنياب زرقاء.

- الدنيا أكثر تعقيداً من أن تعرف امرأة مثلي تفسيراً لأسرارها.

- قد أفهم دوافع الرجال الذين تمنوها لأنفسهم وعندما عزت عليهم صاروا ناقمين يكتحون التراب في وجهها، ولكن ما سر

هذا السعار الذي أصاب النساء، إنني أشتبك في عراك دائم مع أمي لأنها تصر على عقد هذه المجالس التي تقتات على سيرة جميلة، في بيتها كل يوم، تشفياً من عامر اليتيم.

- إن النساء لن يغفرن لها هذا الجمال الذي أبطل كل جمال آخر.

لعن في سره هذه القرية التي تقدس القبح وتكره أن تنبت في تربتها الكالحة السوداء زهرة جميلة واحدة، قال بين أسنانه:

- من قال إن العصر الحجري قد انتهى؟

اشتعل في قلبه حنين عارم لأن يرى عينيها، ويراهما الآن وفي هذه اللحظة، دقات الطبول في رأسه تدعوه أن ينطلق من هذا المكان ويذهب الآن إليها، تساءل إذا كان هذا الإحساس الذي يعذبه الآن هو ذاته الذي تتحدث عنه القصص ويتغنى به المغنون، ولكن من يحب جميلة ليس كمن يحب امرأة أخرى، إنها نسيج وحدها بين النساء، تذكر الدرويش وكيف أحاله حبها من نبات بشري لا يفهم ولا يعي إلى قوة بركانية هائلة جاءت تزلزل الأرض وتقذف الحمم، كان حباً يائساً فجاء يرمي بكتل النار فوق جميلة، يدمرها ويدمر نفسه، وتذكر الشيخ نصر الدين، عمر كامل من الزهد وقهر العواطف ونكران الذات وإخماد الرغبات الإنسانية التي تعتمل في مجاهل النفس، ما إن رأى وجهها حتى استيقظت تلك العواطف المشنوقة وعادت إلى الحياة، تحولت إلى سرب من الطيور الجارحة التي انطلقت مجنونة تفتك بفريستها، وها هو ذات الحب يدفعه الآن لأن يرتكب حماقةً كبرى في حقها، رغبةٌ مجنونة لا يستطيع كبحها تطالبه الآن بأن يذهب إليها ويروي عطش عينيه إلى رؤيتها، تمنى لو

أن أمي سعيدة تعده الآن بإحضارها وتجنبه مغامرة الذهاب إليها واقتحام بيتها كالمجنون.

لكن أمي سعيدة لا تعد بشيء.

كان نداء الطبول يزداد عنفاً في رأسه، وطائر النار يحوم في قلبه ويجعله لا يقوى على البقاء، فقام من فوره وبخطى سريعة سار باتجاه بيت اليتيم.

[٢٨]

أسدل عامر اليتيم الريش فوق جراحه، قرر بينه وبين نفسه أن يعتبر ما حدث صفحة سوداء يجب أن تطوى بعد أن تأكد للناس سلامة شرفه وشرف ابنته، أو هكذا يجب أن يظهر أمام الناس، اعتكف في البيت ليومين أو ثلاثة أيام، وجد أن البقاء في البيت يطيل عمر المحنة، يزيده مرضاً وينقص شيئاً من كبريائه أمام الناس ويملأ رأسه بأحلام سوداء تأتيه في النوم واليقظة يرى خلالها نفسه يأخذ مدية ويغرسها في قلب الشيخ نصر الدين، ما ذنب رجل سكنت روحه العفاريت وفقد عقله، ها هو البناء الذي ظنه آمناً ينهار فوق رأسه حجراً حجراً، الشيخ الذي وعده بالجنة فر هارباً إلى عالم الجن والأبالسة بعد أن قذف به إلى الجحيم، المتصرف خرج من بيته غاضباً وامتنع عن زيارته ولن يأتي مرةً أخرى إلا إذا حدد له موعداً قريباً لإقامة العرس، والعروس ذابلة مريضة، تحتمي بالصمت، وتنتظر في أية لحظة أن تذوب وتتلاشى في الهواء، ولكي لا يفقد هو أيضاً عقله، فقد ترك جلسة البيت، وبنفس مكسورة عاد إلى عمله بالمستودع، وبقلب تسلل العطب إلى إيمانه عاد إلى حضور صلاة الجماعة في المسجد، يمشي في الطريق وهو يدير وجهه إلى الناحية

الأخرى لكيلا يرى حلقات الرقص البدائية التي يعقدها أهل القرية حول فريسة ابنته التي عادوا بها تواً من الغابة.

وما أن يأتي الصباح ويذهب اليتيم إلى عمله حتى تترك زوجته ابنتها في البيت بصحبة إخوتها الصغار، ترتدي لحافها وتذهب لتطوف بأضرحة الأولياء، تحمل لهم النذور وتضيء لهم الشموع وتحرق الأبخرة وتدعو لابنتها بالشفاء، وتبحث عن الفقهاء الذين يكتبون لها أحجبة تعود بها لابنتها وتطلب منها أن تعلقها في عنقها أو تحرقها وتستنشق دخانها أو تنقعها في الماء وتشرب ماءها، ولكن جميلة ترمي بها في كل مرة بعيداً عنها وهي جافلة لا تقول شيئاً، ليتها تتكلم، تسب أو تشتم، ولكنها دائماً صامتة، تقرأ الكتب وتسمع الأغاني في المذياع وتساعد أحياناً في أعمال البيت، ولكنها لا تقول شيئاً، ولا تعلق بشيء، حتى ذهب في ظن أمها أن ابنتها قد أصبحت بكماء غير قادرة على النطق.

كانت قد عادت لتوها من إحدى جولاتها بين القبور، خلعت لحافها وبحثت عن ابنتها، رأت باب غرفتها مغلقاً فجاءت تدق عليها الباب، لم تسمع رداً، فدفعت الباب ودخلت، كانت جميلة تتمدد فوق سريرها مستغرقة في النوم، صاحت بها:

- هيا انهضي، لقد انتصف النهار وأنت مازلت نائمة.

ارتفع صوتها ينادي جميلة مرات عديدة، ولكن ابنتها ظلت نائمة لا تسمع النداء، تقدمت من سريرها وأمسكت بكتفها تهزها برفق، ظلت جميلة نائمة فهزتها بعنف هذه المرة، وعندما لم تسمع من ابنتها رداً أدركت أن الأمر ليس طبيعياً فصرخت تناديها وتمسك بكلتا يديها تهزها بكل ما تقدر عليه من قوة، أصابها الذعر وهي ترى ابنتها غارقة

في نوم غريب لا تقوم منه ، صارت نبكي وتصرخ ، ترتمي فوقها ثم تشدها من شعرها وتصفعها فوق وجهها وقد جاء ذلك الخاطر يملأها رعباً وجنوناً ، خاطر أن تكون ابنتها قد أسلمت الروح ، فهي فعلاً تبدو جثة هامدة ، احتبست أنفاسها وفارقتها الحياة ، وقبل أن تبدأ في النواح وشق الجيوب والخروج إلى الشارع تصرخ وتكتح التراب طالبة النجدة ، رأت ابنتها تفتح عينيها وتديرهما في وجهها فشهقت وانهارت على ركبتيها فوق الأرض تمسك قلبها بكلتا يديها كأنها تخشى عليه السقوط ، خرجت الكلمات من بين أنفاسها اللاهثة ، متقطعة ، مرتعشة ، باكية :

- لقد أفزعتني ، كدت أظن أنك فارقت الحياة ، فما الذي حدث؟

كان الفزع يرتسم على ملامح جميلة أيضاً ، لأن ما حدث لها شيء لا تفسير له سوى أنها ماتت وعادت إلى الحياة مرةً أخرى ، إنها تعلم الآن جيداً أنها لم تكن نائمة ، ولم يكن ما رأته حلماً من أحلام النوم أو اليقظة ، لقد استلقت فوق الفراش تقلب صفحات كتاب مدرسي ، أحست بتعب في عينيها فوضعته بجوارها تستريح قليلاً وذهبت تتجول ببصرها في سقف الغرفة ، ثم فجأة رأت نفسها وكأنها خرجت من جسمها ، وارتفعت تحوم فوق السرير ثم وقفت قريباً من السقف ، كانت تستطيع أن ترى جسمها هامداً وقد فارقته الحركة والحياة ، ممدداً على السرير كأنه جسم امرأة أخرى ، وأن ترى وجهها هادئاً وشاحباً شحوب الموتى ، وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيها ، وأن ترى أيضاً تلك الظلال الباهتة الزرقاء تحت عينيها المغمضتين ، وأكثر من ذلك كله كانت تستطيع أن ترى من خلال الجدار ، رأت أمها عندما دخلت البيت وخلعت عن جسمها اللحاف الذي ترتديه عند الخروج ، ورأت

أطفالاً من بينهم إخوتها يلعبون أمام البيت، ورأت العيد وهو يقطع الطريق في خطى سريعة باتجاه بيتهم، ثم رأته يقف قريباً من البيت عندما رأى رجلاً يحمل سلة خضار وبقي يشيعه بنظراته حتى يختفي، كانت تستطيع أن ترى هذا كله، وكانت تحس بسعادة عظيمة وهي تطفو في الهواء متحررة من الضيق الذي كان منذ لحظات يأخذ بخناقها، لقد اختفت كل تلك الهواجس التي قذفت بها إلى دنيا الصمت والكآبة، وحل مكانها سلام وطمأنينة، وراحة عميقة لا تذكر أنها أحست بمثلها في حياتها، كأنها اتحدت بروح الكون وصارت جزءاً منها، رأت أمها تدق باب غرفتها فكرهت أن تأتي الآن وتأخذها من هذه الحالة الآمنة البهيجة، وتبدد هذا الصفاء وهذه النشوة التي تغمر الآن روحها، رأتها تدخل الدار وسمعت الكلمات التي قالتها ورأتها عندما تقدمت نحوها تهزها بعنف وهي تحاول إيقاظها، ثم حالة الذعر التي أصابتها عندما عجزت عن النهوض والاستجابة لدعوتها كي تستيقظ، ثم رأت حالة الأمن والسلام تغادرها وهي تفتح عينيها لتجد أمها منهارة تبكي. وعندما سمعت بعد ذلك الباب يدق وعرفت أن العيد هو الذي جاء ازدادت يقيناً بأن ما حدث لها لم يكن حلماً أو وهماً أو خيالاً وإنما تجربة غريبة رأت فيها نفسها تموت وتعود إلى الحياة مرةً أخرى. عندما سمعت أمها الباب يدق بعنف وقوة تحاملت على نفسها وذهبت تفتح الباب بحذر وتوجس وتسأل من خلال الانفراجة الصغيرة عن هوية الطارق، رأت العيد يدفع الباب بقوة ويقتحم البيت كالزوبعة قائلاً:

- أريد أن أراها.

سألته من فورها أن يعود من حيث أتى، سألته وهي ترتعش خائفة

من أن يكون قد جرى لعقله شيء، مذعورة وهي ترى ابنتها ما أن تنتهي من مجنون حتى يظهر لها مجنون آخر، كأن السماء صارت تمطر مجانين، ولكنه عاود السؤال صارخاً:

- أريد أن أراها الآن.

- اكفنا شرك، واذهب إلى حال سبيلك، يكفي ما نحن فيه من البلاء.

- لن أذهب حتى أراها.

كانت جميلة قد سمعت ذلك كله فأصلحت شعرها وخرجت من غرفتها لترى العيد، زادها الضعف والشحوب شفافية فبدت في عينيه كأنها تنتمي إلى عالم آخر أكثر جمالاً وعذوبة وسحراً، وقف مبهوراً، صامتاً، يطفئ لهف عينيه إلى رؤيتها، افترت شفتاها عن ابتسامة ترحيب وفرحة باللقاء، تمنى لو أنه يستطيع أن يعانقها، ولكنه اكتفى باستمراء البهجة التي غمرته لحظة ظهورها، توقف نداء الطبول في رأسه، وعاودته طبيعته الهادئة، تحقق ما جاء من أجله ولن يطالب بالمزيد، ولكن جميلة منحته أكثر مما أراد عندما مدت يدها قائلة:

- أهلا يا عيد.

دفقة أخرى من النشوة جاءت تسري في شرايينه وهو يضع يده في يدها ويستمع إلى الكلمات التي قالتها ويغمض عينيه كأنه يرى حلماً، والأم التي كانت تقف في بهو البيت حانقة، غاضبة، تصرخ في وجه العيد أن يذهب صارت الآن تكبّر وتهلل وتشكر اللّه وقد انبسطت تجاعيد وجهها ودمعت عيناها غبطة وفرحة، ومسرعة ذهبت

إلى المطبخ وأحضرت المشروب احتفالاً بالمناسبة وإكراماً للرجل الذي أعاد النطق لابنتها .

لم تستطع أن تدعوه إلى الجلوس والبقاء خشية أن يأتي أحد الناس ويلقاه جالساً مع ابنتها ، فظلوا جميعهم واقفين ، قالت وهي تمد له كوباً من رحيق الرمان الممزوج بالماء :

- كدت أفقد الأمل في أن تعود ابنتي إلى الكلام مرةَ أخرى ، لم يكذب من أسماك العيد ، فها قد صنعت لنا عيداً في بيتنا .

ثم التفتت إلى ابنتها تعاتبها :

- لماذا يا ابنتي تلقين هذا الرعب في قلبي ، لماذا بقيت صامتة ، تاركة أمك وأبيك للحزن وشماتة الأعداء؟

غرقت جميلة في الصمت من جديد ، والعيد يتأملها بعيون عطشى ولا يقول شيئاً ، والأم تركت مطبخها وظلت واقفة تجفف رطوبة عينيها وتحاول أن تسمع ابنتها تتكلم مرةً أخرى ، وكأنها لا تصدق أنها حقاً قد قالت للعيد أهلاً ، تكلمت عن الأولياء الصالحين الذين استجابوا لدعوتها ، وعن الوعد الذي قطعته لسيدي أبو قنديل بأن تذبح كبشاً تطعمه لزائري ضريحه إذا ما عاد النطق لابنتها ، ألحت بالأسئلة ترغمها على الكلام . قالت جميلة جملة مصهورة في وهج المعاناة التي عاشتها :

- لو عرفت بهجة الصمت مثلي لما وجدت رغبة بعد ذلك في الكلام .

[٢٩]

جاء الخبر كالعاصفة التي تهب فتملأ عيونهم بالتراب، نسي أهل القرية أحاديث جميلة والدرويش ونصر الدين وانشغلوا بالخطر الذي جاء يداهمهم ويهدد قريتهم بالانقراض.

بدأ الخبر شائعة جاء بها القادمون من المدينة قائلين بأن الحكومة لم تعد ترى فائدة من وجود قرية مثل «قرن الغزال» بعد أن نضبت الصحراء من البدو وانتهى دورها كمركز تجاري واختفت منها مصادر الرزق الأخرى، ولذلك فقد وضعت الحكومة خطة لترحيل أهلها ضمن مشروع جديد للحد من الإنفاق، وستنقل العائلات التي تقطن «قرن الغزال» إلي مناطق أخرى للاستفادة منهم في استصلاح أرض زراعية جديدة بالمناطق الساحلية يستوطنون بها، وتساءلوا عما حدث لمصنع الزجاج الذي ستقيمه الحكومة ليكون مورداً جديداً للرزق، فأخبروهم أن البعثة العلمية التي جاءت لإنشاء المصنع لم تكن إلا لجنة عسكرية يرأسها ضابط أمريكي لبحث إمكانية الاستفادة من موقعها وأبنيتها في إنشاء قاعدة تدريب عسكرية للأمريكيين، وأن مصنع الزجاج لم يكن إلا ذريعة لإخفاء هذه الحقيقة ولضمان تعاون المواطنين وعدم استفزازهم للضابط الأمريكي وبين مصدق ومكذب

صاروا يتناقلون الخبر ويضربون كفاً بكف استغراباً لهذه البدعة الجديدة التي لم يسمع أحد بمثلها من قبل:

- القرى الأخرى في الدنيا تكبر وتتحول إلى مدن، وقريتنا تمحي من فوق الأرض، إنها مهزلة.

وذهب بعضهم ممن يتقنون القراءة والكتابة ينقبون في الكتب القديمة التي بحوزتهم. والتي أوردت اسم القرية قائلين بأنها تأسست مباشرة بعد انتهاء عصر الجليد، وأنها قرية ذات تاريخ عريق تمتلىء بآثار القلاع التي حارب منها أجدادهم الغزاة، وأن اختفاء «قرن الغزال» سيكون خسارة للجنس البشري بأجمعه.

لم يتوقف أحد منهم ليسأل عن النفع الذي سيعود عليهم إذا انتقلوا عن القرية، كلهم اعتبروا الأمر كارثة تحل بهم، وفكرة مجنونة تريد أن تقتلعهم من جذورهم وتخرجهم من ديارهم وترمي بهم في الخلاء، كثرت الاجتماعات التي صاروا يعقدونها لتدارس الموقف، ما أن يفرغوا من اجتماع حتى يهرولوا إلى اجتماع آخر، أمام المسجد بعد كل صلاة، ولدي دكان الشيخ مسعود وبيته، وفي ساحة السوق، حلقات تعقد وحلقات تنفض سعياً للوصول إلى وسيلة يواجهون بها الموقف.

- كيف نترك أرض آبائنا وأجدادنا وأوليائنا، وقبور من ماتوا من أهلنا وأحبائنا؟

- إن في الحكومة وزيراً أمه من قبيلة «المهاريس» التي ظلت تناصبنا العداء لأجيال وأجيال، ما إن وصل إلى الوزارة حتى جاء يطالب بالثأر والانتقام لأخواله.

- لقد أعجبه (اللاقبي) الذي عبه تلك الليلة، فقرر ذلك الضابط الأمريكي أن يستولي على القرية وأشجار نخلها.

- سيتشتت شملنا وتذهب ريحنا إلى الأبد، وتشمت القبائل الأخرى بنا إذا نحن استسلمنا لهذه البدعة التي اخترعتها الحكومة.

- إنهم سيقومون بتهجيرنا كما فعل اليهود بأهل فلسطين.

وفي النهاية عقدوا العزم على إرسال وفد برئاسة الشيخ مسعود لمقابلة المسؤولين لاستجلاء الحقيقة وتقديم عريضة للحكومة يلتمسون منها العدول عن هذا القرار إذا كانت حقاً قد قررت ترحيلهم عن قريتهم، ملأوا صفحات كثيرة بالحديث عن مآثر القرية وتاريخ المعارك التي خاضتها ضد الغزاة، والأولياء والعلماء الذين أقاموا بها وماتوا فوق أرضها، ثم أخذ الوفد العريضة وبدأوا بالذهاب إلى المتصرف الذي لم يكن يعرف شيئاً عن الموضوع، ولكنه تجنباً للظهور بمظهر الجاهل الذي لا يعرف شيئاً عن مخططات الحكومة، لم يجزم لهم بشيء، بقي يقول كلاماً عائماً دون أن يؤكد الخبر أو ينفيه وهو يحس بالحرج خوفاً من أن يكتشف هؤلاء الناس جهله فتهتز مكانته وتضيع بالتالي هيبته في القرية، أوقعوه في ورطة أكبر عندما سألوه عن المصنع الذي وعدتهم به الحكومة، لم يكن متأكداً من شيء بعد أن جاءت هذه الشائعات التي تنذر بقرب نهاية القرية، فتش في ذهنه عن حيلة تنجيه من هذا المأزق، أخبرهم بأن المشروع يحتاج إلى دراسة جديدة لأن هناك صناعة ظهرت حديثاً تهدد المصنوعات الزجاجية هي صناعة «البلاستيك»، رمي بهذه الكلمة التي لا أحد منهم يعرف لها معنى، فأدرك أنه أربكهم وأن أحداً منهم لن يعود إلى سؤاله مرة

أخرى، تركوه وذهبوا إلى المحافظ في عاصمة المنطقة، دخلوا عليه يقدمون له العريضة، وضع المحافظ العريضة جانباً لكي يقرأها فيما بعد وسألهم عن حاجتهم، أبلغوه بالأخبار التي يتناقلها الناس عن تفكير الحكومة في إعادة توطينهم بمناطق أخرى، وعما إذا كان ذلك حقيقة أم مجرد شائعات كاذبة، أفادهم بأن البعثة العلمية التي زارت قريتهم وضعت تقريراً أوصت فيه بترحيلهم وأن الموضوع مازال قيد البحث، ولكنه وعدهم خيراً قائلا بأنه سيعمل على إقناع الجهات العليا بالإسراع في تنفيذ المشروع الذي يحقق رغبتهم في الانتقال إلى أرض جديدة خصبة بدلاً من بقائهم في قرية مجدبة قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وإنقاذهم من حياة الفقر والبطالة، وقف لكي يودعهم مؤكداً لهم تفهمه لموقفهم وتعاطفه الصادق مع قضيتهم، ولكنهم صححوا له سوء التفاهم الذي وقع بينهم قائلين بأنهم بالعكس من ذلك إنما جاءوا يطالبون بإبقائهم في قريتهم ويرفضون ترحيلهم عنها، وأن العريضة التي يحملونها إنما هي التماس من أهل القرية إلى الحكومة بأن تعدل عن قرار الترحيل.

قال بوجه محتقن تمكن منه الغضب والاندهاش:

- هل تقصدون بأنكم تريدون حياة الجوع والفقر والمذلة؟

رمي في وجوههم العريضة وطردهم من مكتبه.

عاد الوفد من مهمته خائباً، وخيمت فوق الرؤوس سحابة ثقيلة من الهم وانتظار المجهول؛ بحثوا عن نائبهم في البرلمان علّه يرفع الأمر إلى سلطة أعلى ولكنه اختفى بحجة أنه ذهب للعلاج بإحدى المصحات في الخارج. غرقوا في دوامة القلق والهوان، يسيرون في طرقات القرية يقلبون النظر في أبنيتها كأنهم يعيدون اكتشافها، كأن

كل واحد منهم يريد أن يملأ عينيه بمشاهدها قبل أن يغمرقها الطوفان القادم. وكانوا عندما تجمعهم لقاءاتهم الليلية قريباً من شجرة الأثل في ساحة السوق ويتطلعون إلى السماء وهي مليئة بنجوم تتدلى فوق رؤوسهم كالعناقيد، متوهجة، ولامعة، وقد طاب الهواء ورطبت أنسامه بعد نهار شديد القيظ، يحسون بالأسى لأنهم قد لا يلتقون هذا اللقاء مرةً أخرى وقد لا يجدون نجوماً كهذه النجوم أو سماء كهذه السماء في أية بقعة أخرى، ويدور الحديث مرآً، ساخراً، حول الكارثة التي تواجه بلدتهم، وحول عالمهم الذي ينهار ويتلاشى أمام أعينهم:

- إنهم يعدوننا بالجنة في الأرض التي سينقلوننا إليها.

- ولكنهم لا يعلمون أننا نحيا هنا عيشة الملوك، النوم والبطالة، وهيهات أن نرضى بغيرهما بديلاً.

- إنك لا تعرف جنة الحكومة، سيأخذونك إلى أرض خلاء ويعطونك فأساً ويقولون لك هيا احفر يا كلب.

- يقولون إنهم أعدوا لنا في المشاريع الجديدة أكواخاً من الصفيح كأنها القصور.

- سيتم توزيعنا بين مناطق مختلفة، وعليك أن تتصل بأمك أو أختك أو أخيك عن طريق برنامج بريد المغتربين في الإذاعة.

- ها هم حكامنا الوطنيون ينفذون ما فشل فيه بالبو وجرسياني وبودوليو، فيؤجرونها قاعدة عسكرية للأجانب.

- لا ترفع صوتك فقد جاء الطربوش.

لم يكن من عادة المتصرف أن يخرج ليلاً يتجول في القرية، ولم يكن من عادته أيضاً أن يختلط بالناس في مثل هذه المجالس التي تضم رجالاً اختلفت أقدارهم ومستوياتهم، فهو يحتفظ دائما بتلك المسافة بينه وبين الناس التي يراها ضرورية لحفظ الهيبة والاحترام، رأوه قادماً نحوهم فوقفوا جميعاً يرحبون به، كانوا يجلسون فوق الأرض، تحرجوا من دعوته للجلوس مثلهم، فأسرع أحدهم واحضر كرسيا من دكانه القريب، استغرقتهم كلمات الترحيب والمجاملة ولم يتطوع أحد منهم لفتح الموضوع حتى بادر المتصرف بالكلام:

- ما أكثر الذين يضعون اللوم على الحكومة، وينسون أن الحكومة جزء من الشعب.

قال أحد الجالسين مداهناً:

- والشعب جزء من الحكومة.

قال المتصرف جاداً:

- بارك الله فيما قلت، وينسون أن الأموال التي تنفقها إنما هي أولاً وأخيراً أموال الشعب.

كانوا قد عادوا إلى جلوسهم فوق الأرض في حين ظل هو جالساً فوق الكرسي الوحيد الذي جاءوا به إليه فبدا أمامهم كبيراً شامخاً كأنه رجل عرف أسرار الكون، رفعوا أبصارهم إليه ينتظرون النتيجة التي يريد أن يصل إليها.

- ولذلك فإنه ليس من العدل أن تنفق الحكومة كل هذه الأموال في مكان لم يعد يخدم غرضاً ولا يحقق لأهله مورداً ولا يجني الوطن من وراء ذلك خيراً ولا فائدة.

غمرتهم سحابة من القلق، هل يعني ذلك أن ترحيلهم قد صار قراراً يأتي المتصرف الآن لتنفيذه.

- إن أرض الوطن زاخرة بالخيرات والمناطق الخصيبة التي تنتظر السواعد الشريفة تعزق أرضها وتخرج كنوزها، فما الذي يبقينا في هذه البقعة التي لا مورد فيها ولا رزق، سوى بضعة أشجار من النخل التي قاومت الجفاف لسنوات طويلة وسوف لن تلبث أن يصيبها العطش وتموت هي الأخرى، تقولون إنها أرض الآباء والأجداد، وما رأيكم في ذلك المجاهد الذي ذهب من هذه القرية ليستشهد في معارك الشط والهاني وسواني بنيادم والقرضابية والجبل الأخضر، هل يرضى بهذا الكلام الغريب الذي تقولونه.

تبادلوا النظرات في صمت، ها هو يوظف جهاد آبائهم لصالح فكرته وفكرة الحكومة ناسياً أنه إنما يجليهم عن قريتهم ليبيعها إلى مستعمر جديد، أراد أحد الجالسين بأن يقول ذلك ولكنه تذكر بأنه عامل تنظيفات بالمستوصف وأن المتصرف سوف يطرده من عمله إذا قال كلاماً يغضبه، رآه المتصرف يهم بالكلام فقال مشجعاً:

- نعم، تفضل.

أحس بالورطة التي أوقع نفسه فيها فبحث عن كلام آخر يقوله بحيث لا يغضب المتصرف:

- لقد عاشت «قرن الغزال» في حمى ولي من أولياء الله الصالحين هو سيدي أبو قنديل، فكيف بالله عليك تريدنا أن نتنكر له ونرحل عن هذه القرية تاركين ضريحه بلا مزارات ولا شموع ولا نذور.

- سأنقل لك ضريحه إذا شئت.

رآهم يتبادلون النظرات فأحس بأن جملته استفزت إيمانهم بالأولياء والصالحين، ولكنه لم يكترث، لقد وصل الآن إلى ما يريد أن يقوله، وسيقوله بحسم واختصار ووضوح.

- ما أنصحكم به الآن هو أن تكتبوا عريضة جديدة ممهورة ببصمات وتوقيعات كل كبير وصغير في القرية، تطالبون فيها الحكومة بأن تسرع في تنفيذ المشروع وترحيلكم إلى الأرض الجديدة، ومن يمتنع عن التوقيع فلتعلموا جميعاً أنه عدو لأهل هذه القرية، لا يريد لكم خيراً ولا نفعاً.

ألقى بتهديده وانصرف، ها قد اتضح كل شيء، فالحكومة لا تريد فقط ترحيلهم ولكنها تريد أن يركعوا تحت أقدامها متوسلين إجلاءهم عن قريتهم.

- ها قد جاء الطربوش وصاحبه يضعاننا في محنة جديدة.

- رأيت طربوشه من بعيد فبدا لي في الظلام كأنه يحمل فوق رأسه غراباً.

- لن أضع توقيعي على هذه العريضة حتى لو تنازل لي عن طربوشه.

- إنها المهانة والإذلال، إنها اللعنة تطارد «قرن الغزال».

- ما أحرانا بأن نذهب ونطلب الصفح من جميلة ابنة عامر اليتيم، فلاك شك أنها هي التي تطارد القرية بلعناتها.

- لو كان ذلك صحيحاً فإنها تستحق الرمي بالحجارة.

أدى المتصرف المهمة التي كلف بها وعاد إلى بيته يفكر في هذه التطورات الجديدة وتأثيرها على حباته ومشاريعه، لقد ذهب صباح اليوم إلى عاصمة المحافظة مستجلياً حقيقة الأمر، معاتباً لأنهم أبقوه في الظلام لا يدري ما يقول لأهل القرية، أبلغه المحافظ بأن الموضوع أكبر من هذه الاعتبارات الصغيرة فهو مخطط سياسي للدولة أملته المصلحة العليا للوطن وما على أمثالهما من مسؤولي الحكم المحلي إلا الطاعة والتنفيذ، إنه يتصل بعلاقة الحكومة بدولة صديقة تريد تأجير مكان في الصحراء يصلح للتدريب العسكري فأعطتهم هذه القرية التي لا حاجة لأحد بها. ولكن الحكومة لا تريد أن يأتي ترحيل أهل القرية بالإكراه وإنما تريده أن يتحقق بناءً على طلب الجماهير ورغبتها، لكي لا يأتي من يقول بأن الحكومة قد أجلت الناس عن قريتهم لتقديمها قاعدة عسكرية للأجانب، وتجد أبواق المعارضة والإذاعات المعادية فرصة للتنديد بالحكومة ومهاجمة سياستها، وعلي المتصرف أن يتدبر الأمر ويأتي بعريضة أخرى من أهل القرية تشكو الفقر والبطالة وتطالب الحكومة بالتدخل السريع لإعادة توطينهم في مناطق أخرى تتوافر فيها موارد الرزق والحياة، وستكون بعد ذلك مكرمة من الدولة تتحدث بها الصحف والإذاعات عندما تتنازل عن إرادة المواطنين وتلبي حاجتهم وتجهد نفسها في البحث عن مكان لائق لإقامتهم ويتحول اللوم إلى شكر وثناء وتضيع على الأبواق المعادية فرصة ثمينة لإحراج الحكومة، وأنهى حديثه قائلاً:

- وأنت بلا شك أكفأ من يقوم بهذه المهمة.

نعم، نعم، بكل طيبة ورضا، بل هو يجد متعة عظيمة عندما تواجه الحكومة أزمة يستطيع أن يثبت فيها أنه أقدر الناس على فرض

إرادتها وتنفيذ أوامرها، ولكنه لا يريد أن يخرج من هذه القرية التي كتب عليها الفناء خاوي الوفاض، لا يريد لهذا الجهد الذي بذله من أجل الحصول على جميلة يضيع مع الرياح التي جاءت تعصف بالقرية وتقتلعها من جذورها، لم يعد هناك ما يكفي من الوقت لأن تجري الحكومة انتخابات في هذه القرية بعد الآن، ومعنى ذلك أنه فقد أهم أوراقه في اللعبة التي يلعبها مع عامر اليتيم، إنه لا يعترض على هذه السياسة التي أملتها المصلحة العليا للوطن، ولكنه كان يتمنى لو تأخر هذا القرار بضعة أشهر أخرى حتى لا تتناقض المصلحة العليا مع المصالح الدنيا لرجل مثله، لابد أن يبحث عن أساليب أخرى يعالج بها الموقف، فاليتيم ليس إلا عاملاً تابعاً له، وجميلة لن تكون لأحد غيره، وعليه أن يحسم الأمر الآن وقبل ظهور مفاجآت جديدة.

[٣٠]

وهذا كبش آخر ينحر اليوم في بيت اليتيم، لم يكن هذه المرة لإطعام زائري ضريح سيدي أبو قنديل، إنه أنما يدبح لإطعامهم وإطعام زوار بيتهم من نساء وصبايا جئن إلى جميلة مهنئات بالنجاح في إجازة التدريس، البيت الذي عشش فيه الحزن يستعيد الآن شيئاً من بهجة الحياة، والأم تطوف بين الزائرات تخدمهن وتقدم لهن الطعام، نشطة، سعيدة، كأنها عادت إلى صباها، فها هي جميلة تخرج من حالة العبوس والشرود، وتستعيد قدرتها على المرح من جديد، تضحك وتتكلم مع البنات في يسر وعفوية ولم يبق من تلك الحالة القديمة التي لازمتها لأيام طويلة إلا بعض الوقدات التي تتفجر في حالات الضيق والغضب.

- نسأل اللّه أن يديم علينا هذه النعمة.

لم تجد على لسانها سوى هذه الجملة، تقولها، وتعيد قولها بلا ملل، وكأنها صارت تدرك بالحدس الذي اكتسبته من خلال المحن التي رأتها، أن هذه اللحظات إنما هي لحظات نادرة في هذا البيت، وأن السحب السوداء التي تنعقد فوق سماء القرية، إثر تواتر الأخبار

بنقل أهلها إلى أماكن أخرى، سوف تفرغ قريباً ما في جعبتها من عواصف ورعود.

قالت لزوجها بعد أن انتهى الحفل، وهما في غرفة النوم:

- جميلة.

- ما بها؟

- لقد عانت كثيراً، ولم يعد ممكناً أن تقسو عليها كل هذه القسوة.

- كنت دائماً أبحث عن مصلحتها.

- قل الحق يا رجل، لقد كنت تضع مصلحتك هي الأولى.

- ما هذا الكلام الذي تقولينه يا امرأة، منذ متى كانت مصلحتي تتناقض مع مصلحة ابنتي.

- الشهادة التي نالتها ضمان للمستقبل فلا خوف عليها بعد الآن.

- أفصحي يا امرأة، ما الذي يشغل بالك؟

- ما أن تسمع سبرة المتصرف حتى تركب جسمها العفاريت.

- سأمهلها حتى ترضى.

- أليس من سبيل لأن تصرفه عنا؟ لماذا تذعن له وكأن ابنتنا لن تجد زوجاً غيره؟

- لعلك تفكرين في ابن تلك المجنونة التي جاءت تتهجم على في بيتي.

لم تكن قد أخبرته بزيارة العيد إلى بيتهم وأثر ذلك في شفاء ابنته، لقد خافت من غضبه، فهي تعرف أنه منذ أن تخاصم مع أمه صار لا

يطيق سماع اسمه، فما بالك إذا ما عرف أنها استقبلته في بيتها، ولكنها جازفت بالقول:

- ليس هناك في البلدة كلها من هو أليق بالعيد ليكون زوجاً لابنتنا.

عرفت الآن أنها قد أخذت جانب العيد في الصراع الدائر وأنها تضع نفسها مباشرة في مواجهة العاصفة.

أمسك اليتيم بذراعها غاضباً، أمسكه بقوة حتى أوجعها.

- لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام مرةً أخرى. قطع اللّه البنات وخلفتهن.

وفي اليوم التالي جاء المتصرف زائراً.

- تأخرت عن المجيء إلينا، فجئنا نسعى إليك.

- ما أنت إلا صاحب البيت.

هنأه، بنجاح ابنته فرد له اليتيم التهنئة عندما تذكر أن ابنة المتصرف أيضاً تدرس مع ابنته، تقبل المتصرف التهنئة شاكراً وعقَّب قائلا:

- هذه ليست إلا الفرحة الصغرى التي ستعقبها الفرحة الكبرى بإذن اللّه.

أدرك اليتيم ما يرمي إليه فأراد أن ينتهي من حسم هذا الموضوع بلا إبطاء.

- مازلت أطلب أن تمنحني وقتاً، فها هي المشاكل تعصف بنا من كل جانب.

ولكن الوقت يمضي، وما تبقى من وقت على نهاية القرية لا يسمح

بهذا الترف الذي يطلبه اليتيم، اختار أولاً أن ينفي عن نفسه تهمة أن يكون مسؤولاً عما ألمَّ بالقرية من أحداث، قبل أن يدخل في الموضوع الخاص.

- ليس هناك مشاكل وعواصف، الأمر مرهون بإرادة أهل القرية، هم يقررون بإرادتهم الحرة ما يريدون، وما على الحكومة إلا التنفيذ.

- سأكون بعون الله أول الراحلين.

أمعن المتصرف النظر إليه كأنه لا يصدق أن يقول اليتيم هذا الكلام، ها هو يكشف أوراقه كلها، ضاعت أحلام المجد القادم مع الانتخابات وجاء يتحلل الآن من كل الارتباطات والمواثيق التي تربطه معه، قال محاولاً أن يبني أرضاً يقف عليها بعد أن جاءت كلمات اليتيم تقوض كل شيء:

- لا تستعجل الأمر يا يتيم، هذه مسألة يقتضي تنفيذها سنوات وسنوات، إنها ليست خيمة تطوى وينتهي الأمر.

بادره اليتيم قائلاً:

- لقد عودتنا الحكومة دائماً سرعة الإنجاز والتنفيذ.

لم يجد المتصرف مفراً من أن يلجأ إلى الكذب هذه المرة.

- ولكن الانتخابات ستمضي كما كان مخطط لها، وها أنت بعد أن تعلمت القراءة والكتابة صرت أكثر الناس جدارة بها، وليس من شك أن فوزك سيكون بالتزكية.

ارتسمت على وجه اليتيم ابتسامة ساخرة.

- لم أعرف من الكتابة والقراءة غير أن أرسم اسمي، بل لعلي قد نسيته في خضم الأحداث، لا شك أن في الدنيا من هم أكثر جدارة مني.

أدرك المتصرف أن حلم الاختلاء بجميلة في غرفة نوم مغلقة صار يضيع الآن من بين يديه، وأن اليتيم يلعب لعبة لا يدرك خطورتها، جاء يتظاهر بالزهد في المناصب بعد أن عرف اتجاه الريح، كتم غيظه قائلاً:

- هأنذاا أرى أجنحة الأحلام الكبيرة تتكسر، فما الذي حدث؟

لم يقل اليتيم شيئاً. ليس لذلك إلا معنى واحد في ذهن المتصرف وهو أن اليتيم يقفل في وجهه الباب، ولكن ما مصير الهدايا التي جاء بها، الأموال التي أنفقها بغير حساب، الخدمات التي قدمها لليتيم وأسرته، هل يذهب كل ذلك هباءً كمن يحرث السباخ، هل ينسى أنه صنع منه سيداً بعد أن كان رجلاً عديم القيمة يسكن وسط الخرائب مع العقارب والفئران والصراصير، وأذل نفسه بالمجيء إلى زيارته طيلة هذه الأشهر، أم أن الغرور لعب برأسه حتى ظن أنه ند له، سيعرف كيف يرد له الضربات، وسيرغمه على أن يأتي إليه خانعاً، ذليلاً، يتوسل أن يرضى بابنته زوجةً له، وقبل أن ينصرف أراد أن يعطي اليتيم فرصةً أخيرة لعله ينفي هذه الظنون.

- أما أنا فما زلت ملتزماً بالعهد.

وصمت قبل أن يضيف:

- ومازلت راغباً في عقد أواصر المصاهرة بيننا كما تم الاتفاق.

وعندما بدأ اليتيم يسوق الحجج التي تمنعه من الموافقة على إقامة

العرس قبل مجيء الصيف القادم، أدرك المتصرف أن هذا إيذان بالقطيعة بينهما، وأنه سوف لا يدخل بيته بعد الآن أبداً، لأنه صار منذ هذه اللحظة عدوه الذي سيستعمل كل الأسلحة لسحقه وهلاكه.

ضرب الباب خلفه بعنف وخرج.

انتفض اليتيم وهو يسمع دوي الباب، وأدرك أنه الآن قد صار يتيماً مرةً أخرى.

[٣١]

انطلق أفراد الشرطة يطوفون شوارع القرية يلتقطون السائرين في الطرقات ويدقون الأبواب ويخرجون الرجال الذين اعتكفوا في بيوتهم ويذهبون إلى المصلين في المسجد والجالسين في المقهى وأصحاب الدكاكين وزبائنهم أو من جاء يجلس ويشرب الشاي معهم، وعمال الورشة والمستودع، وزوار المستوصف وعماله، والمشتغلين بمحطة الكهرباء ومحطة الوقود ومضخة المياه ومعلمي المدارس وعمالها، ويذهبون يتجولون بسياراتهم خارج القرية يلتقطون الرعاة وساكني العشش يسوقونهم إلى قصر المتصرفية للتوقيع على الالتماس الذي يطالبون فيه بنقلهم من قريتهم، يهددونهم بالضرب والسجن، ويرغمونهم على الذهاب، رفض عاشور أن يذهب مع الشرطي الذي جاء إلى المقهى يأخذهم للتوقيع قائلاً بأنه سيبقى ليرعى أشجار النخيل التي أورثها له والده وأوصاه قبل أن يموت ألا يتركها أبداً، وأنه لا يريد شيئاً من الخدمات التي تقدمها الحكومة وسيعرف كيف يتدبر حياته بدونها، تكاتف معه بقية الجالسين في المقهى، اشتبكوا في عراك مع الشرطي الذي أطلق صفارته فجاء عدد آخر من أفراد الشرطة يسوقونهم إلى المركز،

أدخلوهم واحداً بعد الآخر إلى دار «العروسة» التي يضعون بها «الفلقة»، ضربوهم على أقدامهم حتى تورمت، وفتحوا لهم محضراً بحجة أنهم اعتدوا على شرطي أثناء تأدية واجبه الرسمي، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد أن رضوا بالتوقيع على الالتماس، أشاعت هذه القصة جواً من الرعب في قلوب أهل القرية فتقاطروا على مبنى المتصرفية يلتمسون النجاة لأنفسهم بالتوقيع على ما تريده الحكومة.

قال المتصرف عندما جاء كاتبه يضع أمامه الالتماس مصحوباً بقوائم طويلة امتلأت بالتوقيعات والبصمات:

- هل بقي أحد في القرية لم تأخذوا موافقته؟

- لم يبق إلا النساء والأطفال.

- إذن فهو قرار اتخذته القرية بالإجماع.

- نعم بالإجماع يا سيادة المتصرف، لم يبق إلا أن يعتمدها شيخ القرية وقد أرسلت في طلبه.

- وماذا تراهم يقولون؟

- إنهم يلهجون بالثناء على الحكومة التي أتاحت لهم هذه الفرصة للتعبير عن مشاعر الحقد والكراهية ضد قريتهم.

قالها ضاحكاً فرد المتصرف على سخريته قائلاً:

- كنت أتمنى لو أتيحت لنا فرصة من الوقت لتهيئة الأذهان وإقناع الناس بالفكرة، ولكنها أوامر الحكومة وقد وجب تنفيذها.

- إن أحداً لا يلومك ياسيادة المتصرف، ولكنهم يلومون ابنة اليتيم.

- وما دخل ابنة اليتيم في موضوع كهذا .

- لقد صورت لهم عقولهم إنها سبب اللعنة التي تطارد القرية .

لمعت عيناه اندهاشاً وإعجاباً، قفز على الفكرة باحثاً فيها عن شيء يمكن أن يستخدمه في حربه ضد اليتيم وابنته، لقد أصدر اليوم قراراً بفصله من العمل نتيجة إهماله وغيابه المتكرر، وسيتدبر الآن طريقة يستفيد بها من هذه المعتقدات الساذجة التي يحملها أهل القرية عن ابنته ويستغلها لقهره وإذلاله، سينتقم لنفسه من هذه الفتاة التي رفضت بلا خجل ولا حياء اليد التي بسطها إليها لإنقاذها من الفقر والمذلة، ولن تمضي سوى أيام قليلة حتى يأتي بها والدها ضارعاً متوسلاً طالباً الصفح، إنه يعرف هذا النوع من البشر .

قال يخاطب كاتبه :

- من يدري، إن لاعتقاد هؤلاء القوم أسبابه ودوافعه، أليست هي من دفعت بأحد الناس إلى الموت ودفعت برجل آخر إلى الجنون .

- إنك لا تصدق مثل هذه الخرافات ياسيادة المتصرف .

ولكن المتصرف شرح لكاتبه كيف أنه يصدقها، وأن على الكاتب أيضاً أن يصدقها، وأن يجعل الناس جميعاً يزدادون اقتناعاً وإيماناً بأن الشر الذي يطارد القرية إنما جاء بسبب هذا الشؤم الذي ولد مع ميلاد ابنة اليتيم، لأن أبخرة الغضب والنقمة التي تتصاعد الآن في الصدور سوف تتحول إلى سحب تنذر بمجيء العواصف، وإذا لم يبحثوا عن سبيل لتصريفها في اتجاه آخر فإنها ستتحول نحوهم وسيجدون أنفسهم ذات صباح في مواجهة جمهور هائج لا يحكمه عقل ولا منطق يريد هلاكهم .

أدرك الكاتب ما يهدف إليه المتصرف، لقد عاشره طويلاً، وانتقل معه من مكان إلى آخر، عينا له على الآخرين، وحافظاً لأوراقه وأسراره، قال وهو يهم بالانصراف:

- عرفت ما تريد، وسأفعل ما يمليه الواجب.

خرج من المكتب ليجد الشيخ مسعود واقفاً بالباب ينتظر الإذن بالدخول، كان بجواره ضوء الهلال الذي كان آخر من جاء للتوقيع، لقد اقتضى الأمر إرسال ثلاثة من أفراد الشرطة لإجباره على الحضور، كان يقول للشيخ بصوت متهدج كأنه البكاء، غير عابئ بوجود الكاتب الذي وقف يأذن برأسه للشيخ بالدخول:

- هل نرضى بتنفيذ مشيئتهم كما تفعل النساء؟

رد عليه الشيخ وهو يخطو باتجاه مكتب المتصرف:

- لا تعاند من إذا قال فعل.

بادره المتصرف قائلاً عندما رآه:

- لم يبق إلا توقيعك يا شيخ مسعود.

- من أجل هذا جئت.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

- ولكن هل كان لابد من استعمال هذا الأسلوب لإرغام الناس على التوقيع؟

كان الغضب واضحاً في صوته وملامح وجهه، قال المتصرف بأسلوب ناعم، مخاتل، تعوَّد أن يستعمله لامتصاص المواقف المتفجرة:

- إنني في حيرة مثلك يا شيخ مسعود، هل كان لابد أن نجرهم إلى الجنة بالسلاسل، أما كان الأجدر بهم لو جاءوا طواعية ودون إكراه.

قال الشيخ مسعود دون أن يعبأ بما في لهجة المتصرف من تظاهر بالبراءة:

- ليت الحكومة احتفظت بجنتها وسلاسلها بعيداً عن هذه القرية.

قالها وكأنه يخاطب نفسه، ثم أضاف:

- وهل تريد أن ترغمني أنا أيضاً علي التوقيع؟

قال المتصرف وكأنه لا يشك لحظة في أن شيخاً مثله يمكن أن يخذل الحكومة:

- أنت أدرى بما يفرضه عليك الواجب.

اتخذت ملامح الشيخ شكلاً صارماً كمن يبغي أن يقذف بنفسه من فوق الجبل.

- لقد رأيتني بنفسك أطوف على مكاتب الحكومة أطالب بإلغاء هذا القرار، فكيف بالله عليك تريدني اليوم أن أرفع إليهم التماساً بعكس ما كنت أطالب به.

كان واضحاً أنه يرى في الأمر مسألة تمس كرامته الشخصية، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

- إنني لا أستطيع التوقيع.

لم يكن المتصرف متهيئاً لسماع مثل هذا القول، فتح عينيه وفمه اندهاشاً ثم تدارك نفسه وأطلق قهقهة عالية كمن سمع نكتة أعجبته وأراد أن يستعيدها.

- ما الذي تقول يا رجل؟

- أقول إنني لا أستطيع التوقيع .

انطفأت ضحكة المتصرف ، قال وهو يترك مكتبه ويقف في مواجهة الشيخ الذي وقف مجاراة له :

- إن هذا عصيان للحكومة .

وبغشامة البدوي الذي اتخذ قراره ولم يعد يعبأ بالنتائج قال الشيخ :

- اعتبره عصياناً إذا شئت ، واعتبرني مستقيلاً من مشيخة القرية .

- لم تعد هناك قرية حتى تكون شيخاً عليها ، وسأجد نفسي مضطراً للقبض عليك وإرسالك للمحاكمة .

- ما هي التهمة يا تري؟

ودونما تفكير وكأن له جهازاً في رأسه يتولي تجهيز الاتهامات وتقديمها إلى لسانه في يسر وسهولة قال المتصرف :

- تحريض الناس على الشغب .

[٣٢]

دارت الشمس دورتها وعادت مرة أخرى تنفث قيظها الشديد الذي تمتصه الأرض وتعيده صهداً لافحاً كالوهج الطالع من الأفران، ورجال القرية غارقون في موجة الحر والذل والغبار، يبحثون عن ظل حائط أو شجرة يدسون تحتها رؤوسهم ويناقشون في همس أمر الشيخ مسعود الذي أخذوه إلى السجن، لقد قالوا نعم فجاء هو يقول لا، ويحسون بالأثم لأنه الآن يدفع الثمن بالنيابة عنهم جميعاً، ويجهدون أنفسهم في البحث عن وسيلة يخرجون بها الرجل من محنته. عندما كان الحاكم إيطالياً يرتدي برنيطة ويرطن بلغة غريبة ويضع فوق رأسه علماً مثلث الألوان ويقدس تمثالاً للبؤة ترضع شبليها، كانوا يعرفون أن هذا هو الاستعمار، فيرفعون في وجهه البنادق ويحاربونه بالسكاكين والعصي والحجارة إذا عزت البنادق، ويجاهدون من أجل يوم تؤول فيه أمورهم إلى حاكم من أبناء الوطن، وعندما جاء هذا الحاكم واستعار أسلوب الأجنبي في معاملتهم وقعوا في الحيرة والهوان، إنه يملك ملامح كملامحهم وسحنة لوحتها الشمس كسحنتهم، يتكلم ذات اللغة التي يتكلمونها بل هو يتكلمها بأسلوب أكثر فصاحة وإشراقاً منهم، ويحفظ بأفضل مما يحفظون أحاديث

النبي وآيات القرآن الكريم ويأتي على ذكرها في أحاديثه معهم، يضع في يده مسبحة ويعتمر طاقية أو طربوشاً ويحضر معهم صلاة الجمعة وفوق رأسه يرفرف علم يحمل هلالاً ونجمة ولوناً أحمر يرمز إلى دم الأجداد المسفوح فوق تراب الوطن، ماذا يفعلون معه وكيف يجدون القوة لمحاربته، كانوا يحاربون الأجنبي، لأنه أجنبي جاء يحكمهم فهو استعمار وعدو للدين والوطن ويتحملون الموت في سبيل ذلك لأنه شرف ووطنية وشهادة جزاؤها الجنة. يغرقون في دوامة الحر والذل والغبار، ينظرون إلى الأهلة والنجوم التي تملأ الأعلام التي ترفرف فوق أبنية الحكومة، ويتأسفون على اليوم الذي سلموا فيه بنادقهم للجالسين في ظل هذه الأعلام.

إنه موسم نضوج البلح، أكثر مواسم القرية نشاطاً وبهجةً، انتهت مواسم الحرث والحصاد والخروج لملاقاة الربيع بعد أعوام الجفاف الطويلة، ولم يبق إلا هذا الموسم يقيمون له الأعياد والأفراح، يرسلون الغناء ويعزفون المزامير ويضربون الدرابيك ويلتقون بعائلاتهم تحت أشجار النخيل التي تشابكت تصنع سقفاً يقيهم الحر ويعودون بالليل يقيمون السهرات في ضوء القمر ويشتغلون بتقطيع العراجين وتعبئة الرطب في الصناديق والعودة بها لتجفيفها فوق السطوح أو لشحنها في سيارات نقل صغيرة يؤجرونها لتسويق البلح في المدن الأخرى.

ولكن بهجة هذا الموسم انطفأت، قد يذهب أحدهم بلا احتفال يقطع عرجوناً لإطعام أهله أو لوضعه في صندوق أمام دكانه إذا كان صاحب دكان، أما البقية فقد تركوا البلح في عراجينه طعاماً للطير وانشغلوا بهذا الهم الذي جاء يداهمهم على حين غفلة وينتظرون يوماً

تنفرج فيه هذه الأزمة ليقيموا بعد ذلك الأفراح ابتهاجاً بنضوج ثمار النخيل.

ولكن الحلقات لا تعقد إلا لتنفض مرةً أخرى دون أن يهتدوا إلى شيء محدد يفعلونه، تعبير أخرس عن السخط، وخوف من مجابهة وبطش الشرطة، وإحساس بالهوان يجعلهم يفقدون الشهية للنوم والطعام.

قال ضوء الهلال الذي يحن ليوم يدوي في الرصاص، ويحلم بمجيء الحرب، وقد رأى جماعة من أهل القرية يعقدون اجتماعاً في الضحى تحت شجرة الأثل:

- لعن اللّه الجبناء والمخنثين.

وبصق في الأرض.

لقد تعودوا بذاءاته، فضحكوا ولم يردوا عليه.

كان رواد المقهى الدائمين أمثال عاشور وسليمان مع صاحب المقهى سلطان قد جاءوا هم أيضاً ينضمون إلى الجالسين تحت الشجرة بعد أن سحب الشرطي الذي عاركوه رخصة المقهى واستصدر أمراً بإقفاله لمدة أسبوع، قال عاشور وهو يمسح العرق الذي يتصبب غزيراً فوق جبينه وعنقه وصدره:

- لقد خلقنا لنكون أحطاباً للنار، وإلا ما الذي يجبرنا على البقاء في قرية فتح اللّه عليها باباً من أبواب جهنم، ونتحمل في سبيل ذلك الأهوال التي رأيناها في دار العروسة.

قالها بسخرية ولكنها حركت شيئاً في قلوب الرجال الذين تضمهم الحلقة، ما الذي يدعوهم حقاً إلى البقاء في هذه الأرض التي ما أن

يأتي الضحي حتى يصير ترابها حديداً مصهوراً، إذ مهما كان نوع الحياة التي سينقلونهم إليها فلن تكون بأية حال أسوأ مما هم فيه الآن، جلسوا صامتين كأنهم يحاولون أن يجدوا شكلاً واعياً لهذه الرغبة الغامضة في التشبث بأرض ميتة نضبت منها كل أسباب الحياة، وينظرون حولهم يستنجدون بالهضاب البعيدة والبيوت والدكاكين والأبراج وأشجار النخيل المتناثرة عبر دروب القرية فتبدو صامتة، حيادية، كأن الأمر لا يعنيها، ويهبطون بأنظارهم إلى الشجرة التي يجلسون في ظلها وقد نفرت عروقها وامتلأ جذعها بالثقوب والحروق من آثار رصاص معركة قديمة.

- من أين سنلقى شجرة مثل هذه اخترقت جسمها مئات الرصاصات ومع ذلك ظلت عنيدة تتحدى بأعرافها الخضراء زمن القحط والطرابيش؟

قال أحدهم ذلك محاولاً بلهجة ساخرة تفسير هذه الرغبة في البقاء.

- لكنها عقيم لا تطرح ثمراً ولا تطعم من جوع.

- يكفي أنها تمنحنا الآن ظلاً، فلا تكن جاحداً ناكراً، إن هذه الشجرة وطن.

مازال في القرية من العجائز من يعتبرها شجرة مباركة يستجير بها ويقيم تحتها الصلاة ويستنجد بها في الملمات.

- إذا كانت حقاً شجرة مباركة فلعلها لن تتخلى عنا.

- ها قد عدنا نستنجد بالأشجار لحمايتنا بدلاً من أن نحمي نحن الأشجار.

- ليته قال نعم فأنقذ نفسه من السجن وأنقذنا نحن من هذا الإحساس بالعار.

دارت الرؤوس تلتفت شمالاً ويميناً خوفاً من أن يكون أحد الوشاة قد جاء يتصنت إلى كلماتهم، إنهم يحاولون تجنب الخوض في الموضوع الذي يستفز الحكومة لأنهم لا يريدون زيارة أخرى إلى دار العروسة، ولكن الحديث في المواضيع الأخرى لا يطاوعهم، فيصمتون طويلاً ويعودون إلى الموضوع بالهمس والإشارة.

رأوا على البعد رجلاً قادماً نحوهم، خشوا أن يكون عيناً من عيون الحكومة فسكتوا عن الكلام، وعندما تبينوه وجدوا أنه عمران يرسف في ظله الذي يجره تحت قدميه كالأغلال، لقد صار هو أيضاً مهموماً بهذا الخبر الجديد الذي سيحرمه كنزاً جاهد عمراً في سبيل العثور عليه، فأصبح يأتي ويشارك في جلساتهم بالصمت والاستماع، استفزه عاشور قائلاً:

- هناك من يقول بأنك قد عثرت على الكنز وأنك تخبئة في بيتك مدعياً الفقر خوفاً من أن تأخذه منك الحكومة.

ظنه يتكلم جاداً فأقسم بالله وكتبه ورسله أنه لم يعثر على شيء حتى الآن، ولكن الأمد لن يطول، فقد أكمل حفر أغلب المناطق ولم تبق إلا المناطق التي ينتهي عندها ظل الجدار، ولهذا فهو لن يستجيب لنداء الحكومة بترك القرية الآن، حتى لو فقد عمله وأقفلوا المخبز فسيبقى في مكانه حتى يعثر على الكنز الذي وعدته به الملائكة، أفهموه بأن المسألة لا خيار فيها وأنهم سيقومون بشحن أهل القرية جميعاً في سيارات نقل كبيرة.

- سأعود حتى لو أخذوني إلى آخر الدنيا.

- ولكنها ستكون منطقة عسكرية يضربون حولها سياجاً من الأسلاك الشائكة المكهربة.

- ومع ذلك سأعود.

- ستصعقك الكهرباء أو يخترق جسمك رصاص الحراس.

تقلصت ملامح وجهه وكأنه يريد أن يبكي، نظر إلى وجوههم يطلب النجدة، ولكن أحداً لا يتقدم لنجدته، هل يضيع جهد العمر هباءً، تساءل في حيرة إذا كان ثمة وسيلة لمنع الحكومة من تنفيذ هذا القرار، قال عاشور:

- إنها مشكلتك وحدك يا عمران، فليس كل إنسان موعوداً بكنز مثلك، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- سنقف معك إذا وعدت بأن تقاسمنا الكنز.

أقسم بالله وكتبه ورسله بأنه سيجعل في كنزه حقاً للسائل والمحروم وسيبني لهم مسجداً كبيراً وسيتقاسم كنزه مع كل من يقف معه في سبيل إلغاء هذا القرار، فوعدوه صادقين بأنهم سيتكاتفون معه وسيقفون من أجله صفاً واحداً حتى تتراجع الحكومة عن قرارها.

كان العيد عائداً من غابة النخيل يحمل سلة وضع بها عرجوناً من البلح جاء به إلى أمه عندما التقى بضوء الهلال يمشي بجوار الحائط يطارد الظل، كان ساخطاً يتكلم مع نفسه ويلوح بيديه في الهواء بعصبية كأنه يعارك الأشباح. لقد حمل السلاح وهو صبي يحارب

الطليان وسافر في زمن الهجرة مع المهاجرين وأقام بقرية خلف الحدود يرعى أهلها الأغنام ويضع أذنيه على الأرض ينتظر أن يسمع وقع خطى الطليان وهم يرحلون، وعندما رحلوا عاد، مات أهله جميعاً ولم تبق معه سوى طفلة ولدت هناك أسماها «راجعة» أملاً في يوم يعود بها إلى قريته، جاء سعيداً يحمل طفلته بين ذراعيه، وجد أن عساكر الطليان قد حل مكانهم عساكر الإنجليز، فعاش متأزماً يمني النفس بالحرب، لقد اقتضي الأمر حرباً كونية حتى خرج الطليان، وهو يريد الآن حرباً كونية أخرى تصلح الخلل الذي أصاب الكون، كبرت ابنته وأصبحت ممرضة بمستوصف القرية فأخذ مرتبها يشتري به زيتاً ودقيقاً يخزنهما للأيام المهولة القادمة وينذر أهل القرية بقرب مجيء الحرب، كان يسأل العيد كلما لقيه أن يكتب له مذكراته التي سيكشف فيها الخونة الذين باعوا الوطن ويتنعمون الآن بالنياشين والأوسمة، ولكنه اليوم كان غاضباً يزفر ويبصق في الأرض ولا يقول شيئاً.

- ماذا يا عمي ضوء الهلال، هل قامت الحرب؟

- حتى أنتم يا من ذهبتم إلى المدارس تتفرجون كأن الأمر لا يعنيكم.

- ما الذي حدث؟ لعلك لا تعلم أن الدوتشي قد شنقوه في شوارع روما.

- ولكن من يشنق دوتشي هذه البلدة، أحمد الله أنني مازلت أحتفظ بالبندقية التي حاربت بها الطليان وإذا ما بقيت الأمور على هذه الحال فسأخرجها من الحفرة التي خبأتها بها وسأذهب وأعتصم بالجبل وأبدأ بإطلاق النار.

قال العيد وهو يعلم أن الرجل لا أمان له، وقد يعلن الحرب في أية لحظة:

- أرجوك أن تنتظر حتى أعود إلى المدينة ثم ابدأ بإطلاق النار على كل من تراه.

- الهروب، هذا ما تفكرون به جميعاً، بلادكم تباع للأجانب وأنتم تهربون، ألم تعلمكم هذه المدارس شيئاً آخر غير المذلة والخنوع؟

- لقد طال شوقنا إليها، فأين هذه الحرب التي وعدتنا بها؟

لم يكن الأمر في نظر ضوء الهلال مزاحاً، فالحرب بالنسبة له قد بدأت فعلاً.

- كنت دائما أعتبر الشيخ مسعود شيخاً ضعيفاً، جباناً، لا رأي له ولا موقف، ولهذا أبقت عليه الحكومة، ولكنه هذه المرة أثبت أنه رجل، وعلى بقية أهل القرية أن يثبتوا أنهم أيضاً رجال.

إنه الرجل الوحيد الذي يتكلم في هذه المواضيع بلا حرج، تحرر من خوفه حتى صارت صراحته شذوذاً فما عادت تثير أعوان الحكومة ووشاتها، لم يكن العيد قد فكر كثيراً فيما حدث، لقد جاءوا إليه يدقون باب بيته كغيره من أهل القرية، اعتذر بأنه مقيم في المدينة حيث مقر عمله، ولكنهم رفضوا أن يتركوه، ساقوه كغيره من الناس ليضع إمضاءه على الورقة، لم يكن حتى ذلك الوقت قد حدد موقفاً مما يجري، بل لعله رأى فيه انتقاماً عادلاً تلاقيه قرية ظلمت نفسها ومنحت أيامها عطاء سخياً للفراغ والبطالة ولم يعد أمام أهلها شيء يفعلونه سوى أن يبعثوا بطلبات إلى الحكومة يتسولون العمل بمكاتبها

عسساً ومباشرين، منهم من تحقق حلمه وصار يتقاضى أجراً ضئيلاً مقابل هذه البطالة الجديدة ومنهم من ينتظر، وتفرغوا جميعاً لسف التراب الذي تأتي به الرياح القادمة من الصحراء، يفتعلون المعارك لأتفه الأسباب وليس على ألسنتهم سوى الشتائم والسباب وتسقط الشائعات والأكاذيب، قرية تتآكل وتتلاشى وكان لابد أن تلاقي هذا المصير، حتى وإن لم يكن انتقاماً فهو إنقاذ لهم من هذا العطب الذي تسلل إلى أرواحهم فصارت تصدأ وتشيخ ويتبخر منها الدفء والحب، ويستسلمون في بلادة لهذا الواقع ويتآلفون معه كأنهم سعداء بهذه الحياة التي لم تعد حياة وإنما انتظاراً لمجيء الموت، لقد ترك هو أيضاً عمله وأقام بينهم يتناول الطعام من صحافهم ويتنفس الهواء الذي يتنفسونه ويستسلم مثلهم إلى حالة البلادة التي تغلف الحياة في هذه القرية، تسبح بهم الأرض في دورتها اليومية وكأنهم ليسوا جزءاً منها، بنوا في عقولهم أسواراً تعزلهم عن ضجيج الحياة وإيقاع العصر واستكانوا لحياة الكسل والبطالة وارتضوا بالعيش تنابلة في قرية انتهى زمانها.

لا شك أنه كان سيفر من هذه القرية طلباً للنجاة وهروباً من هذه الرمال الرخوة اللزجة التي صارت تمتصه مثلهم، لولا ما يربطه بجميلة، ولا يستطيع أن يغفر لهم سلوكهم العدائي ضد هذا الشيء الوحيد المبهج، المضيء، في قرية يأكلها البؤس وتملؤها أكداس القبح، تيبست أرضها وامحلت عيون مائها فلم تعد تلد إلا العقارب وأشواك العوسج وثمار الحنظل، لقد كان سعيداً بأن يرى عالمهم يتقوض وينهار ويغمره الطوفان، حتى لو لم تكن الحكومة صادقة في منحهم أرضاً زراعية جديدة فإن مجرد أن يتركوا هذه الخرائب ويبتعدوا عن هذا الخلاء سيكون في ذلك علاج لهم. لقد كانوا

بحاجة إلى هذا النبأ الذي زلزل الأرض تحت أقدامهم لكي يعودوا إلى بشريتهم التي صاروا ينسلخون عنها يوماً بعد يوم. هذا كان رأيه قبل أن يأتي جند الحكومة يسوقونه مكرهاً للتوقيع ويجعلونه يرى الأمور في ضوء جديد، لقد عرف لحظتها عمق الإهانة التي تلحقها الحكومة بالناس، إنها لا تأخذهم بعيداً عن قريتهم لأنها تحبهم أو تشفق عليهم أو تريد لهم الخير. إن ما تفعله مجرد حلقة أخري من حلقات الإذلال والمهانة التي تبدأ بتزييف الانتخابات وتنتهي إلى أخذ هذه القرية التي تمتليء بقبور الرجال الذين ماتوا وهم يكافحون الأجنبي وتأجيرها إلى أجنبي جديد، لقد كان بإمكان الحكومة أن تبني مصنع الزجاج الذي وعدتهم به فتمنحهم بذلك عملاً وتعيدهم بشراً وتجعل قريتهم صالحة لحياة الإنسان، ليتها كانت صادقة في الاستفادة من جهودهم في استصلاح أرض زراعية جديدة يرحلون إليها لا مجرد حيلة لجعل هذه القرية قاعدة عسكرية للأحلاف الأجنبية، إن في الأمر استفزازاً لكل تلك المشاعر التي تأصلت وتعمقت عبر قرون طويلة من مصارعة الموجات المتلاحقة من جنود الغزو، لعل الذي بني هذه القرية في عمق الصحراء كان هارباً من بطش حاكم أجنبي، فجاء يبني قلاعه ويمنع أي إنسان غريب يطأ أرضه، فكيف بهم الآن وهم يواجهون حكومة تريد أن تأخذ منهم قريتهم بأبنيتها وهضابها وأوديتها وغابات نخلها وسمائها ونجومها وشمسها وقمرها، تعطيها لدولة أجنبية وتقذف بهم إلى المجهول. لقد كانوا ضائعين فقدمت لهم الحكومة الآن هدفاً يجتمعون عليه وتتوحد حوله أحاديثهم، يعطي لجلساتهم معني وينتشلهم من أحاديث السحر والأشباح والتلهي بالشائعات والأكاذيب، أيقظ الخطر الداهم الخلايا التي تآكلت ودفع الدماء في شرايين القلب قوية دافقة تعيد النبض للوجوه التي تكلست وتمنح

كلماتهم التوهج والحرارة، وفي قلب الصورة يقف ذلك الموظف البائس الصغير الذي عينوه متصرفاً في هذه القرية فاحتمى ببعد المنطقة عن المدينة ونصب نفسه ملكاً يحكم بالحق الإلهي، فشلت الرشوة والمداهنة في أن تجعله يفوز بجميلة فجاء اليوم بفرقع سوط القوة فوق الرؤوس، يفصل والدها عن عمله لكي يرغمه على تقديم ابنته له اتقاء لشره، يضرب الناس ويقودهم إلى السجن دون أن يلقى عقاباً.

رأى أمه فرحة بعرجون البلح الذي كان باكورة إنتاج النخيل لهذا الموسم، صارت تأخذ العرجون وتقلبه بين يديها، تشمه وتقطف منه بلحاً تذوقه وتدعو الأطفال الذين تصادف وجودهم أمام المنزل تفرق بعضه عليهم وترسل بعضه الآخر للجيران، وتلومه لأنه لم يأخذها إلى هناك لترى البلح وقد نضج، وتقطع على نفسها عهداً بأن تذهب كل يوم مع بقية العائلات لقضاء الأمسيات بجوار النخيل، تأكد له عند ذلك أن أمه سوف لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن شجيرات نخلها حتى لو منحوها كل مزارع الملك.

عندما جاء الليل وانضم العيد إلى الحلقة الكبيرة التي عقدت بساحة القرية، لم يكن ذلك لأن لديه شيئاً يريد أن يقوله، أو لأن في ذهنه تصوراً لما يجب أن يعمله، كل ما في الأمر أنه أحس بأن عليه في مثل هذه الأوقات أن يكون بينهم وأن يتصرف مثلهم وأن يعاني معاناتهم وألا يبقى منطوياً علي نفسه لا يفعل شيئاً سوى التفكير في الهروب. كان التجمع كبيراً، ودار الحوار هامساً، يطوفون حول الموضوع ولا يتحدثون عنه بشكل مباشر، ولكن عبارة واحدة قالها أحد الجالسين أمدتهم بشحنة جديدة من الانفعال والحرارة وجعلتهم يتخلون عن صمتهم وتحفظهم، قال الرجل:

- إن السجن أرحم لنا من هذه الحال.

حقاً، ما الذي سيخسرونه لو أنهم قالوا كلمتهم في وجه الحكومة، قد يسوقونهم إلى السجن، ولكن السجن لن يكون أكثر وطأة من هذا الإحساس بالقهر والعجز والمذلة الذي يجعلهم يكرهون أنفسهم، دار الحديث صريحاً حول القرية التي ستعود مرة أخرى إلى قبضة الأجانب، والشيخ الذي سجنوه ظلماً، ومصنع الزجاج الذي وعدوهم به ثم اكتشفوا أنه مجرد خدعة ومكيدة، والعمل الذي يجب أن يقوموا به لإسماع صوتهم إلى الحكومة، وجد العيد نفسه يتحدث لأهل القرية عن المدينة التي عرف شيئاً حول أساليب مكافحتها لقمع الحكومة، إن في المدينة أصواتاً كثيرة تجاهر بالعداء لسياستها، هناك نقابات عمالية واتحادات طلابية ورجال وطنيون ينظمون المظاهرات ضد القواعد الأجنبية ويكتبون المقالات والمناشير التي تندد بها، وإن صوت القرية لابد أن يصل إلى كل هؤلاء الناس، يجب ألا تبقى قضيتهم محصورة في حدود القرية يعبث بها المتصرف كما يشاء، وإنما يجب أن ينتقلوا بها إلى ساحة أوسع وأكبر لتصبح بالتالي قضية كل هذه القوى التي تصارع الحكومة، وأبلغهم أنهم إذا ما كتبوا عريضة أخرى فإنه على استعداد لأن يأخذ نسخاً منها إلى المدينة ويقوم بتوزيعها على هذه الاتحادات والنقابات والصحف الوطنية، استقبلوا كلماته بشيء من الاندهاش والفرحة، فهم لأول مرة يعلمون أن هناك في الدنيا من يعادي الحكومة أو يثور في وجهها ويرفض سياستها، فالحكومة إذن ليست غولاً كبيراً قادراً على زرع الرعب وفرض إرادته على الناس، وإذا كان أبناء المدينة المرفهين، الناعمين، الذين يمضغون العلك، ويعيشون في قصور على شواطئ البحر،

ويتناولون أكلهم جاهزاً في المطاعم، يستطيعون مقاومة الحكومة فكيف إذن يصيب الذل رجالاً جدتهم المجدوبة التي أرعبت الصحراء وجدهم صانع البارود وصاحب برج النعام وطعامهم الشمس والريح.

وفي الصباح جاء رجال الشرطة يطوفون على البيوت، يلتقطون كل الذين حضروا الاجتماع ويقودونهم إلى مركز الشرطة للتحقيق، كانت قد ظهرت على جدران القرية كتابات تندد بالحكومة وتطالب بإقالة المتصرف وإطلاق سراح الشيخ مسعود، نفى العيد أن تكون له علاقة بهذه الكتابات، سألوه عن سبب إقامته الطويلة في القرية مع أن عمله يقتضي منه البقاء في المدينة فأجابهم بأنه جاء لقضاء إجازة الصيف بجوار أمه وحضور موسم قطف ثمار النخيل، أبلغوه بلهجة حاسمة أن وجوده في القرية غير مرغوب فيه، وأن عليه أن يعود منذ هذه اللحظة إلى عمله ويبتعد عن إثارة المشكل إذا أراد لنفسه النجاة.

[٣٣]

ظلت جميلة تنتظر كل يوم أن تعود إليها تلك الحالة التي رأت فيها نفسها تترك جسمها فوق السرير وتطوف في عالم من البهجة السماوية وتخترق برؤيتها الجدران وتستمتع بالالتحام بروح الكون وصفاء الأبدية، كانت تعيد نفس المشهد الذي رأت فيه تلك الرؤية وعاشت فيه تلك التجربة النادرة المبهجة، تتمدد فوق سريرها وتحدق بعينيها في السقف، وعندما لا تعود إليها تلك الحالة كانت تحاول أن تطوي ذكراها في صدرها وتنسى أنها قد رأت ما رأت، ولكنها لا تستطيع، ما أن تقرر أن تمتنع عن التفكير فيها حتى تجد أنها قد عادت إلى تلك التجربة تستحضر تفاصيلها وتجهد نفسها في البحث عن تفسير لها، ورأت أن سمعها قد ازداد إرهافاً بعد ذلك اليوم إلى حد أنها تتصور أحياناً إنها تستطيع أن تسمع حركة السحب الصيفية البيضاء وهي تزحف على بطونها في أديم السماء، تمنت لو أنها تجد الشجاعة لأن تخبر أحد الناس بما حدث لها وتشركه معها في حيرتها، أمها على وجه الخصوص، ولكنها تعرف أن أحداً لن يصدقها، حتى أمها سوف تظن أنه قد جرى لعقلها شيء ما، وسوف تزداد خوفاً عليها، تابعت بفتور الأحداث التي مرت بها القرية

وموجة الخوف التي تجتاح الناس بسبب إرغامهم على ترك بلدتهم، أخبرتها أمي سعيدة بأن العيد بخير وهو مازال مقيماً بالقرية ينتظر موعداً للقائها، لم تعد بشيء، فهي تحس بأنها لم تتحرر بعد من وطأة تلك الكآبة التي لازمتها طويلاً، حتى حبها للعيد صار حبا بائساً، البؤس أصبح رداءً ينسحب على كل شيء حولها، كأنها لم تعد تجد معنى للهدف الذي من أجله يولد الإنسان ومن أجله يعيش، إنها لا تستطيع حتى أن تزهو بجمالها بعد أن أصبح هذا الجمال مصدر آلامها ومعاناتها، لقد أحست بشيء من الراحة وهي ترى المتصرف يتوقف عن زيارة بيتهم، ويسحب ظله الثقيل من فوق رأسها، ولكنه عندما رأته يطرد والدها من عمله في اليوم التالي أدركت أن الأمر لن ينتهي عند ذلك الحد، وأنه مازال في جراره ما يملأ به كؤوساً أخري من الشقاء يسقيها لهم جرعة جرعة، والدها يدخل البيت صامتاً ويخرج صامتاً ويجلس وحيداً في المربوعة لساعات طويلة وليس على فمه سوى «لا حول ولا قوة إلا بالله» كان واضحاً أنه بدأ ينسحب إلى عالمه القديم عندما كان كمّا مهملاً لا يعرف كلاماً غير هذه الكلمة ولا يعبأ بأحد ولا يعبأ به أحد، يسدل ملامحه في رتابة وانكسار وقد عاد إلى وجهه ذلك الاعوجاج الذي يبدو بارزاً في طرف فمه الأيسر، يشيعها بنظرات آسية حزينة تشعر معها وكأنه يتهمها بأنها مسؤولة عن فصله من العمل، وتتساءل أحياناً إذا ما كان حقاً يريدها أن تقبل بالمتصرف زوجاً لها لكي يرفع نقمته عنهم، وتحس بالأسى لأنها لا تستطيع أن تساعده، فهي في حالة نفسية تتضاءل معها الأشياء وتفقد معناها، ذابت الألوان جميعها في لون سديمي وما عادت تستطيع التمييز، عالمها ضيق، وصغير، ومحدود، لا تكاد تخرج لحظة واحدة من البيت، ومنذ أن أقامت أمها حفلاً بمناسبة الشهادة التي نالتها لم

تعد ترى أحداً يزورها سوى أمي سعيدة، لقد ظنت أن خبر نجاحها سوف يسعدها كثيراً باعتباره حلماً طالما تمنت تحقيقه، ولكنها وجدت نفسها تستقبل الخبر ببرود كأنه لم يعد يعني لها شيئاً، لعل هذه الجدران التي تحاصرها من كل جانب هي المسؤولة عن هذا البرود الذي تسلل إلى روحها، أو لعل روحها التي عاشت تجربة الفرح السماوي لم تعد تطيق البقاء في هذا العالم المجدب الرتيب، وتحن إلى الذهاب إلى عالم أوسع وأرحب وأكثر بهجة وجمالاً، تأتي لحظات تتمنى معها لو أنها تستطيع أن تنطلق تتسلق الجبل أو تجري في الصحراء أو تعود طفلة صغيرة تعدو بين أشجار النخيل وتقذف عراجينها بالحجارة، لقد استيقظت اليوم على صوت المؤذن لصلاة الفجر تردد أصداءه الهضاب المحيطة بالقرية فبدا لها كأن الهضاب تناديها وتدعوها لأن تترك البيت وتخرج راكضة عبر المدى الرحب، فتحت باب غرفتها تريد الذهاب وتلبية هذا النداء لكنها رأت والدها قد استيقظ يباشر الوضوء والاستعداد للصلاة، فعادت إلى سريرها ودخلت في روتينها اليومي تسمع المذياع وتقرأ كتاباً أو مجلة ثم تمل السماع والقراءة وتحاول أن تعين أمها في أعمال البيت ولكنها تحس بالإعياء والسأم فترتمي مرةً أخرى فوق سريرها تحدق في السقف وتنتظر غيبوبة الفرح بلا جدوى، وما أن جاء الضحى وتبخرت طراوة الصباح وصار جو البيت خانقاً تحت وهج الشمس اللافحة حتى قررت أن تخرج، لا تدري إلى أين ولكنها لابد أن تخرج الآن ولو للحظات قصيرة ثم تعود، وضعت المنديل فوق رأسها، واتجهت إلى الباب غير عابئة بأحد، هرولت أمها وراءها تسأل بلهفة عن المكان الذي تنوي الذهاب إليه، أجابتها دون تفكير:

- وهل هناك مكان آخر غير بيت أمي سعيدة؟

رجعت الأم ترتق جوارب زوجها ولم تقل شيئاً .

مرحِّبة، مستبشرة، استقبلتها أمي سعيدة، فهذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها جميلة إلى بيتها بعد غيبة طويلة، قالت لها بعد أن مدت المندار ووضعت فوقه الوسائد ودعتها إلى الجلوس:

- ها قد عدت إلينا بعد غربة طويلة .

فجَّرت هذه الجملة كوامن الوجع في أعماقها، هل حقاً عادت من غربتها، وهذه العزلة التي تعيشها، وهذه المرارة التي تملأ حلقها، وهذه الأشياء التي فقدت طعمها ومعناها، وهذه السحب التي تعبر السماء وتملأ أذنيها بالضجيج، حتى إذا كانت قد عادت، فهي لم تعد إلا لتشهد آثار هذا الحريق الهائل الذي اجتاح الدنيا أثناء غيبتها فامتلأ العالم بحقول الرماد. انهمكت أمي سعيدة في حديث طويل عن الأحداث التي تمر بها القرية ولكن جميلة كانت غائبة تتساءل بينها وبين نفسها إذا كان من الصواب أن تحكي لأمي سعيدة الرؤية التي رأتها، ومازالت تملأ عقلها وقلبها، وتشيع جواً من الفوضى في تفكيرها، لعل لدى هذه المرأة الحكيمة ما يعيد إلى الأشياء نظامها الذي فقدته، ولكنها مرة أخرى ترددت في أن تقول شيئاً، ليبقى ما رأته سراً غالياً تحتفظ به لنفسها، تتعذب به عذاباً شهياً دون أن تشرك فيه أحداً غيرها، انتبهت إلى أن أمي سعيدة تتحدث عن الشهادة التي أخذتها وتسأل عن مشاريعها للمستقبل، كأنها لا تعلم أن حماسها للأشياء قد خبا، وأن هذا النجاح لا يعني لها شيئاً، المستقبل، الكلمة ذاتها بدت غريبة، لقد وقفت زمناً على حافة الدنيا، أو أنها اعتقدت بأن ما عانته إنما هو وقوف على حافة الدنيا وعلامة من علامات

النهاية، فكيف تستطيع أن ترى أبعد من هذه الحافة التي وقفت عندها، حتى الرؤية التي رأتها لم تجد تفسيراً لها سوى أنها تمرين مبدئي على الموت، لقد كان الله رحيماً بها فأراد قبل أن يأخذها إلى جواره أن يريها أن الموت ليس بالبشاعة التي يتصورها البشر وأن ما أحسته من أمن وسلام وسعادة قصوى خلال تلك اللحظات يجعلها لا تخشى الموت إذا جاء، إنها الآن لا تخشاه، بل هي تنتظر بشوق وحنين اليوم الذي تعاودها فيه تلك الأفراح الإلهية وتعرف أنه لن يكون بعيداً، وسوف لا تستجيب هذه المرة لنداء أمها عندما تأتي لتوقظها، ستستمر في معانقة الفرح الأبدي. المستقبل، وجدت نفسها تعيد الكلمة في خاطرها وكأنها تسمعها لأول مرة.

– هل قلت المستقبل؟ إنني لا أدري.

إنها تحاول الآن سبر عواطفها، تحاول أن تتفحص ما الذي صارت تعنيه هذه الكلمة بالنسبة إليها وتمد بصرها لترى ما تحمله الأيام القادمة فوق جناحيها، ولكنها لاتستطيع أن ترى غير الشظايا المتناثرة هنا وهناك، لقد عرفت مصيرها، وها هو حاكم القرية يواصل حصاره ويتفنن في التنكيل بوالدها وها هي القرية كلها مهددة بالانقراض والاختفاء، وها هو الضجيج الذي يملأ الدنيا تسمع صداه كالأنين تعيد ترجيعه الجبال المحيطة بالقرية، وها هو نداء يتحرك في أعماقها بأن تترك كل شيء وترحل بعيداً عن هذه الدنيا، فأي صورة للمستقبل يمكن أن تتكون لديها.

– يجب أن أكون أكثر احترازاً في حديثي معك. فهذه أول مرة في حياتي أتحدث إلى معلمة.

إن طنيناً عظيماً كان يملأ رأسها عن المعلم ورسالته في الحياة،

كانت تحس بأنها عندما تملك هذه الشهادة فكأنها انضمت إلى قافلة الأنبياء الذين يصنعون الضوء ويطاردون مسادر الجهل والظلام، ولكنها كانت بريئة لم تسمع أنين الجبل ولا اهات السحب التي تزحف على بطونها في السماء.

تناهى إليهما طرق على الباب فقامت أمي سعبدة لترى الطارق، كان العيد قد جاء لتوه من مركز الشرطة، أخبرته بأن جميلة قد جاءت لزيارتها وأنه ليس من اللائق أن يراه الناس يدخل بيتها وهي موجودة، وإن من الأفضل ترتيب لقاء آخر كما حدث في المرات السابقة، أدرك حرج الموقف ولعن في سره الناس الذين لا هم لهم إلا مراقبة الآخرين، وقف لا يدري ماذا يفعل، إنه لا يستطيع أن يدخل ولا يستطيع أن يكبح توقه الشديد لرؤيتها، رأته أمي سعبدة مرتبكاً لا يقوى على الذهاب فسألته أن ينتظر قليلا لكي تشاور جميلة، وجدتها غير عابئة بما يقوله الناس، ماذا يمكنهم أن يقولوا أكثر مما قالوه فليدخل وليكن ما يكون، ترددت المرأة العجوز تهيبا للموقف وعندما رأت إصرار جميلة وإلحاحها عادت إليه، أطلت برأسها تستطلع الشارع وعندما لم تر أحداً سألته أن يدخل.

صافح المرأة التي أحبها أكثر من أي شيء اخر في الحياة، أبقى يدها في يده وكأنه لو تركها لانسلت من حياته كالشعاع، وجلس بجوارها فوق المندار يتأمل عينيها وقد أصبحتا هالتين تحيطهما الكآبة الزرقاء، وتفيضان حزناً وجمالاً وحباً، لقد ازدادت شحوبا ونحولا وشفافية عن آخر مرة رآها فيها فأصبحت خيطاً رفيعاً من الضوء، سوف لا يتوقف أبداً عن حبها لأنه لو توقف يوماً واحداً لفقد كل مبرر للحياة، بدت في عينيه وكأنها لحن عذب حزين يعزفه على الناي أحد الرعاة

في حقل أخضر فسيح تسيل فيه جداول الماء وتبتسم من فوقه النجوم، أدرك أنه في حضورها يصبح إنساناً آخر، لقد نسي الآن دوامة الحر والغبار وأيام التشرد والطواف اليائس حول بيتها ومطاردات الشرطة وعرائض الاحتجاج على الحكومة، إنسان تحرر من أحزانه وارتفع محلقاً فوق همومه ومشاكله وتخلى عن هذ القطيع الذي تسحقه الحياة اليومية بروتينها وتفاهتها وصار أكثر قرباً والتحاماً بالينابيع التي تصنع النور وتجدد دورة الحياة وتمنح الإنسان الوسامة والفرح. هنأها بنيل الشهادة واعتبر ذلك انتصاراً في معارك التحدي التي خاضتها منذ أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة، وبداية انتصارات أخرى على كل المتاعب التي عاشتها، ما أكثر النساء اللاتي في سنها من أهل هذه القرية ممن حرمن أية فرصة للخروج من دائرة الجهل والأمية، وها هي الآن قد كسرت الطوق ونفذت من حصار الظلام وصارت قادرة على أن تصنع حياتها بنفسها ودون حاجة إلى عون من أحد.

لا شك أن موضوع هروبهما قد صار الآن مسألة لا ضرورة لها، فها هو المتصرف كالثعبان الذي فقد ذيلة إثر ضربة فأس، يعود مذعوراً إلي الشق الذي خرج منه في الجدار المتهالك الهرم الذي سيؤول قريباً إلى السقوط، جلس هناك يلعق جراح هزيمته ويلجأ إلى أسلوب رخيص في الانتقام وذلك بطرد والدها من العمل، إنه الآن يواجه أعتي العواصف - قال لها يطمئنها - التي لن تتوقف حتى تطيح به عن عرشه الوهمي، وسيكون العيد أحد الذين يصنعون هذه العواصف ويطاردونه بها، أخبرها بالزيارة التي قام بها رجال الشرطة صباح هذا اليوم إلى بيته يأخذونه إلى المركز للتحقيق، بدا الانزعاج في عيني جميلة التي توقعت شراً كأن هذه القرية أصبحت عشاً

للعقارب، وسألته أمي سعيدة غاضبة إن كانوا قد جرؤوا على مسه بسوء، طمأن المرأتين إلى أنه خرج من المركز سليماً دون أن يناله أذى، كل ما في الأمر أنهم طلبوا منه أن يعود إلى عمله بالمدينة ولذلك فهو لن يستطيع أن يقيم بالقرية، سيبقى هناك وسيكتفي بزيارات سريعة في أيام العطلات، وهو لا يمانع في ذلك لأن وجـــوده في المدينة سيجعله أكثر نفعاً لقضية القرية حيث سيباشر فور وصوله الاتصال بالاتحادات والنقابات لتكون شريكة في مكافحة المخططات التي تسعى لتأجير القرية إلى جيش أجنبي، وستكون قرية «قرن الغزال» التي عاشت مهملة مجهولة حديث الناس في المدينة، يأتي على ذكرها الخطباء وتكتب اسمها الصحف وتكون رمزاً للنضال ضد العسف والظلم، وسوف تجد الحكومة نفسها مرغمة على طرد المتصرف وأعوانه والتراجع عن قرارها بتحويل القرية إلى قاعدة عسكرية وبناء المصنع الذي وعدت كاذبة بإنجازه. مضى يتحدث بتدفق وحماس كأنه عثر في هذه القضية على شيء أمضى زمناً طويلاً يبحث عنه، لقد كان يرى الصراع يدور شرساً، عنيفاً، ينال من حبه ويلحق الأذى بحبيبته دون أن يهتدي إلى وسيلة يدفع بها هذا الشر، فوقف عاجزاً لا يفعل شيئاً، ولكنه الآن يحس بأن هذه القضية قد فتحت أمامه باباً كبيراً للعمل من أجل خلق بيئة جديدة لا ترتضي القمع ولا تخنق الحب ولا تنبت حكاماً يستعيرون دور الآلهة ويملكون الأرض ومن عليها، ومنحت صراعه ضد المتصرف معنى أكثر نبلاً من مجرد النزاع الشخصي، وأضافت إلى حبه بعداً جديداً يجعله أكثر عمقاً وارتباطاً بالأرض والجذور، وهو حريص على أن تعرف جميلة كل هذا، فالصراع الآن يأخذ شكلاً أكثر شمولاً واتساعاً ونتائجه ستكون أبعد أثراً في حياتها وحياته. تابعت جميلة حديثه باهتمام وهي تضم قلبها

على الشوق العظيم الذي تحمله له وتمنت في نفسها ألا يكون العيد قد اقتحم هذه المعارك وارتضى أن يعرِّض نفسه للخطر من أجلها، إنها تحبه ماتزال، ولكنها صارت تري الأشياء في ضوء جديد، إنها كمن عرف موعد موته فلم يعد يثيره شيء، ولم يعد يسعى إلى شيء، لا يعقد آمالاً على أحد، ولا يري فائدة من أن يعقد أحد آمالاً عليه، ولذلك فهي تتمنى أن يعتني العيد بنفسه التي أهملها طويلاً، بدروس الجامعة التي التحق بها، وبعمله الذي تخلى عنه وجاء ليقيم في قرية تطاردها الشرطة والرياح، ينتظر لحظة مسروقة من عمر الزمن يلتقيان فيها، لا تريده أن يستيقظ ذات يوم فيجد أن الأيام قد سرقت منه جزءاً من العمر الذي يجب أن يكرسه لبناء حياته ومستقبله، إنها لا تثق بما تأتي به الأيام، وهي تحت وطأة هذا الأسى الذي يملأ قلبها لا تحس بأنها قادرة على تقديم شيء له، إنها متعبة حزينة لا تجد في نفسها القدرة على أن تمنحه السعادة التي يرجوها من هذا الحب، ولا تستطيع أن ترى غير هذه الحبال الثقيلة السوداء التي تشدها إلى واقع بائس مريض، ولاتستطيع أن تقفل أذنيها عن دبيب الموت الذي تسمعه يتقدم بخطي بطيئة نحوها، ومن الظلم له ولها أن تبقيه مرتبطاً بها يدور في هذه الدوامة حتى يصيبه الإنهاك والدوار ينتظر أملاً لا يتحقق. سمعته يقترح عليها أن تطالب بتعيينها في المدينة، سيقيم لها عرساً عظيماً هناك وسيدعو عائلتها للإقامة معهم في البيت الذي سيؤجره لها وستصفو لهما الحياة بعد هذا العناء الكبير.

كانت أمي سعيدة قد تركتهما وذهبت تسقي أعشابها وتطعم دجاجها.

شعرت جميلة بالارتباك وهي تبحث عن كلمات تشرح بها

موقفها، ظلت صامتة لا تقول شيئاً، علق العيد عينيه بشفتيها ينتظر كلمة منها، أحست بقلبها يبكي تحت وطأة ثقل الأحلام التي تتهاوى وتسقط وتتحول إلى جبل من الأنقاض والركام. سمعها تقول بصوت واهن ضعيف:

- لا أرى فائدة من كل هذا.

أصابه كلامها بالاندهاش والاضطراب، بذل مجهوداً كبيراً للتغلب على نفسه التي تريد أن تتحول إلى شظايا، لم يكن ينتظر منها إجابة كهذه وهي التي اقترحت منذ أسابيع قليلة أن تهرب معه. لأول مرة يسمع هذه الرنة الغريبة في صوتها الذي بدا مخنوقاً وكأن يداً تطبق على عنقها، كأنها تكره نفسها إكراهاً علي قول كلام لا تريد قوله، لعله المتصرف مرة أخري، لعل والدها قد خضع لتهديده وأقنعها بقبوله زوجاً تضحية من أجل أسرتها، تساءل في ألم وحيرة إذا كان الأمر كذلك، أسرعت ترجوه ألا يسيء الظن بها، فهو يعرف أنها لن تكون لأحد غيره. ليت للإنسان أجنحة مثل الطيور فشوقها للرحيل إلى المدن البعيدة لا يعادله إلا الحب الذي تحمله للعيد، ولكن ماذا نفعل للأحلام الكبيرة التي تأبى أن تتحقق في يسر وسهولة، لابد أنه يعرف أن الأمور أكثر تعقيداً من هذه الصورة البديعة التي جاء يرسمها عن عرس عظيم ترن فيه الأوتار وتصدح فيه الحناجر بالغناء وهما في ثياب العرس يتعانقان عناق العشاق الذين حققوا أقصى أمانيهم في الحياة، ومن حولهما أسرته وأسرتها وقد اجتمعوا على الحب والصفاء، وهل تتوق لشيء أكثر من ذلك، ولكن هل تستطيع أن تخدع نفسها وأن تدير وجهها عن حقائق الحياة القاسية المرة التي

تنتصب أمامها كأحجار القبور. سمعت صوته يأتيها وكأنه يأتي من قاع بئر مهجورة تمتلئ بصفير الرياح:

- هل هو حكم على علاقتنا بالموت؟

هدأت من خاطره قائلة بأنها لا تعني ما ذهب إليه، كل ما في الأمر أنها تريده أن يرجئ التفكير في موضوع الزواج الآن لكي يمنح نفسه وقتاً يعيد فيه ترتيب حياته ويهتم قليلاً بالأشياء التي أهملها طيلة وجوده قريباً منها، وإنها ستتوقف عن لقائه عدة أشهر لكي تتيح لنفسها فرصة أن تلقاه وهي أكثر استعداداً له، فليس من العدل أن تذهب إليه وتستمر في لقائه وهي محملة بكل هذه الأثقال من البؤس، ولا تريد له أو لنفسها أن يفتحا معركة جديدة مع والدها الذي مازال غاضباً منه، ولن يمضي وقت طويل حتى تكون هذه الفوضى التي تشيع في دنياهما قد وجدت حلاً. ولكن العيد دافع بشراسة عن حبه الذي رأى الخطر يتهدده من الداخل هذه المرة، أفهمها أنه لن يستطيع أن يتأخر أسبوعاً واحداً عن رؤيتها ولن يستطيع أن يتوقف دقيقة واحدة عن حبها، وفي ختام حديثه أطلق استغاثة أخيرة كاستغاثة قارب يشرف على الغرق:

- إنني الآن بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى.

انسحبت جميلة إلى عالمها الخاص، وتركته بنظر في بلاهة إلى عينيها غير مصدق أن دفاعه قد وصل إلى طريق مسدود.

لم تشأ أن تقول له إنها شاهدت ذات صباح روحها تغادر جسمها ثم تعود إليه مرةً أخرى، وإنها رأت في ذلك إنذاراً بقرب نهايتها وإنها تريده صادقه أن يوطن العزم على فراق لا لقاء بعده.

ثم رأى الدموع فجأة تملأ عينيها، وتنهمر في البكاء بحرقة وأسى. لم يدر ماذا يفعل، حاول أن يقول شيئاً يعتذر به عن إثم اقترفه في حقها دون أن يعلم، ولكنه قبل أن يفتح فمه بالكلام رآها تقف وتسوي المنديل فوق رأسها استعداداً للخروج، قفز واقفاً أمامها حائلاً بينها وبين الباب كأنه يريد أن يمنعها من الذهاب، وجهه في وجهها وعيناه في عينيها، وجسمه مرتعش لا يكاد يقوى على الوقوف، كانت هي قد توقفت عن البكاء ولاحظ وهو يراها واقفة مدى ما أصابها من النحول كأنها طيف هبط من السماء، رآها تقترب منه وتضع رأسها على كتفه وتعلق ذراعيها بعنقه، طوقها بذراعيه وضمها إلى حضنه وأحنى رأسه فوق رأسها، بقيا لحظة على هذه الحال، ثم وجد نفسه يأخذ وجهها بين يديه وينظر في عينيها المليئتين بالفجيعة المبللتين بالدموع، اقتربت بفمها من فمه، أسلمت شفتيها إلى شفتيه، رحل إلى مدينة أسطورية تمتلئ بغناء الطيور وتغتسل في بحيراتها النجوم وتقيم فيها الأشجار أعراساً للعاشقين، بقي في مكانه يستمرئ الخدر اللذيذ الذي سرى كالنسغ في عروقه، ثم أفاق من خدره وقد اختفت الطيور والنجوم والأشجار والبحيرات وينظر حوله فيرى فراغاً موحشاً بانتظاره، لقد منحته قبلتها ومضت في طريقها كما تمضي سحابة العطر، خرجت دون أن تقول وداعاً.

أراد أن ينطلق وراءها ولكنه رأى أمي سعيدة تقف قريباً من الباب تسأله أن يبقى ساعات أخرى لكيلا يراه الناس خارجاً بعد لحظات من خروجها فيعرفوا أنه كان يلتقي بها ويملأوا القرية بالشائعات. استسلم لتعليمات المرأة العجوز، لم يخبرها بشيء مما حدث بينهما ولم يكن صعباً عليها أن تتكهن بما جرى، لقد سمعت جزءاً من النقاش، اكتفت بأن سألته قائلة:

- هل ستذهب اليوم إلى المدينة؟
- حالما أخرج من هذا البيت .
- إنه عين الصواب .
- وستمضي أشهر طويلة قبل أن أعود إلى هنا مرةً أخرى .

سكت قليلاً ثم اضاف :

- هذا إذا لم تشرق الشمس من الغرب إيذاناً بأفول نجم هذه القرية إلى الأبد .
- حتى وإن لم تكن هناك قرية فستجدني أسقي أعشابي في هذا المكان الذي لن أغادره إلا إلى مقبرة سيدي أبو قنديل ، إنني أدعو في صلاتي بألا يتأخر ذلك اليوم طويلاً ، فأنا كما تعلم امرأة وحيدة ، لا أحد بجواري يعينني على تحمل شيخوخة عاجزة .
- بعد عمر طويل إن شاء اللّه .
- أرجو أن تلقى الأمور أكثر يسراً وسهولة عندما تعود .
- هذا ما أرادته هي ، لقد حكمت على بالحياة في المنفى دون أن تمنحني فرصة للدفاع .
- إن لديها أسبابها التي تعرفها ، فلا تحزن يا ولدي وكن على يقين بأنها تحبك أكثر مما تحبها .

منحته كلماتها شيئاً من الهدوء والسكينة ، انتظر وقتاً كافياً ثم استأذن قائلاً :

- أرجو أن تذكرينني دائماً بالبركة والدعاء .
- ليجعل اللّه لك في كل خطوة سلامة .

[٣٤]

عارية، قاسية، صخرية، غارقة في ضوء الشمس، أطلت الهضاب القريبة، تمتلئ بالحزن وجلال الصمت.

ومن بيته في الطرف الآخر من القرية جاءوا يحملون على أكتافهم نعش الشيخ نصر الدين الذي مات مع الفجر فلم ينتظروا بجنازته حتى صلاة العصر كما جرت العادة وإنما خوفاً من أن يصيب هذا القيظ جثمانه بالتعفن، جاءوا مع الضحي لتشييعه ودفنه بمقبرة سيدي أبو قنديل.

بدأ الموكب بعدد قليل من الناس، وعلي امتداد الطريق كان مزيد من الرجال ينضمون إلى الجنازة، ويتناوبون على حمل التابوت الذي يضم رفاته، وما أن وصلوا إلى المقبرة حتى تجمع حشد هائل من أهل القرية يرددون في صوت واحد:

– لا إله إلا اللّه.

صلوا عليه صلاة الجنازة، وأودعوا جثمانه التراب، وقدموا لأفراد أسرته العزاء، ولم يبق إلا أن يعودوا إلى أعمالهم وبيوتهم، وفي حين جلس بعض الشيوخ حول القبر يقرأون سورة يس وانهمك بعض أقارب الميت في البكاء، ظل بقية الناس واقفين في أماكنهم لا يغادرون المقبرة كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، برغم القيظ الذي يلفح الوجوه ويحيلها إلى وجوه سوداء، ظلوا جميعهم

واجمين، تحرقهم الشمس ويغطيهم الحزن، يمسحون العرق ويطردون الذباب ويستمعون في صمت إلى سورة يس التي يرتلها المرتلون، ويرفضون الذهاب كأنهم ينتظرون حدثا لا يعرف أحد منهم ماذا يكون.

﴿يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

ووسط هذا الجو الذي يخيم فوقه جلال الموت، ارتفع صوت ضوء الهلال صائحاً دون أن يحس بحرج وهو يقاطع المقرئين:

- هل انقرض الرجال من «قرن الغزال»؟ هل نبقى ننوح كالنساء الأرامل وهم يسجنون شيخنا ويضربون رجالنا ويبيعون قريتنا إلى الطليان؟

قال أحد الحاضرين مصححا:

- إنهم الأمريكان هذه المرة.

- كله استعمار فلماذا تكذبون على أنفسكم، لن تمضي سوى لحظات حتى تأتي الشاحنات تنقلكم كالأبقار بعيدا عن أرضكم وترمي بكم في الخلاء.

عندها فقط، عندما ارتفع هذا النداء، أدركوا سبب بقائهم جميعاً في المقبرة، لقد كانوا بانتظار كلمات كهذه حتى لو جاءت من رجل لا أحد يثق بسلامة عقله مثل ضوء الهلال، إذ سرعان ما ارتفعت الأصوات من هنا وهناك تؤيد كلام الرجل وتطالب أهل القرية بالوقوف صفاً واحداً في مواجهة الظلم.

ولكن رجلاً من أهل الميت وقف غاضباً يطالبهم بالإنصات إلى

القرآن الكريم، وتأجيل النقاش إلى حين الانتهاء من التلاوة، فامتثلوا لما قال وسكتوا عن الكلام في حين واصل المقرئون ترتيل السورة:

﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أين ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾.

منذ أن سجن الشيخ مسعود وقادوهم مرغمين إلى التوقيع وهم تائهون، الغضب الذي يأكل أعصابهم لا يتحول إلى شيء يريدونه أن يكون، بقي ساكناً في عظامهم يصيبهم بالوهن والأعياء والعجز، يدمرهم بدلاً من أن يتحول إلى شيء يدمر من يريدون له الدمار، يجتمعون ويفترقون بحثاً عن سبيل لتصريف هذه الشحنات الغاضبة دون الاهتداء إلى شيء، ولكنهم الآن وقد أتاحت لهم جنازة الشيخ نصر الدين هذه الفرصة للتجمع واللقاء، يحسون بأن الغضب الذي سكن النفوس لم يكن ينتظر إلا مناسبة كهذه ليعبر عن نفسه، ها هم الآن جميعاً يلتقون في مكان واحد، يتكلمون بصوت واحد، والغضب الآن يبدأ في تشكله البطيء خارج أنفسهم، له شكل الهواء الذي تجمد وصار كتلة من الرصاص، له رائحة الموت وله صوت الصمت المفعم بالتراتيل، يغطي الوجوه ويغطي حجارة القبور التي انتصبت كأنها حقل كبير من النبات المتحجر حيث ينام أسلافهم يعانقون تراب هذه الأرض ويتحللون فيه ويصبحون جزءاً منه.

﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾.

إن ما تريده الحكومة ليس أمراً هيناً يستطيعون السكوت عنه، إنه قلب لكل الموازين وتقويض لكل الأسس التي بنوا عليها حياتهم وارتضوها لأنفسهم وارتضاها الله لهم منذ بدء الخليفة، فكيف يتركونها تنتزعهم من جذورهم كأنهم أعشاب ميتة، إنهم لن يتركوا هذه القرية، لن يتركوا أشجار نخلها ومزارات أوليائها وقبور من ماتوا فيها من أهلهم يعبث بهم جنود يأتون من وراء البحر لا يعرفون قيمتها ولا يحترمون قدسية هذا التراب، وهم أيضا لا يحتملون فكرة أن يموت الواحد منهم فيدفن في أرض غريبة وبين بشر غرباء، بعيداً عن أهله وأقاربه، سيعيشون في هذه القرية وسيموتون بها، وسيذهبون الآن في مسيرة كبيرة يرفضون قرار الحكومة ويطالبون بعزل المتصرف ويرغمونهم على إطلاق الشيخ السجين، انتحى أحد المدرسين بمجموعة من أهل القرية جانباً يسند الورق فوق رخام أحد المقابر ويكتب لهم العريضة الجديدة التي سيقدمونها للحكومة، اقتربت السورة من ختامها وارتفعت الهمهمات استعداداً للكلام.

﴿وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ صدق الله العظيم.

انتهت التلاوة وارتفعت أصوات عدد من الرجال يتكلمون في وقت واحد، كان بين الواقفين عدد كبير ممن يعملون بالمرافق التابعة للمتصرفية ولكنهم جميعاً من أهل القرية، جاءوا يشاركون في تشييع الجنازة ثم بقوا واقفين عندما بقي الناس، لم يشعر أحد بأي حرج من وجودهم، بل هم يرون في وجود هؤلاء الموظفين والعمال الذين لا يبالون بفقد وظائفهم ما يعزز قيمة وقوة هذه المظاهرة التي لم تشهد القرية مثيلاً لها منذ عهد الحماية البريطانية، تلا عليهم المدرس العريضة التي جاء فيها على ذكر مطالبهم وقد عززها بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وأبيات من الشعر العربي القديم، فصفقوا له طويلاً وهتفوا معه بسقوط المتصرف وأمثاله من الحكام الفاسدين،

وقام أحد العاملين بالمتصرفية يتكلم بلهجة حانقة غاضبة معبراً عن ثورته ضد الحكومة مبدياً استعداده للاستقالة من إدارتها التي تظلم الناس لأن الأجر الذي يأخذه سيكون حراماً إذا كان على حساب قهر وإذلال أبناء قريته، فهو على استعداد لأن يعيش على تمر وفكريس النخيل وحشائش الأرض في سبيل كرامته، صفقوا له طويلاً تعبيراً عن إعجابهم بشجاعته وجرأته وفصاحة كلماته التي هزت بصدقها القلوب، مع أنهم يعرفونه تابعاً ذليلاً للمتصرف يبعث به كل يوم إلى الدكاكين يشتري له اللحم والخبز والبيض ويتسول اللبن من الرعاة ليأخذه إليه، ثم سمعوه يقول إن من رأيه أن يبدأوا بأنفسهم وإن يقتلعوا الأعشاب الضارة من حديقتهم، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولذلك فهو يقترح أن تتجه مسيرتهم إلى بيت عامر اليتيم الذي كانت ابنته جميلة سبباً في الأذى الذي أصاب شيخاً جليلاً من رجال القرية الصالحين ها هم اليوم يشهدون نهاية المأساة التي عاشها على يديها، فهي ليست إلا تجسيداً لهذه اللعنة التي جاءت تطارد القرية وتؤدي بها إلى الخراب، ولن ينتهي سوء الطالع إلا إذا ذهبوا الآن إليها وطردوها من أرضهم وقاموا بحرق بيتها وأمتعتها المسكونة بأرواح شريرة كافرة.

ران على الجميع صمت ثقيل لا يقطعه إلا بكاء طفل صغير بجوار القبر.

وقفوا ينظرون في حيرة إلى بعضهم بعضاً وقد فاجأتهم كلمات الرجل، لقد تحدث بحرارة وغضب وقال كلاماً صادقاً فرحوا به وصفقوا له من قلوبهم، ولكن هل يصدقون كلامه عن جميلة، لقد راودهم هذا الشك ذات يوم، كانوا لا يعرفون هدفاً، وظنوا أن حظاً سيئاً يطاردهم ويجلب لهم المتاعب، وبحثوا عن أحد الناس ينسبون إليه سوء طالعهم، رأوا كائناً غريباً في بهائه وجماله مثل جميلة فاعتبروا هذا الجمال الذي لا ينتمي إلى دنياهم مسؤولاً عن نكبتهم،

ولكن الآن وقد تحدد أمامهم الهدف وعرفوا المصدر الذي تأتي منه المتاعب هل يرتدون مرةً أخرى لأكل بعضهم بعضاً؟ ، أراد المدرس الذي قرأ العريضة أن يقول شيئاً، كان غاضباً لأن معنى ذلك أن العريضة التي كتبها لتكون علامة تحول في تاريخ هذه القرية قد أصبحت الآن ورقة لا فائدة منها، ولكنه قبل أن يبدأ الكلام سمع صوتاً يرتفع من آخر الصفوف قائلاً :

– لقد رحل اليتيم فجر هذا اليوم عن القرية .

التفتت الرؤوس إلى مصدر الصوت، كان المتكلم عمران عامل المخبز، أخبرهم بأنه عندما كان في طريقه إلى عمله فجر هذا اليوم رأى اليتيم يشحن أمتعته في سيارة أجرة ويأخذ أسرته ويغادر القرية .

صاح أحد الحاضرين ملتاعاً :

– وهل رحلت جميلة هي الأخرى؟

بدا السؤال ساذجاً لا معنى له، كان واضحاً أن الرجل الذي ألقي السؤال إنما هو أحد الذين أحبوا جميلة في صمت وفجعوا الآن بخبر رحيلها، فانطلق لسانه يفضح ما عاش يخبئه لسنوات في قلبه، فتشوا عنه بعيونهم ولكنه دس رأسه وسط الزحام فلم يهتدوا إليه، إنهم يعرفون الآن أنه تكلم بلسانهم جميعاً، فمن منهم لم يطو في قلبه حبّاً صامتاً لها ومن منهم لم يحس الآن بالفجيعة لخبر رحيلها .

سمعوا أحد الشيوخ يقول :

– لقد كان سهلاً على اليتيم أن يرحل، فهو لا يملك نخلاً في هذه القرية .

كأن أشجار النخيل أوتاد كبيرة تشد الإنسان من ثيابه وتبقيه ملتصقاً بالأرض إلى الأبد. تذكروا أن اليتيم عاش بينهم غريباً ويتيماً، سطعت ابنته نجمة وحيدة في السماء فجاءوا يقذفونها بالحجارة

والأوحـال، أدركـوا الآن أنهـم ارتكبـوا في حق الـرجل وابنتـه ظلمـاً عظيماً، التفتوا بعيون وقلوب أثقلها الإحساس بالذنب يبحثون عن الرجل الذي كان يحرضهم ضد جميلة، فرأوه يتسلل هارباً، جاءت أصوات كثيرة تكشف تآمره وتفضح علاقته بالمتصرف الذي أرسله لإفساد هذا الاجتماع وتحويل ثورة الناس ضده وضد الحكومة إلى غضب ضد جميلة التي نقم عليها لأنها رفضت القبول به زوجاً، فقفز عليه بعض رجال القرية يمنعونه من الهروب ويجرونه إلى قلب الزحام لتنهمر الأيدي تكيل له الضربات، سقط فوق الأرض ميتاً دون أن يعبأ أحد بموته، ثم رأوه يعود إلى الحياة ويزحف عاوياً بين القبور.

ارتفعت أصواتهم كالهدير:

- يسقط المتصرف.
- يسقط، يسقط، يسقط.
- تسقط الحكومة.
- تسقط، تسقط، تسقط.
- تعيش «قرن الغزال».
- تعيش، تعيش، تعيش.

ساروا تحت الشمس الساطعة المحرقة التي تتوسط قلب السماء، العـرق يسيل غزيراً من جباههم، والهتاف ينطلق مدوياً من حناجرهم، فتتلقفه الهضاب القريبة وتعيد ترجيعه كأنها قررت الانضمام إلى مسيرتهم.

وبعراجين مثقلة بالثمار ورؤوس خضراء يجللها الصمت أطلت أشجار النخيل، سامقة تعانق الأفق، مليئة بالكبرياء ورحيق الشمس.

رقم الإيداع ٥٩٥٢ / ٩٨

الترقيم الدولى 977 - 09 - 0460 - 0

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



تمثل رواية «حقول الرماد» التى تشرف دار الشروق بتقديم طبعتها الثانية، محطة متميزة فى إبداعات الكاتب العربى الليبى الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه وعلامة هامة فى تاريخ الرواية العربية الحديثة حيث لاقت طبعتها الأولى ترحيبا كبيرا وتمت ترجمتها للصينية والإنجليزية ووصفها الناقد الليبى الدكتور الهادى عبدالعالى حنيش بأنها «رواية متكاملة تبرز فيها عبقرية الفقيه على تحليل نفسيات الشخصيات وما ينتابها من تغيير».

رواية يتجسد فيها أسلوب الفقيه بكل ما عرف عنه من تشويق وإمتاع وعمق وعذوبة.